القسم الثالث

إيـــرَان

obeikandl.com

الفصل الأول

السياسة وا لمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ في إيران منذ القرن الثالث الهجري دول متقابلة، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التي أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون، وخلفه عليها أبناؤه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد، فكانوا يرسلون لها بالجبايات والضرائب. وفي سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في إقليم بلوخستان شرقي إيران، ومد حدودها حتى شملت كرمان جنوبي إيرا، وأفغانستان، واستولى على خراسان التي كانت بيد الطاهريين. وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً. ويغلب الحسن بن زيد العلوي على طبرستان منذ سنة ٢٥٠ ويقيم بها دول علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصفارية. وكتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسي الثاني إذ بدأت في سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة في عصر الدول والإمارات، متقابلة مع الدولة البويهية التي سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران، ومدت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق، وكانت تقابلها الدولة الزيارية التي سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها، وقد مدت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل. ولا يكاد القرن الرابع ينتهي حتى يبزغ نجم الدولة الغزنوية. وبذلك كانت تتقابل في أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزياريين والغزنويين.

الدولة السامانية[١]

يرجع نسب السامانيين- فيما يذكر البيروني وغيره- إلى بهرام جوبين الذي كان مَرْزُبَاناً لِخُسْرُو أَبْرَوِيز (٥٩٠-٦٢٧م) على ولاية أذربيجان الفارسية، وقد أسلم جدهم سامان خوداه أي سيد قرية سامان الواقعة في إقليم بلخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٤هـ) ولم يلبث اسمه أن لمع بين أصحاب أبي مسلم الخراساني حين نهض بالدعوة للعباسيين في أواخر العصر الأموي، وتوفي، فحل ابنه أسد مكانه في خدمة العباسيين حتى توفي لعصر الرشيد. ويصطنع المأمون أبناءه، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر، فيولي أحمد فرغانة ونوحاً سمرقند ويحيى الشاش وأشروسنة، كما يولي أخاهم إلياس هراة في أفغانستان. ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه. ويتوفى سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده، ويفزع إلهي أهل بخاري، فيرسل إليهم أخاه إسماعيل، ويصبح نائباً له عليها. وتفسد الأمور بين الأخوين، وتكون الغلبة لإسماعيل، فيجرد أخاه من كل سلطان، وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة السامانية.

وتلتقى جيوش إسماعيل في سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كرمان الري وبلوخستان، وتدور الدوائر على عمرو، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل، ويرسل إليه الخليفة المعتضد بخلعة السلطنة. ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة، ويموت متأثراً بجراحه، ويستولي إسماعيل على إمارته. وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نواباً عديدين،

---

(١) انظر في الدولة السامانية الآثار الباقية للبيروني وتجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تغري بردي في مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار التاب اللبناني) ٤/ ٧١٢ وكتاب تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدولير (الترجمة العربية ـ طبع القاهرة) ص٥٢ وتاريخ الأدب العباسي لنيكلسن ترجمة صفاء خلوصي (طبع بغداد) ص٣٥ والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص٢٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين ببيروت) ص٢٦٢.

وبينما كانوا يقيمون في بخاري حاضرتهم كان قائد جيشه يقيم في نيسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة. وتكلل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا في جيش جرار، فنادى إسماعيل في خراسنان وبقية إمارته بالنفير، وجاءت الجنود من كل فج، وهجم بهم على الترك في السَّحَر، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وفر الباقون لا يلوون. وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة، فهو الذي نظم علاقتها بالخلافة العباسية في بغداد، فلم يكن يؤدي لها ضرائب مالية، بل كان يكتفي بإرسال بعض الهدايا، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثمائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفاً كثيرة. وقد منحه الخليفة حق ذكر اسمه معه في خطبة الجمعة وحق نقش اسمه على الدنانير. وظل ذلك تقليداً للأمراء السامانيين، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسي عن الخلافة، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكونوا حكمهم شرعياً، وكانوا تبعاً لذلك سنيين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة.

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١هـ) وكان شجاعاً، فاستولى على سجستان، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١-٣٣٢هـ) ومنه اقتطع مرداويج الزياري طبرستان سنة ٣١٦ واتهم باعتناقه للمذهب الإسماعيلي الشيعي، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣هـ) وهو أول سلاطين الدولة في هذا العصر: عصر الدول والإمارات، وكانت فيه شدة وعنف، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سمل عيونهم جميعاً. وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣-٣٥٠هـ) وكان ضعيفاً. وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠-٣٦٦هـ) وأرسل إليه الخليفة المطيع بالخلد لله بالخلع والتقليد. وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقتطعون من السامانيين كثيراً من أطراف دولتهم في إيران، فاستولوا على كرمان. غير أن خراسان ظلت في أيدي السامانيين هي وما وراء النهر، وظل سلطانهم قوياً فيها حتى عهد منصور. وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن في ربوع بلادهم. ويحكي ذلك ابن حوقل قائلاً: " ليس بأرض المشرق ملك أمنع جانباً، ولا أوفر عدة، ولا أكمل عدة، ولا أنظم أسباباً، ولا أكثر أعطية، ولا أدر طعاماً، ولا أدوم حسن

نيات من السامانيين، مع قلة جباياتهم ونزور أخرجتهم، وقلة الأموال في خزائنهم، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبي صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا، لكل خراج يقبض وضمان يحمل في كل ستة أشهر، عشرون ألف ألف درهم. وعليه أربعة أطعمة في كل سنة دارة، غير مقطوعة ولا ممنوعة، وكل طعم منها في رأس تسعين يوماً، يخرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرفين خمسة آلاف ألف درهم، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكور، وهي عشرون ألف ألف درهم، عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة.. ولهذه الحال أعمالهم مشحونة بالقضاة والجباة والكفاة والولاة منزلين على أرزاق تتساوى، وأحوال في المراتب تتدانى، وذلك أن رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة (المدن) ووالي الصلاة والمعونة وراتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة، وليس ينقص بعضهم عن بعضهم". وهي شهادة قيمة من شاهد عيا غير متحيز، إذ كان ابن حوقل شيعياً إسماعيلاً، وكان السامانيون سنيين، خصوماً لشيعته، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها في الأرزاق والرواتب، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفاني في خدمتهم.

وخلف منصوراً ابنه نوح الثاني (٣٦٦-٣٨٧هـ) وكان صغيراً لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة، وكأنما كان ذلك نذيراً بتضعضع شئون الدولة، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فرغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فيما وراء النهر، وكانوا قد أبلوا في حربهم قبل ذاك طويلاً، وبنوا على حدودهم معهم ربطاً كثيرة، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرون من الإغارة على السامانيين، وكان عبد الملك أبوه قد ولى ألبتكين قائد جيوشه أمر غزنة، فاستعان بمملوكه سبكتكين، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إداة حسنة، فولى نوح الثاني ابنه محموداً الغزنوي خراسان، وتوفي نوح، واضطربت الأمور بعد وفاته، بين ابنيه منصور وعبد الملك، وعلت كفة الأخير، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيراً، فخلا الجو لمحمود الغزنوي، وضم خراسان إلى ممتلكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية.

الدولة البُوَيْهِيَّة[١]

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبي بحر قزوين موطنهم فقط، بل تغلغلوا في إيران، وكان في مقدمة من خرجوا على بن بويه وأخواه الحسن وأحمد، وعملوا أولاً- كما مر بنا في قسم العراق- مع القائد الديلمي ما كان بن كاكي، حتى إذا هزمه مرداويج الزياري حاكم طبرستان وجرجان تركوه إلى خصمه قائلين له- كما روى ابن مسكويه- "الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مئونتنا، ويقع كلنا (عبئنا) على غيرك، فإذا تمكنت عاودناك ". ووقع على بن بويه من مرداويج موقعاً حسناً فولاه على الكرج إلى الجنوب الشرقي من همذان سنة ٣٢٠ للهجرة، ولم يلبث أن استولى في السنة التالية على أرجان وفي تاليتها على فارس. وقتل مرداويح في سنة ٣٢٣ فانتهز علي وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والري اللتين كانتا بيده. وكان أخوهما- كما مر بنا في قسم العراق- قد استولى على كرمان جنوبي إيران في سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد، وكانت تعاني من فوضى شديدة، فدخل أحمد- كما مر بنا في قسم العراق- بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكفى ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً صاحب فارس عماد الدولة ولقب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والري ركن الدولة.

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق في قبضة البويهيين، وأخذوا يزعمون أنهم من سلالة الملوك الساسانيين، ويذكر البيروني أنهم انتسبوا إلى الملك الساساني بهرام جور، بينما ينسبهم ابن الجوزي في كتابه المنتظم إلى سابور بن أرد شير. ويروى أن بويه أباهم كان صياداً بائساً على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتبلغ به. ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتملقين من المؤرخين إرضاء لهم. وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغاً عظيماً، حتى كانت السكة تضرب بأسمائهم، وحتى كانت أسماؤهم تذكر مع الخليفة في خطبة الجمعة.

---

(١) انظر في الدولة البويهية المصادر المذكور في الفصل الأول من قسم العراق.

وكانوا شيعة ويذهب ابن حسول إلى أنهم كانوا يعتنقون المذهب الزيدي [١]، ولعله تأثر في هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدي قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد في أواسط القرن الثالث بتلك الديار، ونمى المذهب بعده هناك أخوه محمد، ثم الحسن الأطروش. والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثنى عشرية على نحو ما سنوضح ذلك في حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر في نقل الخلافة إلى العلويين، فخوفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلاً له: " متى أجست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه " فانصرف عما كان عزم عليه. وظل الخلفاء العباسيون في يده وأيدي البويهيين بعده كأنهم أسرى.

وكانت رياسة البيت البويهي للأخ الأكبر عماد الدولة، فلما توفي سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقباً انتقلت الرياسة إلى أخيه ركن الدولة، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم ملكه بين أولاده، فجعل- كما مرَّ بنا في قسم العراق- لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّجان ولأخيه مؤيد الدولة الريّ وأصفهان ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينَور. وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه، وصدَعا لأمره، فكانا لا يجلسان في حضرته ويقبِّلان الأرض بين يديه على عادة الديالمة، ويخدمانه بالريحان. ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بَخْتيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق. ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميادينها بختيار، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧. ووضع في سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده في يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده، فوجه إليهما أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما.

ومرَّ بنا في قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويهيين، فقد اتسعت دولته حتى شملت كرمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان، وأنه أول من خوطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام. وبلغ من شعوره بأمجاده واعتداده بنفسه أن فكر يوماً في أن يتقلد خلافة المسلمين، فقد ذكر ابن حزم في كتابه "نقط

---

(١) تفضيل الأتراك على سائر الأجناد لابن حسول (طبعة إستانبول) ص٣٢.

العروس في تواريخ الخلفاء" أنه أمر لذلك الحسن بن علي البصري المعروف باسم الجُعَل أن يؤلف كتاباً في تقليد الخلافة في غير قريش أملاً منه في أن يتسمَّى بها، وألَّف الجُعَل أن يؤلف كتاباً في تقليد الخلافة في غير قريش أملاً منه في أن يتسمَّى بها، وألَّف الجُعَل الكتاب، وانتشر الخبر إلى خراسان، فصاح الناس في مجالس الفقهاء: والإسلامه! واامحمداه!. وبلغ ذلك عضد الدولة. فخشي الثورة عليه، وسَمَّ الجُعَل، وقنع الناس بموته وسكن الامر [1]. وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفاً ورعباً، وبلغ من قسوته أنه خشي على ملكه من تدلهه بفتاة، فأمر بتغريقها في غير شفقة ولا رحمة. وكان يضبط أمور دولته ضبطاً دقيقاً، فطهَّر الطرق من اللصوص- كما مرَّ بنا في قسم العراق- ورفع الجباية عن قوافل الحجاج، واحتفر لهم الآبار في الطريق إلى الحرمين، وبني كثيراً من المساجد الجامعة في مملكته وعُني بالعمران وزَرْع البساتين عناية واسعة.

ويتوفى ويخلفه- كما مر بنا في قسم العراق- ابنه صمصام الدولة، وتتوالى الأحداث، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب، فيستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده. ويخرج في سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة، ويصبح له الأمر من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فخلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩-٤٠٣هـ). وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب، ولم يكتفوا بتلقيب أنفسهم، فقد أكثروا من تلقيب وزرائهم بمثل كافي الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك. ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقيب أنفسهم، ولكنهم تفنَّنوا في تلقيب قواد جيوشهم. وبلغ من شيوع ذلك بين حكام إيران أن نجد بغراخان التركي حين يثور على الولة في نسة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة.

---

(١) انظر نشرتنا لنقط العروس في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر، عدد ديسمبر ١٩٥١ ص٧٦.

وكان بهاء الدولة- كما مر بنا في قسم العراق- ظالماً سفاكاً للدماء، وهو أقبح ملوك بني بويه سيرة، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣-٤١٥هـ). وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كَرْمان إلى أن توفي سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦-٤٣٥هـ). ولا يلبث محمود الغزنوي أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة علي الري وأصفهان وبلاد الجبل. وتعظم الفوضى في عهد جلال الدولة، ويخلفه أبو كاليجار محي الدولة (٤٣٥-٤٤٠هـ). ويعظم في عصره شأن السلاجقة، ويستولون على كثير من إيران، ويتوفى أبو كاليجار غمًّا، ويخلفه الملك الرَّحيم، ويدخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة، كما مر بنا في قسم العراق، وبذلك يتقوَّض سلطان البويهيين في العراق وإيران نهائياً.

الدولة الزِّبارِيَّة[١]

زعم البيروني في كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنْسبُ إلى المل الساساني قُباذ الذي حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أو غير صحيح، فإنها ترجع إلى أصل إيراني، وكان مؤسسها مَرْداويج بن زيار الديلمي (٣١٦-٣٢٣هـ). أحد قواد الجبل الذين ظهروا في شمالي إيران لذلك العهد، وقد انتظم في سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسْفار بن شيرويه الديلمي المتغلب على قَزْوين وديارها، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله، وملك البلاد، مؤسساً لأسرته إمراة في طَبرستان وجُؤْجان جنوبي بحر قزوين أو كما يسمى بحر الخزَر، ومَدَّ أطراف إمارته جنوباً وغرباً، حتى الريّ وأصفهان وهَمذان وأرمينية وأذْربيجان وخُوزِستان، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته، وكان فيه عتو شديد. وكان شعوبياً شديد الكراهية للعروبة، فزعم- فيما زعم- أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة، ووعد شيعته بالمسير

(١) راجع في الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيروني وتكملة تاريخ الطبري للهمداني (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي في مواضع متفرقة ومروج الذهب للمسعودي (طبعة دار الأندلس ببيروت) ٤/ ٨٢ وما بعدها، وإيران ماضيها وحاضرها ص٥٣ وآدم ميتز ص٢٦ ويراون في مواضع متفرقة من كتابه: تارخي الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ترجمة الشواربي.

إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليتهم ديار الإسلام ومدنه وسأل عن تيجان الفرس فمثِّلت له هيئتها، فأختار هيئة تاج كسرى أنو شروان، وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلَّى بالجواهر، وصُنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة. وكان يبطن المجوسية، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السَّذَق، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة. وقد أمر في تلك الليلة بأن تُجْمَع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حاضرته أصفهان، ونصَبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعاً عظيمة اتُّخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة. وتمادى في بغيه وعتوه تمادياً شديداً، حتى أوغر صدور بعض غلمانه، ففتكوا به في الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة، ونهبوا خزائنه وأمواله. ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزناً شديداً، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته.

ومرَّ بنا في حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده علي بن بُوَيْه استولى عقب وفاته على أصبهان والري وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط في يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجُرْجان، فإنهما ظلتا في يد خلفاء مرداويج الزياريين، وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣-٣٥٦هـ). ويقال إنه ركب فرساً وشبَّ وهو غافل عنه، فسقط ميتاً. وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦-٤٠٣هـ). وكان كاتباً وشاعراً، ومازال البويهيون يُغيرون عليه حتى فَّر من إمارته عام ٣٧١ إلى السامنيين، وعاش عندهم مكَّرماً حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه. ويقال إنه عَتَا وبغى، واشتد بغيه وعتوه، فأجمعت حاشيته على خلعه، واضطرت ابنه مَنْوجهر (٤٠٣-٤٢٦هـ). أن ينزل على إرادتها، وحُبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد. وظل منوجهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوي استرضاء له، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل في البلاد متحصناً منه بجبال وعرة، وتركه محمود ولم يلبث أن توفي فخلفه ابنه أنو شروان (٤٢٦-٤٣٠هـ) ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوي على الإمارة، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

الدولة الغَزْنويه[١]

كانت الدولة السامانية تستعين في جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم- كما هيأ العباسيون من قبل- أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم، وأ، يصلوا إلى رتب القيادة في الجيش، وأن يقوِّضوها نهائياً بحيث تصبح أثراً بعد عين. وكان من أثار ذلك قيام الدولة الغزنوية، فإن عبد الملك بن نوح السامانى (٣٤٣-٣٥٠هـ) كان قد عيَّن مملوكه التركي: ألبتكين قائداً عاماً، حتى إذا توفي عبد الملك مضى إلى غَزْنة بأفغانستان، وأعلن نفسه أمير عليها، وعاجلته المنية، فخلفه ابنه إسحق، غير أنه لم يلبث أن توفي فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكين (٣٦٦-٣٨٧هـ). وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية، وقد بدأ أعماله بالإستيلاء على مدينة بُسْت في أفغانستان بمنطقة سشجستْان القديمة، وغنم فيما غنم منها الكاتب الفذَّ أبا الفتح البستي، وكان يكتب لأميرها المغلوب،، فأصبح كاتباً للدولة الجديدة. وأخذ سُبُكْتِكين يغزو الهند. وسقط كثير من قلاعها في يده. وجرَّد حملتين كبيرتين لحرب ملك البنْجاب المسمى جَيْال، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة، وأن يتخلَّى له عن إقليم كابُل في شرقي أفغانستان وكان يُشْرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندي الخصيب. واستغاث به نوح بن منصور في سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه، فنكَّل بهم، مما جعله يلقِّبه بناصر الدولة، ويولي ابنه محموداً على خراسان ويلقبه بسيف الدولة.

وتوفي سُبُكْتِكِين، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه، وكان ضعيفاً، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف، وكان محمود لا يزال والياً للسامنيين على خراسان، وأبي إسماعيل ذلك إباء شديداً، فسار محمود على رأس جيش إلى غَزْنه وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله. ومحمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١هـ). أكبر أمراء

---

(١)انظر في الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيروني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي وكتاب تاريخ اليميني للعتبي مع شرح النيني (طبعة القاهرة) في مواضع متفرقة وكذلك تاريخ الأدب في إريان من الفردوسي إلى السعدي ليراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي في أماكن متعددة وإيران ماضيها وحاضرها ص٥٤، وتاريخ الشعوب الإسالمية لبروكلمان ص٢٦٦.

obeikandi.com

هـذه الدولـة وأبعـدهم صـيتاً لمـدِّه أطْنابَهـا شرقـاً وغربـاً وشـمالاً، ولنهـضته بـالعلوم والآداب في عـصره نهـضة واسـعة. وكـان مثـل أبيـه وأسرتـه والأتـراك جميعـاً سُـنِّيًّا، ولعـل ذلـك مـا جعلـه يضطهد الـشيعة، وخاصـة الغـلاة مـنهم، واضـطهد أيـضاً المعتزلـة لأنـه كـان عـلى مـذهب أهـل الـسنة [1]. وكـان الأمـير منـصور بـن نـوح الثـاني الـساماني قـد انتهـز فرصـة مبارحتـه لخرسـان لحـرب أخيـه، وفـوليَّ عليهـا أحـد أتباعـه، وتطـورت الأمـور، كـما مـر بنـا في حـديثنا عـن الـسامانيين، بـسقوطهم واسـتيلاء محمـود عـلى ديـارهم، واعـترف محمـود اعترافـاً كـاملاً بالسلطة الروحية للخليفـة العبـاسي، ممـا جعلـه يخلـع عليـه لقـب: "يمـين الدولـة وأمـين الملـة". ويـذهب بـراون إلى أنـه لقـب نفـسه بلقـب "ظـل الله في أرضـه" وكـان يتلقـب بلقـب الـسلطان وهـو أول مـن تلقـب بهـذا اللقـب في الإسـلام. واتـسع سـلطانه حتـى شـمل إمـارة خُـوارزم الـصغيرة والكَـرج (جورجيـا) ومـا وراء النهـر وإيـران الوسـطى والـشرقية غـير مبـق للبـويهيين سوى كضرْمان وفارس.

ويـشتهر محمـود بكثـرة حروبـه وفتوحـه في الهنـد وتمكينـه للـدين الحنيـف في ديارهـا. وهـو يُعَدّ فاتحها الحقيقي، أما فـتح محمـد بـن القاسـم الثقفـي لهـا في عهـد الوليـد بـن عبـد الملـك فيُعَـدّ غـزواً أكثـر منـه فتحـاً حقيقيـاً، ومـما فتحـه في الهنـد المُلْتـان وكَـشْمير والبنْجـاب. وكـان يبتغـي بفتوحـه هنـاك نـشر الإسـالم وإعـلاء كلمـة الله لا طلـب المغـانم، كـما يـزعم بعـض المستـشرقين. واستغل أموال هـذه الفتـوح الطائلـة في عـمارة غزنـة ومـدن سـلطنته وبنـاء المـساجد الفخمـة وفي إحـداث نهـضة كبـيرة علميـة وأدبيـة، وفيـه يقـول الفـردوسي مـصوراً اسـتئثاره بقلـوب شـعبه وعظمة شأنه وملكه: "عند مـا يُفْطـم الـصبي ويتوقـف جريـان لبـين أمـه عـلى شـفتيه يكـون أول ما ينطق به ويجـرى عـلى الـشفتين لفـظ محمـود. وإنـه كالفيـل يجـسده ومثـل جبريـل يروحـه، أمـا كفه همزن هاطل، وأما قلبه فنهـر النيـل بخيراتـه. إنـه كالفيـل يجـسده ومثـل جبريـل يروحـه، أمـا كفه فمـزن هاطـل، وأمـا قلبـه فنهـر النيـل بخيراتـه. إنـه الـسلطان والملـك الكبـير الـشان، الـذي جعل الشاة تضنْهَل مع الذئب من حوض واحد في أمان".

---

(١) في المنتظم ٨/ ٤٠ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض.

وعهد محمود من بعده لابنه محمد. وكان ابنه الأبر مسعود غائباً بأصفان، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه، واشتبك مع أخيه في حروب كُتب له فيها النصر، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١-٤٣٢هـ). وفتح- كما مر بنا- جُرْجان وَطَبرستان، وقضى على الدولة الزيارية. وكانت أمواج السلاجقة بدأت في مَدِّها، ولم يستطع وَقْفها، فقد هُزم أمامها في عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمداً مكانه ثانية، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعوداً مكانه، وقتلوه بدوره، وولوا مكانه ابنه مودوداً. ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه في إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم "طُغْرلْبَك" وأخذ نجم هذه الدولة في الأفول، فانسحب سلاطينها من إيران مكتفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهندس، ومن أهمهم إبراهيم المتوفي سنة ٤٩٣ وكان حازماً عادلاً بعيد الهمة، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣-٥٠٨هـ). وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ وبهرامشاه (٥١٢-٥٤٧هـ). واضطره السلطان السلجوقي سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول في طاعته، ودفع إتاوة له صاغراً. وفي سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغوري قطب الدين محمد، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية، ومازالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم في سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائياً إلى عاصمتهم في الهند " لاهور " وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار ٥٨٢ للهجرة.

obeikandl.com

٢

دول متعاقبة

انتهى حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتقابلة في إيران التي كانت تتوزعها فيما بينها والتي كثيراً ما تحاربت وعاشت في خصام، وقد أخذت تحل محلها دول متعاقبة، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنتشر على بلدانها لواءً واحداً، وكان لكل دولة من هذه الدولة عصرها التاريخي، وجدير بنا أن نلم بها في إيجاز.

obeikandl.com

دولة السلاجقة[١]

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز، ويسميهم مؤرخو العرب الغز تخفيفاً، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجري، وهم ينسبون إلى رئيسهم سلجون وقد نزل بهم قريباً من بحر الخزر (بحر قزوين) في الهضاب المتصلة بنهري سيحون وجيحون متخذاً مدينة " جند " حاضرة له. وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى في خراسان. وكانوا يعتنقون المذهب السني، وكانوا بدواً فاعتمدوا على الوزراء في حكمهم، وأخذ شأنهم يعظم، مما جعل محمود الغزنوي يتنبه لهم، خوفاً من استيلائهم على بعض دياره في خراسان. وكان سلجوق قد توفي وخلفه ابنه إسرائيل، فكاتبه محمود وزين له أن يقدم عليه، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزج به في غياهب السجون، وظل سجيناً بإحدى قلاع الهند حتى توفي سنة ٤٢٢. وكان محمود قد توفي قبله، وصمم السلاجقة بقيادة طغرلبك على الانتقام، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوي في سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان في سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها، ولكنه هُزم هزائم متوالية في السنتين التاليتين، وأعلن طغرلبك نفسه ملكاً على البلاد، كما مر في قسم العراق. ومضى يستولي على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل. واعترف الخليفة " القائم بأمر الله" بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طغرلبك في الخطبة وأن يضرب اسمه على النقود. وقضى طغرلبك على البويهيين نهائياً- كما مر بنا في قسم العراق- ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ في موكب رسمي، وأجلسه الخليفة معه على العرش- كما مر بنا- وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينهما وزير طغرلبك محمد بن منصور الكندري. واتخذ طغرلبك مدينة الري حاضرة له، وولى علي البلدان إخوته وأبناءهم، ودانت له العراق كما دانت له إيران، وكان وزيره الكندري هو الذي

(١) انظر في السلاجقة المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق.

يصرف الأمور في دولته الواسعة وكان أديباً شاعراً، وكان يظهر التسنن غير أنه كان في حقيقته معتزلياً.

وتوفي طغرلبك سنة ٤٥٥ وخلفه- كما مر بنا في قسم العراق- ابن أخيه "ألب أرسلان" وكان له أخ يسمى سليمان، حاول الوزير الكندري أن ينصبه على العرش من دونه، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندري، وأرسل به إلى مرو، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله. وكان ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ) بطلاً مغوار قضى على كل من ثاروا عليه، سواء في هراة أو فيما وراء النهر أو في فارس وكرمان. وخضد شوكة الفاطميين مستولياً منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة. وأعد الروم له جيشاً كثيفاً قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطي " ديوجينس رومانوس" فأسرع إليهم في خمسة عشر ألفاً من صفوة جنوده، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلاط في أرمينية، وعصفت جنوده- كما مر بنا في قسم العراق- بهذا الجيش الضخم منزلة به هزيمة ساحقة، استسلم على إثرها الإمبراطور خاسئاً ذليلاً، ونزل على الشروط التي طلبها ألب أرسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعقد معاهدة لمدة خمسين عاماً يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألب أرسلان وأن يحرر جميع أسرى المسلمين. وبينما كان يحارب الترك عند نهر جيحون منزلاً بهم هزائم متوالية وافاه القدر. وكان يدبر له هذه السلطنة المترامية الأطراف وزيره نظام الملك، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة، وكان عدواً للرافضة والإسماعيلية سني العقيدة، واشتهر- كما مر بنا في قسم العراق- بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التي أحدثت بها نهضة علمية واسعة، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها في أصفهان ومرو ونيسابور وبلخ وهراة وطبرستان، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيراً من الضرائب التي كانت ترهق الشعب، وكان أشعرياً شافعياً، فازدهر المذهبان الشافعي والأشعري لعهده.

وخلف ألب أرسلان- كما مر في قسم العراق- ابنه ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) وكان في الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة، وكان ملكشاه يعجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه، وخرج عليه بعض أقربائه، ولكنه انتصر عليهم جميعاً.

وأمر في سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذي وضع فيه عمر الخيام وجماعة من العلماء التقويم الجلالي ويرجع تاريخه إلى عيد النيروز في سنة ٤٧٢. وكانت جيوشه ماتنى غادية رائحة، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفي مقدمتها سمرقند، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو في مدينة " كاشغر " النائية الجزية المفروضة على بلاده. ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبجيشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهر جيجون أخذون أجرتهم صكوكاً تدفع لهم في أنطاكية بديار الشام حتى يروا مدى اتساع السلطنة. ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية، وخاض به البحر شاكراً ربه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذي امتد من بلاد التتار والصين إلى ديار الشام على البحر المتوسط، وعني بحفر الآبار في طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم. ودس خصوم نظام الملك له عنده، فأعفاه من الوزارة، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه في الظلام، فطعنته طعنة نجلاء كانت سبباً في وفاته سنة ٤٨٥ ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعده بشهر واحد. وبذلك ينتهي- كما مر بنا في قسم العراق- عهد السلاجقة العظام.

وقام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بَرْكياروق أكبر أولاده (٤٨٥-٤٩٨هـ) ولقب بركن الدولة، وخالفه عمه تُتُش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذربيجان، وله معهما وقائع كتب له فيها النصر، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية- كما أسلفنا في قسم العراق- وقتل منهم في بعض السنوات مئات، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨-٥١١هـ) ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولي على حصونهم، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١-٥٢٥هـ) وكان شديد الحمق، فحارب عمه سِنْجَر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق. وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣-٥٥١هـ) واستقل عنه في سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أتسز. وحاربه الترك في سنة ٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وسرخس، وحاربه الغز في سنة ٥٤٨ وأسروه، وظل في أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قضى نحبه. واشتهر في هذه الدولة أربعة من سلاجقة كَرْمان هم تُورانشاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيرانشاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلانشاه

المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية في سرعة شديدة، حتى فقد الأمراء سلطانهم، وحتى استبد بهم في كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة.

الدولة الخوارزمية[١]

مؤسس هذه الدولة أحد مماليك السلطان ملكشاه، وهو أنوشتكين، حين جعله هذا السلطان والياً على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة، ومن أهم ملوكهم أَتْسِز (٥٢١-٥٥١هـ) وله وقائع مع سنجر السلجوقي، وتمكن أحياناً من الاستيلاء على مرو ونيسابور، ويقترن باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوطواط. وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة في إيران وفرض سيطرتهم عليها، وخاصة الأجزاء الشمالية، وكان آخرهم جلال الدين منكبرتي الذي صمد صموداً باهراً للغزو التتاري من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم.

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تنزل في قلب آسيا على حدود الصين في الإقليم المسمى منغوليا، وكانت تعيش على الرعي والصيد، واستطاع جِنكزخان أن يجمع شمل هذه القائل ويفتح بها بلاد الصين- كما مر في القسم الخاص بالعراق- ثم يغير بها على مملكة خوارزم ويقوض هذه المملكة، كما أغار بها على خراسان، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الري وهمذا، منزلة فظائع وحشية، وبحق يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار في بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلت بالعالم. وامتدت أيام جنكزخان

---

(١) انظر في الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردي وزبدة النصرة للبنداري (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني) وذيل الروضتين لأبي شامة في مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للنسوي. وراجع تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدري محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي لحافظ حمدي (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون.

في إيران من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهي السنة التي قضى نحبه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاماً. واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التي افتتحوها في الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوارزم، واتفقوا جميعاً على أن يتولى بعده ابنه أوكدى (أوكتاي) (٦٢٥-٦٣٩هـ). واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه- كما مر بنا في قسم العراق- أوروبا الشرقية: روسيا وبولندا، ونكلت جيوشه بالناس فيهما تنكيلاً شديداً على نحو ما نكلت جيوشه أبيه بالإيرانيين والصينيين، ويقال إن آذان ضحاياه في بولندا بلغت مائتين وسبعين ألفاً. وحين توفي خلفه ابنه كيوك وظل يدير هذه الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكو سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئاً باستنزال الإسماعيلية الملقبين بالحشاشين من معاقلهم في " ألموت " وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائياً. ولم يلبث أن أرسل إنذاراً إلى الخليفة " المستعصم بالله " أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد. وتقدم إليها في سنة ٦٥٦ فاكتسحها كما مر بنا في الحديث عن العراق، بعد حصار دام نحو شهر وقتل فيه هو وجنوده- كما يقول المؤرخون- نحو مليون من سكانها، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله- كما مر بنا في قسم العراق- وحرقوا قصوره، ونهبت البلدة وما كان بها من الكتب، وكان ذلك إيذاناً بدمار الحركة العلمية فيها وأفول نجمها.

الدولة المغولية[1] الإيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذي ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيها- تسمى دولة الإيلخانيين، وأرسل في سنة ٦٥٨ جيشاً كثيفاً للاستيلاء على سوريا ومصر- كما مر بنا في قسم العراق- واستولى على أكثر البلاد السورية، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطُز والظاهر بيبرس تصدى للمغول في عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة، وتعقبهم في سوريا حتى ردهم عنها إلى

(١) راجع في الدولة المغولية الإيلخانية المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق.

العـراق ومـا وراءه. وتـوفي هولاكـه في عـام ٦٦٤ للهجـرة، فخلفـه ابنـه أبغـا (٦٦٦-٦٨٠هـ) وقـد وجـه إلى سـوريا حمـلات بـاءت كلهـا بالإخفـاق الـذريع أمـام الجيـوش المـصرية، إذ كانـت دائـماً تنـزل بهـا ضربـات قاصـمة. وأخـذت مـن حينئـذ تنفـصم الـصلات التـي كانـت تـربط الإيلخـانيين في إيـران بأبـاطرة المغـول في (قراقـورم). وبمـوت أبغـا ينتهـي العهـد الـوثني للمغول وحكامهم فـإن خلفـه بوكـدار أخـاه اعتنـق الـدين الحنيـف، ولم يمـض في الحكـم سـوى عـام واحـد، إذ قتلتـه يـد آثمـة. وولى بعـده أخـوه أرغـون (٦٨١-٦٩٢) وفي عهـده حظـى المـسيحيون النـسطوريون بعطـف واسـع، وخلفـه أخـوه كَيْخَتُـو لمـدة سـنتين، ثـم بَيْـدو وقتـل سريعـاً. وولى بعـده- كـما مـر في قـسم العـراق- غـازان (٦٩٣-٧٠٣) الـذي أتـاح لدولـة الإيلخـانيين في إيـران والعـراق عهـداً ذهبيـاً عظـيماً، إذ اعتنـق الإسـلام وعمـل عـلى نـشره بـين المغول نـشراً واسـعاً، وعنـي بـأن تـصبح تبريـز عاصـمته مـن أجمـل المـدن الإسـلامية، وقـد بنـى فيهـا رباطـاً وبيمارسـتانا ومـدارس دينيـة ومرصـداً كبـيراً ومكتبـة فخمـة، وأقـام لأصـحاب العلـوم والفنـون ضـاحية مؤلفـة مـن ثلاثـين ألـف بيـت لعلـماء الـدين والفقهـاء والمحـدثين والقـراءة والأسـاتذة والطـلاب. وخلفـه أخـوه خُدابَنْـدا سـنة ٧٠٣ واهـتم مثلـه بنهـضة العلـوم والفنـون، واتخـذ عاصـمة لـه مدينـة بناهـا بـالقرب مـن قـزوين سـماها الـسلطانية، واحتفـل في بنائهـا والاهـتمام بهـا احتفـالاً واسـعاً. وتـوفي سـنة ٧١٦ وتـولى بعـده ابنـه بوسـعيد حتـى سـنة ٧٣٦ للهجـرة، وكـان في الثانيـة عـشرة مـن عمـره، فلـم يـستطع ضـبط الـبلاد، وأخـذ أبنـاء عمومتـه يتنـاحرون عـلى الولايـات والبلـدان، وكونـوا دويـلات صـغيرة، كـان أقواهـا الدولـة المظفريـة في كرمـان التـي اسـتطاعت أن تبـسط نفوذهـا عـلى فـارس والجـزء الجنـوبي مـن إيـران. وتظـل الـبلاد في فـوضى نحـو نـصف قـرن مـن الزمـان، إلى أن يغـزو تيمورلنـك إيـران والـبلاد العربية.

الدولة المغولية التيمورية[١] وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود- كما مر في قسم العراق- في كش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سمرقند سنة ٧٣٦ للهجرة، وهو من سلالة جنكزخان، كان أبوه والياً لكش ونواحيها، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر، فيقربوه منهم ويستوزروه في بعض الأحيان. ومازال يعمل على أن يجمع زمام السلطة في يده- كما مر في قسم العراق- حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ما وراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة، ومد سلطانه إلى خراسان في سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسجستان وجرجان في سنة ٧٨٤ ولم يلبث في سنة ٧٨٨- كما مر في قسم العراق- أن استولى على فارس وأذربيجان. وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس، فأغار على أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرُّها وتكريت وآمد وحاصر بغداد- كما مر في قسم العراق- سنة ٧٩٥، وسار في سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دلهي. ثم اتجه شرقاً في سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس وملطية في آسية الصغرى، ودخل ديار الشام، واستولى على حلب وحما وحمص وبعلبك ودمشق. ولم يفكر في متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر، وكأن ذكرى هزيمة أسلافه التتار في عين جالوت أمام المصريين كانت لا تزال ماثلة نصب عينيه، ويستولى على بغداد. ويتجه إلى آسية الصغرى في سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويهزمون هزيمة ساحقة. ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعد حملة كبيرة على الصين، وتسير الحملة في وجهتها، غير أن أجله يوافيه، فيتوفى عن واحد وسبعين عاماً بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة ستاً وثلاثين سنة. وقد ملأ سمرقند بالعمائر الفخمة، وضريحه فيها آية من آيات العمارة الرائعة. وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمراً من

---

(١) انظر في الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق. وانظر في الدول التالية تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٤٢٠ وفيليب حتى ٢/ ٨٢٥ وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدولير ص٧٦ وما بعدها.

فتوحات جنكزخان وخلفائه، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين.

وتوزع ابناه: شاه رخ وميران شاه إمبرطوريته- كما مر في قسم العراق- فكان شطرها الشرقي الشامل لإيران من نصيب شاه رخ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه. وتوفي سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفي سنة ٨٥١ للهجرة. وخلفه ابنه ألغ بك (٨٥١-٨٥٣هـ) وكان راعياً كبيراً للفن والأدب الفارسيين. وولى بعده بوسعيد (٨٥٤-٨٧٤هـ) وكان سلطانه وطيداً في دياره إلى حدود الهند. وأعقبه حسين بايقرا (٨٧٤-٩٠٢هـ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزاً مهماً من مراكز الثقافة الإسلامية. ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيباني قضت على التيموريين في الشرق، وفر آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام.

وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربي إيران، واتخذت تبريز عاصمة لها. ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربي إيران كما مر بنا في قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوي (٩٠٧-٩٣٠هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هي الدولة الصفوية. وفي قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً، وكانت تمتد شرقاً إلى هَرَاة وغرباً حتى شملت العراق جميعه. وجعل دولته دولة إيرانية قومية، متخذاً العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك في حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين. وظل حكم الدولة الصفوية في إيران نحو مائة وأربعين عاماً، وخلفهم عليها الأفغانيون وجاء في إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون، وخلفهم القاجاريون في أواخر القرن الثاني عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاماً وفي كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبي العربي في إيران خموداً تاماً.

٣

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيراني في هذا العصر من ثلاث طبقات: طبقة عليا، تتضمن الأمراء الحكام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين، وطبقة وسطى تتضمن موظفي الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراع والخدم والرقيق، ويدخل أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم.

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفاً واسعاً، وكان في أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد، وصبت الأموال التي تعد بالملايين في خزائنهم، وكانت مصادرها متعددة، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس، ضرائب الأرض، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامي، وكان لها في كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة، وكانت أعطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه، ويحمل ما يتبقى إلى ديوان الخرج أو بيت المال في حاضرة الدولة، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة. وما بقي منه يصبح رهن حياته المترفة في القصر دون رقيب. وبجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة. ولابد أن نلاحظ كثرة الحروب في العصر وأن إمارات بحالها كانت تكتسح أحياناً وتدخل في سلطان هذا الحاكم البويهي مثلاً أو الحاكم الغزنوي أو السامانى أو السلجوقي، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة. وظل ذلك طوال العصر بل تفاقهم في عهد التتار ومن تلاهم. وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه. وكثرت في تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يعزلون أو يموتون، وكذلك الكتاب والعمال، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة.

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أن الأموال في خزائن الأمراء أو على الأقل في خزائن بعضهم كانت تكال كيلاً، وأيضاً ما يوضح النصوص التي نقرؤها في كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً في أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفي بناء قصورهم، فمن ذلك ما يروى عن فخر الدولة البويهي صاحب همذان والجبل والدينور وجرجان من أنه خلف حين مات مليوني دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين، ما خلف من الجواهر واليواقيت واللآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين دينار، ومن الفضة من وزنه ثلاثة ملايين، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل [١]. أما أخوه مؤيد الدولة فيروي أنه أنفق في عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار[٢]. أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية في الري وأصفهان لا يعرف لها قيمة، ولذلك يبذرها ويتلفها حسب هواه. وعظم شأن أخيهما عضد الدولة، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبي إيران وحتى العراق وعُمان مما جعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام، وكان دخله- فيما يروى- ثلثمائة وخمسة وعشرين مليوناً من الدراهم، وقيل بل كان اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير ومائة ألف درهم[٣]. وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بذخه، وخير ما يصور ذلك قصره الذي بناه بشيراز، فقد رآه المقدسي بعد موته بفترة قليلة، وبهت حين رآه، وفي ذلك يقول: " بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلها، ما دخلها عامي إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها. شق فيها الأنهار ونصب عليها القباب، وأحاطها بالبساتين والأشجار، وحفر فيها الحياض، وجمع فيها المرافق والعدد. وسمعت رئيس الفراشين يقول: فيها ثلثمائة وستون حجرة، كان مجلسه كل يوم في واحدة

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٧ والمنتظم ٧/ ١٩٨.

(٢) المنتظم ٧/ ١٢٢.

(٣) المنتظم ٧/ ١١٦.

إلى الحول.. وطفت فيها ورأيت الأنهار تطرد في البيوت والأروقة. وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة، وبان بوناً بعيداً وضل ضلالاً مبيناً "[١].

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط، فالأمير لا يريد أن يجلس ببيته في حجرة مهيأة لجلوسه كل يوم، بل يريد أن تتغير، بحيث لا يعود إليها إلا في عام تال، وكأن الحجر في القصر أصبحت كأزيائه، فهو يبدلها كل يوم، وطبعاً لا يهمه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمه مصالحه، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام في ربوع إمارته الواسعة، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء، ولكن لا شك أنه كان يغرق نفسه في الترف والنعيم.

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون، فقد كان الأمير دائماً يعد الإمارة ضيعة له، ولعل أميراً لم يحز من الأموال ما حازه محمود الغزنوي من غنائمه في الهند، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة، وهو يمد حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربي من الهند، وفي أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى. ويكفي أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذي كان يحج إليه الهنود الوثنيون، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية. ويحصي العتبي في كتابه اليميني هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال[٢]. وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعه العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية في إمارته النائية، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال، غير ما كان يجبى لهم سنوياً من تلك الديار.

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون في خزائنهم الأموال الطائلة، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً، حتى لقد كانت تمتد في عهد ألب أرسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغانم شتى، من أهمها

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي (طبع ليدن) ص٤٤٩ وانظر في قصر بناه فخر الدولة بجرجان اليتيمة ٣/ ٢٧١.

(٢) اليميني للعتبي ٢/ ٩٩ وانظر في غنائمه من البويهيين المنتظم ٨/ ٤٠.

حروبه مع البيزنطيين في آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك في أسره إمبراطورهم "ديوجينس رومانوس" وافتدى نفسه بمليون دينار- كما مر بنا- ودفع له الجزية صاغراً. ويذكر ابن الأثير أنه زوج ابنته من الخليفة المتقي وهو لا يزال ولي عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها في دهشة وعجب كبير[١]. ويقال إن خراج خلفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار[٢]. ويروى أنه حين غلب سنجر السلجوقي صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت في أيديه وأيدي أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان في جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير، واستولى أيضاً على ألف وثلثمائة قطعة مصاغ مرصعة وسبعة عشر سرياً من الذهب والفضة[٣]. وكان السلطان محمود السلجوقي مبذراً متلفاً، وأتلف فيما أتلفه ما وراثه من أموال كانت محفوظة بخزائن الدولة، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدنانير[٤]. واحترقت له دار في سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته " ما لا حد له من الجواهر والحلي والفرش والثياب، وأقيم الغسالون يخلصون الذهب ما أمكن تخليصه، وهلك الجوهر جميعه إلا الياقوت الأحمر[٥] ".

وهذه أخبار متناثرة في كتاب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يغرقون إلى آذانهم في الترف والنعيم، غير حاسبين للشعب حساباً. ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا في هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة[٦]. وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جمعها وإنفاقها، وكان يقود الجيوش

---

(١) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس ـ طبع دار صادر ببيروت) ١٠/ ٧٠-٧١ وكان صداق الأميرات البويهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ٩/ ١٠٥، ١٠/ ٤٧١).

(٢) المنتظم ٩/ ٧.

(٣) ابن الأثير ١٠/ ٥٠٧.

(٤) زبدة النصرة للبنداري مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني (طبع ليدن) ص١٤١.

(٥) ابن الأثير ١٠/ ٥٩٤.

(٦) اليتيمة للثعالبي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ٤/ ٢٣٠.

بنفسه، على نحو ما كان وزيرا بني بويه: ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك، واتخذ عضد الدولة البويهي وزيرين أحدهما كان نصرانياً هو نصر بن هرون وكان له النظر في شئون فارس. وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يعد بالعشرات وأحياناً بالآلاف[١]، فكان إذا سار برز للناس في موكب باهر من الحراس. وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش في ترف بالغ. وهيأهم ذلك ليبنوا القصور الباذخة، على نحو ما يحدثنا الثعالبي في كتابه اليتيمة عن قصر بناه ابن العميد[٢]، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد في أصبهان تبارى شعراؤه في وصفه بالقصائد الطوال[٣]، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي رمضان من ألف نفس تفطر فيها، وكانت صلاته وصدقاته وقربانه في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة[٤]. وكان الوزراء يتأنقون في ملابسهم، ولم يقف تأنقهم عند أنفسهم، فقد كانوا يطلبونه في خدمهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم، ومن طريف ما يروقى من ذلك ما ذكره الثعالبي عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخز (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه في داره، وألمَّ به أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوماً، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون الخزوز الفاخرة الملونة، فأنشده على البديهة[٥].

كسوتّ المقيمين والزائرين ... كُسَى لم يُخَلْ مثلُها ممكنا

وحاشيةُ الدار يمشون في ... ضروبٍ من الخزِّ إلا أنا

---

(١) ابن الأثير ١٠/ ١٣١.

(٢) اليتيمة ٣/ ١٥٨.

(٣) اليتيمة ٣/ ٢٠٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له في جرجان اليتيمة ٤/ ٣٦.

(٤) اليتيمة ٣/ ١٩٣.

(٥) يتيمة ٣/ ١٩١.

وكان الصاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع بقوله، حتى أمر له من الخز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعامة ومنديل ومطرف (ثوب) ورداء وجورب. وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف، فكانوا يبنون القصور ذات الأواوين الضخمة، ويروى أن أبا جعفر والي سجستان تأنق في قصر بناه لنفسه كان مكتوباً في صدر إيوانه[1]:

من سرَّ أن يرى الفردوس عاجلةً ... فلينْظُرِ اليوم في بُنْيان إيواني

أو سرَّه أن يرى رِضْوان عن كثَبْ ... بملء عينيه فلينظرْ إلى الباني

وبالمثل كان كبار الموظفين في الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة وأناقة، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين. ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناقتهم، ويلاحظ ذلك على كتَّاب السامانيين العبدوني الشاعر فينشد[2]:

أكتَّابَ ديوانِ الرسائلِ ما لكم ... تجمَّلتمُ بل مُتُّمُ بالتجمُّلِ

وكان كبار القضاة يدخلون في هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم. وكان للقواد مكانة كبيرة، وكأنما كانوا يشركون الأمراء في إماراتهم فأوسعوا عليهم في الرواتب والأرزاق. ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين في أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح، فلهم القصور ولديهم الأموال والخلع التي يهبونها للشعراء والناس، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض قائلاً[3]:

أكُلُّ مَنْ كان له نعمةٌ ... أوسعُ من نعمة إخْوانهِ

---

(١) يتيمة ٤/ ٣٣٨.

(٢) يتيمة ٤/ ٧٧.

(٣) يتيمة ٤/ ٩١.

أم كلُّ من كان جَوْسَقٌ ... مشرّفٌ شِيد بأركانهِ [١]

أم كلُّ من كان له كسوةٌ ... يبذلها في بعض أحيانهِ

يُرَى بها مستكبراً تائِهاً ... على أدانيه وخِلاَّنهِ

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتي في مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التي كان يغدقها الأمراء على الحواشي من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة. وكان النظام الإقطاعي معروفاً في إيران قبل الإسلام، ومما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول. وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد، حتى إذا كنا في هذا العصر تفاقم أمره، حتى ليقول المقدسي في القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقتطعة [٢]، وظل ذلك بعد عصر بني بويه، بل لقد اتسع في عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين: قرية أو أكثر أو أقل، كل على قدر إقطاعه [٣]. وعُرف بجانب الإقطاع في هذا العصر نظام الضمان، وأعد بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القرى، بل أحياناً الولايات، شخص يفرض على نفسه ما لا يؤديه عنها، ويأخذ لنفسه أضعافه، وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة. وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معتصرة دماء الشعب، وكان حسب الشخص ضيعة واحدة ليكون ثرياً، وصور ذلك المعافى بن هزيم شاعر أبيورد قائلاً [٤]:

---

(١) الجوسق: القصر.

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ص٤٢١.

(٣) طبقات الشافعية للسبكي (طبعة محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي) ٤/ ٣١٧ وبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين في العصر السلجوقي أن نرى في همذان زيداً الحسني العلوي يدفع إلى السلطان محمد السلجوقي سبعمائة ألف دينار دون أن يبيع من أجلها ملكاً أو يستدين ديناراً (ابن الأثير ١٠/ ٤٧٤).

(٤) يتيمة ٤/ ١٣٢ والظئر: المرضعة.

كفّتْني ضَيْعَتي مَدْح العبادِ وظَعْناً في البلاد بغير زادِ

غدتْ سَكَنِي وخَادمتي وظِئْرِي وفيها أسرتي وبها تِلادي

صديقُ المرء ضَيْعَتهُ وكَم من صديقٍ في الصداقة مستزادِ

يخونك في المودَّة مَنْ تؤاخي ومالُك لا يخونك في الودادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات، مما أعد لنشوء طبقة أرستقراطية واسعة، كانت تنفق عن سعة، وكان كثير منها جواداً ممدحاً، ويلقانا ذلك بوضوح في كتب تراجم الشعراء مثل اليتيمة ودمية القصر والخريدة، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تمدح أمداحاً كثيرة، وحقاً قال بشار:

يسقط الطيرُ حيث يَنْتشر الحـ ـبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماءِ

وكان ذلك سبباً في أن نلتقي بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء في كل بلدة.

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة، في مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يقدرها الأمراء أو وزراؤهم. ويدخل في هذه الطبقة عمال الحسبة والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين، وكانو دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الخوزي [1]:

وَيْلٌ لمن عَدَّله القاضي واللهُ عنه ليس بالراضي

تَمْضي القضايا بشهاداتهِ وهْو إلى النار غَداً ماضي

وينتظم في هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموال ضخمة، وعدادهم لذلك في الطبقة السابقة. ومن العناصر المهمة في هذه الطبقة الشعراء الذين كان يغدق عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا، ومثلهم المغنون والمغنيات،

(١) يتيمة ٣/ ٤٢١.

ودائماً نلقاهم في كل بلاط وفي كل قصر، فقد كان الشعب من كبيره إلى صغيره مولعاً بالغناء.

وتأتي بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية، وهي التي كانت تعمل في الصناعات والتجارات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل في فلاحة الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسد به رمقه، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن. وكانت حياتها كلها عرقاً وعنتاً ومشقة لكي تملأ الطبقة العليا في الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب.

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود، وكان المجوس في أوائل هذا العصر كثيرين في إيران وخاصة في قلاعها البعيدة، ويروى أنه وقعت في شيراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين [١]، ولم تكن الحكومات تتدخل في شعائرهم ولا في شعائر النصارى واليهود، وكان لهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوماتهم، وكانوا يدفعون، نظير ما يتمتعون به من تسامع واسع، الجزية، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطني إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح، ولم تكن تؤديها النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس. وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم ودينارين لمتوسطي الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثنى عشر درهماً، وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى، وكان علي بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانياً [٢]، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانياً، وكان اليهود يعملون في أحقر المهن، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخرازون.

وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى في الملبس والمطعم، فكانوا يلبسون الدراريع وهي ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقبية والسراويل والحلل المطرزة. وكانوا يلبسون الخز صيفاً والفراء والصوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية

---

(١) ابن الأثير في سنة ٣٦٩.

(٢) ابن مسكويه ٥/ ٤٦٤.

والصوفية والحريرية. وكانت النسائر حرائر وجواري أكثر تفنناً في أناقتهن، فكن يلبسن الإستبرق والسندس والوشي، وكن يتحلين بالجواهر النفيس من كل صنف، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية.

ومضوا يتفنون في المطاعم، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة في بيوت الأمراء والوزراء، مما جعل كثيرين يعنون بالتأليف في كتب الأطعمة، مثل ابن مسكويه، الذي أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن [١]، ومثل ابن خلاد القاضي الذي أهدى إلى ابن العميد كتاباً في الأطعمة، فأجابه بقصيدة طويلة عدد فيها كثيراً من أنواعها التي ذكرها في كتابه [٢]. وعرفوا حينئذ توالي ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع. وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعد الفاكهة والحلوى من كل صنف.

وكانوا يمكثون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء، وكانوا يستطيبون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة في أثناء سمرهم ومنادمتهم على الشراب. ومن قديم تقترن الخمر بالغناء في إيران، حتى ليروى صاحب الشهنامة في تربية قورش الملك الإيراني القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه ساقياً، وكأنما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور [٣]، وطبيعي أن يظلذلك ديدنهم حتى هذا العصر، بحيث يشترك في المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة [٤] والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد [٥] والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور الهروي [٦]. وكانوا ينثرون الورود في قاعات الشراب [٧]. وكان يحيى بعضهم بعضاً

---

(١) أخبار الحكماء للقفطي ص٣٣٢.

(٢) يتيمة ٣/ ١٦٨.

(٣) انظر الشاهنامة نشرد. عزام ١/ ٣١٣ وتراث فارس (الترجمة العربية) ص٢٦٣.

(٤) ابن مسكويه ٦/ ٣٨٦ وانظر في عضد الدولة ومجالس شرابه اليتيمة ١/ ٢١٨ وابن الأثير (طبعة دار صادر ـ بيروت) ٩/ ٢٠.

(٥) ابن الأثير ٦/ ٦٧٦.

(٦) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة) ٢/ ١٦٧.

(٧) يتيمة ٣/ ٢٤٤.

بالورود والرياحين والفواكه في أثناء الشرب، يقول عبدان الأصبهاني [١]:

سُقِيتُ وفي كفِّ الحبيبة وردةٌ ... وأُتْرُجَّةٌ تُغْرِي النفوسَ بِصَوْنها

مُداماً فلما قابلتْني بوجهها ... شربتُ فحيَّتني بلوني ولونها

وبلغ من تفشي الغناء والرقص في فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيه على المغنيات والراقصات [٢]، وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصور مختلفة، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كي يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هي الاحتفالات بالأعياد [٣] المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتونة وعيد الشعانين، وفي العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ما كان فيه من لهو وموسيقى وغناء [٤]:

سَقْياً لدهرٍ مضى إذ نحن في شُغُلٍ ... بالعَزْفِ والقَصْفِ عن شُغْل السَّلاطينِ

إذ يومُنا يومُ عيدٍ طول مُدَّتنا ... ولَيْلُنا كلُّه لَيْلُ الشَّعانينِ

وكانوا يطلقون لأنفسهم العنان في الأعياد المجوسي من مثل عيد السذق، وهو عيد لاشتعال النيران، وكان يقع في شهر يناير من كل عام، ويصور البيهقي في تاريخه الاحتفال به في سنة ٤٢٦، فيقول: " اقترب عيد السذق، فأخذوا يجمعون له الطرفاء وعيدان الحطب، حتى تراكمت وأصبحت كالقلعة، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجبل ارتفاعاً، وأتوا بكثير من المعدات والطيور وما يلزم هذا العيد من الحاجيات، وحل العيد وجلس السلطان في مخيم له، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران، وكانت ترى على بعد عشرة فراسخ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش، فكانت تجري وقد علقت بها النيران " [٥]. وكان أهم من هذا العيد عيد النيروز في أول الربيع، وكان موسماً

---

(١) يتيمة ٣/ ٣٠٠.

(٢) المقدسي ص٤٤١ وتحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص٢٧٩.

(٣) انظر في احتفالهم بالأعياد كتاب الآثار الباقية للبيروني ص٢١٥.

(٤) اليتيمة ٤/ ١٤٩.

(٥) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية ـ نشر مكتبة الأنجلو) ص٤٧٠-٤٧١.

obeikandl.com

كبيراً للمجون والشراب. ومثله عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر كل عام. ويقول البيهقي: "كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة.. ويجتمع أعيان الدولة والأمراء ومجلس الندماء، ويبادرون إلى اللهو، وتدور أقداح الشراب، وتعزف آلات الطرب، ويأخذ المغنون في الغناء " [١].

وكانوا يخرجون مواكب وفرادى للصيد والطرد، وكان فخر الدولة البويهي مولعاً بالصيد [٢]. ومثله ملكشاه السلجوقي، ويقال إن صيده بلغ في بعض الأيام سبعين غزالاً [٣]. وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالنرد والشطرنج، وكانوا يشغفون بلعب الصولجان والكرة وبسماع الغناء. ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهي في خراسان وإيران عامة أن نجد كيكاوس في القرن الخامس الهجري يفرد في كتابه: " قابوسنامه[٤]" فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهي، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية.

(١) البيهقي في سنة ٤٢٧ ص٥٣٩.

(٢) ابن مسكويه ٦/ ٣٨٦.

(٣) براون (ترجمة الشواربي) ص٢٢٨.

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية.

obeikandl.com

٤

التشيع[١]

يقوم التشيع- كما مر بنا في قسم العراق- على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أو بعبارة أخرى للخلافة، فهي ليست مفوضة للأمة، بل هي خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت، من الأئمة، ويسمى كل منهم إماماً تفرقة بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية. وتتفق الشيعة على أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى لعلي بن أبي طالب بالخلافة بالقرب من غديرخم بين مكة والمدينة، وهم فرق كثيرة، أهمها ثلاثة: الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية.

والزيدية- كما مر بنا في قسم العراق- أقربهم إلى أهل السنة، وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وكانوا يقرون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمون مع وجود العلوي الأفضل، وبذلك لم يطعنوا في الصحابين الجليلين: أبي بكر وعمر ولا في ولايتهما أمور الأمة. وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المختفى مثل الإمامية الاثنى عشرية، ولا بنظرية الإمام المستور مثل الإسماعيلية، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة في الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن. وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة.

ومر بنا في قسم العراق حديث مفصل عن فرقة الإمامية الاثنى عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين، وترى أنها تتابعت بعد علي في الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه علي زين العابدين، فابنه محمد الباقر، فابنه جعفر الصادق، وتفترق بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مر بنا في العراق، إذ ترى أن الإمامة

---

(١) بجانب مصادر التشيع المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق انظر مقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبغدادي والتبصير في الدين للإسفراييني وفرق الشيعة للنوبختي ومقدمة ابن خلدون وفضائح الباطنية (الإسماعيلية) للغزالي واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي وبراون (ترجمة الشواربي) في مواضع متفرقة.

openkandil.com

بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، وتوالت بعده في أبنائه وأحفاده: علي الرضا، فمحمد الجواد، فعلي الهادي، فالحسن العسكري، فمحمد المهدي الذي اختفى، وهو الإمام الثاني عشر ولذلك يسمون الاثنى عشرية، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملأ الأرض عدلاً وعلماً، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان.

وعنصر أساسي ثان في عقيدة الإمامية عرضنا له في قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم، وهي عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية في اعتقادهم إذ تجعله نقياً من الذنوب بريئاً من العيوب، لا يعتريه خطأ. وعنصر أساسي ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب، كما يؤمن الزيدية، بل العلم الباطني الإلهي الذي يتوارثه الأئمة عن النبي والذي ينتقل فيهم من إمام إلى إمام، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعاني الحقيقية للقرآن الكريم، وهو ما فسح عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع في آيات الذكر الحكيم.

والإسماعيلية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان قد توفي قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير، بل يرثه عنه ابنه الأكبر، حتى لو توفي في حياة أبيه كما توفي إسماعيل، وتبعه خلفاؤه في سلسلة متصلة، وهم مستترون مختفون، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها، فظهر الإمام في شخص عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في شمالي إفريقيا.

وتسمى هذه الفرق باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثنى عشرية، لأنها تجعل أئمتها يتوالون في حلقات أو أدوار سبعية، والسابع أعلامهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها، حتى رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كبرت كلمة تخرج من أفواههم. وعندهم أن الإمام هو التجلي الأعظم للعقل الكلي، وفي ذلك ما يؤكد نفوذ الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة في الفيض، وهي النظرية التي بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية في موسوعتهم المشهورة. ومن تتمة نظريتهم أن العقل الكلي الذي يتجلى في أئمتهم تجلى

منذ آدم في الأنبياء، وهو الذي يسير الكون ويدبره، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمي الإسماعيلي يعتقد أن التجسد الإلهي تمثل فيه وأنه خليق بعبادته. ومات مقتولاً، فادعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً، وأنه سيرجع. وكأن نظرية الرجعة عند الإمامية الاثنى عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية في شخص الحاكم. وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته، وأنه الإمام الغائب المنتظر. وواضح أن الإسماعيلية غلت في تشيعها غلواً بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكريه يسمونهم دهرية زنادقة، وقد حمل عليهم الغزالي حملات عنيفة في كتابه " فضائح الباطنية" الذي سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادة الإسلام، ولابد أن نشير إلى أن تابعي هذه الفرقة كانوا يصعدون في سبع مراتب: مرتبة للعامة، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة، وصاحبها خليق عندهم بأن يكون من الدعاة. ومن حق الإسماعيلي والإمامي جميعاً أن يخفيا عقيدتهم في البلد الذي يسود فيه خصومهما وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية، وقد طبع دعوتهما في حق وأماكن كثيرة بطابع السرية.

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة، فقد كان زيد بن علي مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال. وتعانق منذ العصر العباسي الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال في أثناء الجدال الذي كان دائاً بين أعلامها حتى لنجد النظام المعتزلي المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام، وكان يعاصره ثمامة بن أشرس الذي لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون في حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وجميع الصحابة. ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة في عقيدتهم يجدهم يفردون فصولاً طوالاً للحديث عن التوحيد والعدالة، على غرار ما يصنع المعتزلة. وفي رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هي التي جعلت أهل السنة في العصر ينفرون منه، ويعتنقون المذهب الأشعري.

وكانت إيران في هذا العصر تعد أكبر مركز للتشيع، وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الثاني حركة زيدية قوية غلبت على طبرستان وبلاد الديلم، وعلى الرغم من إجهاز الدولة السامانية عليها كما مر بنا في أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني المتوفى سنة ٤١١ للهجرة. وكان تقلد البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة في إيران إيذاناً بأن يأخذ المذهب الإمامي طريقة إلى الانتشار، واشتهرت مدينة " قُم " باعتناقه وقد ظل منتشراً بها واعتنقه كثيرون في الحقب التالية، وقيض له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة في مدينة " قم " وخلفه في مشيخته، وألف كتباً كثيرة في المذهب، محتجاً له، داعياً إليه، ومن كتبه المطبوعة في طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية.

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية في إيران منذ أوائل هذا العصر، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا في عقيدتهم نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان (٣٠١-٣٣٢هـ) مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح، ويقال أيضاً إن أبا علي بن سيمجور أحد رجالات الدولة في خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيلياً، مما جعل السلطان محموداً الغزنوي يفتك به. ويبدو أن الإسماعيليين جدّوا حينئذ في نشر دعوتهم بإيران، حتى لنجد محموداً الغزنوي حين يستولي على الري من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسي ببغداد خطاباً طويً، يقول فيه[1]:

" قد أزال الله عن هذه البقعة أيدي الظلمة، وطهرها من دعوة الباطنية الكفرة، والمبتدعة الفجرة. وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والضلال وقمع من نبغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار. وطلعت الرايات بسواد الري.. وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم، فرجعنا إلى الفقهاء في تعرف أحوالهم، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون في أهل الفساد، فيجب عليهم القتل والقطع والنفي على مراتب

(١) المنتظم ٨/ ٣٨.

جناياتهم. واعتقادهم في مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجه تسود بها الوجوه يوم القيامة: التشيع والرفض والباطن. وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام، ولا يميزون بين الحلال والحرام، بل يجاهرون بالقذف وشتم الصحابة، ويعتقدون ذلك ديانة... ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء، ويعتقدون مذهب الإباحة في الأموال والفروج والدماء".

والخطاب طويل، وهو يصدر مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية في إيران من فساد، حتى كان أصحابها لا يؤدون شعائر الإسلام، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة. وليس ذلك فحسب، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التي أحل صاحبها "مزدك" النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات[1]. ونمضي بعد عهد محمود الغزنوي، فنجد الدعوة الإسماعيلية تنشط في إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، إذ تعهدها هناك دعاة مختلفون، كان يؤيدهم تأييداً قوياً الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً، واستطاع أن يبسط سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية في منتصف القرن الخامس. وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة، ولكن دعاتها ظلوا منبثين في أنحاء إيران، مثل ناصر خسرو الأديب الرحالة، الذي لقبه أتباعه بلقب "حجة خراسان" وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات، وعاد إلى وطنه خراسان، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات "سمنجان". وكان أخطر منه في الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذي نهض بالدعوى في أذربيجان وأصفهان، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى " شاه دز" جعله وكراً لأتباعه ودعوته. وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصباح، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر، وتلقن الدعوة عن بعض دعاتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم في مدينة الري، ويقال إنه لقى بها في رمضان سنة

(١) انظر كتابنا العصر العباسي الأول ص٨٠.

٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدمين. ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوائزه. ويقال إنه سأله من الخليفة بعده؟ فأجابه ابني نزار الأكبر، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار، وولى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعلى، مما كان سبباً في انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين: شعبة غربية تدعو إلى المستعلى وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار.

واتسعت دعوة الحسن بن الصباح، حتى ضمت بين جناحيها كرمان وطبرستان والدامغان وقزوين، واستطاع الاستيلاء على حصن في غاية المناعة، هو قلعة " ألموت " سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العُقاب، كأنها، لعلوها الشاهق، وكر له. وجعله استيلاؤه على هذه القلع يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثيلها في إيران، فاستولوا على "خالنجان" باقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من " شاه دز" واستولوا على "طَبَس" و"قاين" و"تون" و"رَوْزن" و"خور" و"خوسَف" في قهستان وعلى "شمكوه" بجوار أبهر، وعلى "أستوناوند" في مازندران، وعلى "أردهن" و"كردكوه" وقلعة الناظر في خوزستان، وعلى " قلعة الطنبور" بجوار أرجان، وعلى قلعة "خلادخان" في فارس. وكان تملك الحسن بن الصباح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً في أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسياً، حتى إذا توفي المستنصر ظلوا يدينون لنزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين. وفي الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم- على الأقل- كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش. ومضوا يدعون سراً لعقيدتهم، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف في سبيل دعوتها، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقي المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلتهم "ألموت" على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويثيرونه من رعب على مر السنين، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامي الوزير السلجوقي وللفقيه عبد الواحد الروياني في طبرستان والقاضي سعد الهروي في همذان. وكان

السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصبهان سنة ٤٩٩ وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ رداً على قتلهم لوزيره معين الملك. وكان الحسن بن الصباح حياً في أيام هذا السلطان، غير أنه لم يكن يبارح قلعة "ألموت" وبها توفي سنة ٥١٨ للهجرة. وخلفه في رياسة الطائفة كيابزرك حميد ثم ابنه محمد، وتبعهما دورُظهور الأئمة من أحفاد نزار، إذ ظلت في أيديهم مقاليد السلطان والدعوة، وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين، حتى استطاع المغول في منتصف القرن السابع الهجري دك حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣-٦٥٥هـ) وبقتله وتحطيم حصون أتباعه ينتهي عهد الإسماعيلية بإيران، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها، ويعود هذا الفرع الإسماعيلي الشرقي إلى الظهور في الهند، ويتخذ أصحابه " آغاخان " رئيساً روحياً لهم، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذي كان آخر أمراء قلعة "ألموت".

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجاً إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثنى عشرية، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السني، وينعكس ذلك على العلماء والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم، مثل الشيخ سعدي الصوفي المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربي قليل. ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧-٩٣٠هـ) حتى يصبح المذهب الإمامي الاثنى عشري عاماً في إيران إذ أعلنه مذهباً رسمياً للدولة. وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم.

ويحتفل الشيعة وفي مقدمتهم الإمامية من قديم- كما مر في العراق- بعيدين: عيد الغدير، يريدون غديرخم، وموعده الثامن عشر من ذي الحجة، وهو الغدير الذي يروون أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى عنده لعلي بالخلافة من بعده قائلاً له: أنت مني بمنزلة هرون من موسى، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة، وكان أول احتفال لهم به في عهد البويهيين، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين. أما العيد الثاني فكان مأتماً كبيراً، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) من كل عام حداداً

على قتل الحسين وآله فيه بكربلاء، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة. وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير، حتى ليرجعه البيروني إلى زمن بني أمية، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السروح والفرح، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأواني والثياب[1]. وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير، يتراءى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاة ظامئة وعيون ساهمة باكية، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حاراً مصورين بؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد في أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف البؤس والعذاب والشقاء، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء. وصبغ ذلك الحزن العميق في تلك الذكرى الرهيبة شعر الشيعة بسواد لا آخر له، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنات.

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم في العراق سنة متبعة، وأصبح للأماكن والأضرحة التي دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم، مما جعل البويهيين يهتمون بها، ولعل في هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانوا إمامية دلالة قاطعة، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر علي بن أبي طالب بالنجف، ونقل إليه جثمانه بعد وفاته فدفن به، كما دفن به أيضاً ابناه شرف الدولة وبهاء الدولة[2]. واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين، وبنى حوله حضرة جليلة[3]. ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأتماً كبيراً يقام في كل عام، يقيمه إمامية إيران والعراق.

---

(١) الآثار الباقية للبيروني (طبعة أوروبا) ص٣٢٩.

(٢) انظر المنتظم ٧/ ١٢٠ وابن الأثير (طبعة دار صادر بيروت) ٩/ ١٨، ٦١، ٢٤١.

(٣) المنتظم ٧/ ١٤٩.

٥

الزهد والتصوف[١]

ظلت نزعة الزهد التي تحدثنا عنها في كتابي العصر العباسي الأول والثاني متغلغلة في نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدثيهم، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناس إلى الزهد في متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة. وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك، واقرأ في كتاب للمحدثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبي أو في كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسبكي فستجد صوراً قوية للزهد، وسترى من ظل صائماً طول حياته، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً، ومن يدقق في أحكام الشريعة مبالغاً تحرجاً وخوفاً من الله مثل أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السبكي في ترجمته أنه بلغ من ورعه وتحرجه أنه لم يكن يستند في داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدق فيه وتداً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبناً وهو في المهد، فقلبه، ليرده، حتى لم يدع في باطنه شيئاً، قائلاً: هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف في شيء من لبنها. ولا ريب في أن كثرة الوعاظ هي التي أعدت- من بعض الوجوه- لسريان هذه الروح المتحرجة الورعة، ويتوقف السبكي مراراً في طبقاته ليصور لنا وعظ الوعاظ في نيسابور وغيرها ومدى تأثيره في نفوس السامعين كقوله عن أحدهم:

---

(١) راجع في الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكي في مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمي وحلية الأولياء لأبي نعيم والفصل في الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيري وإحياء علوم الدين للغزالي وصفة الصفوة لابن الجوزي وقوت القلوب للمكي ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتنبيه الغافلين للسمرقندي وطبقات الشعراني، وانظر جولد تسيهر في كتابه "العقيدة والشريعة في الإسلام" ونيكلسون في كتابه " في التصوف الإسلامي وتاريخه" ترجمة أبو العلا عفيفي والملامتية والصوفية وأهل الفتوة لعفيفي وآدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

" صار مجلسه روضة الحقائق والدقائق، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب، ومواجيده مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع، ومفطرة الصدور بالتخويف والتفزيع "[١].

وأخذت موجة التصوف في العصر تزداد حدة وقوة، وكان من مظاهر ذلك كثرة الربط المنظمة منذ القرن الرابع الهجري، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب، وكأن زوايا المتصوفة كانت تبنى لهم في هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام. واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أينما وجدت. ويقول المقدسي في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان في إسبيجاب فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمائة رباط، بينما كان في بيكند ألف رباط[٢]، وهي ثغر جليل بين بخارى ونهر جيحون. وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات في ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان ببقية الثغور. ويذكر الحجويري الأفغاني أنه لقى ثلثمائة من ماشيخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته[٣].

ويشير المقدسي إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر، وهي بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة، وهيأت هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها، وكانوا يمنحون مريديهم خرقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة، بل كل الحياة وزخارفها، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله، وفي مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباهجها ونبذ متعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج، ويحث أبو الليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٦٩.

(٢) أحسن التقاسم للمقدسي ٢٧٣ ، ٢٨٢.

(٣) انظر كشف المحجوب للهجويري ـ الترجمة العربية ـ للدكتور إسعاد عبد الهادي (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/ ٣٩١.

عن الزواج أن يظل أعزب[١] حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً. وحتى المرض ينبغي أن لا يهتم به الصوفي فيعرض نفسه على الأطباء للتداوي، فالطبيب هو الله، وهو جانب من عقيدتهم في التوكل على الله حق التوكل، حتى ليهمل الصوفي كل تصرف شخصي، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه، فلا يفكر في رزقه ولا في قوته ولا في غده ثقة في الله. ودائماً يرددون ذكر الله، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم في صفين متقالين، وهي تذكر الله، متحركة بجسدها دون أقدامها يميناً ويساراً، ومنشد ينشد في أعلى الصفين، وفي أثناء ذلك يهيم نفر منهم وينتشي، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يروي رياً مسكراً بجمال الذات الإلهلية، إذ تمتلئ بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية، فتشعر كأنما تتجرد، عن كل إرادة، لمحبوبها الرباني، وهو ما يسمونه بالمحبة الإلهية، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذي يذيب الصوفي في الجمال الرباني ويجعله يفنى فيه في وجد لا يماثله وجد.

ومنذ الحلاج الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله، معتقدين أنه يتجلى فيهم كما يتجلى في خلقه، وكأنهم يشاهدونه في أنفسهم، أو كأنما يحل فيهم، مما هيأ لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة، وكانت هذه الأفكار سبباً في أن يحدث شيء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسع الهوة بين الطرفين أمثال أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧-٤٤١هـ). أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين في عصره، وكان يُعلى عمل الصوفي بقلبه على أداء فرائس الإسلام وأحكامه، وفي ذلك يقول ابن حزم: " إن من الصوفية من يقول إن من عرف لله سقطت عنه الشرائع.. وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض، ونعوذ بالله من الضلال "[٢]. وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة، فقد أوغل بعضهم في آراء ضالة،

---

(١) انظر كتابه بستان العارفين ص١٩٧-١٩٨.

(٢) الفصل لابن حزم ٤/ ١٨٨.

حتى ليعتنق بعض آراء المزدكية في العكوف على الخمر واستحلال المحرم، وغلا بعضهم في تقدير شيوخ الصوفية حتى قدمهم على الرسل والأنبياء، يقول ابن حزم: وطائفة من الصوفية زعمت أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كله من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلت له المحرمات كلها.. وقالوا إننا نرى الله ونكلمه، وكل ما قذف في نفوسنا فهو حق "[1].

ولم تقف المسألة عند أفراد، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية في إيران يضعف عندها الوازع الديني ويشيع عنها إهمال فرائض الإسلام، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين، نذكر منهم جماعة الكرامية بخراسان وما وراء النهر، وكانوا، أو قل تحولوا، دراويش يطوفون في البلدان لابسين أردية من الصوف، ومدلين فوطاً على رءوسهم تحيط بها قلانس طويلة، ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال: التقى والعصبية والذل والكدية أي التسول[2]. ومثلهم الملامتية، وكان مبدؤهم الأساسي الملامة، فالصوفي الكامل في رأيهم من يرتكب أشياء يلومها عليها الناس، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع، وقد ينتهكون فيها حرمته، حتى يتم لهم مبدؤهم، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحل الذين يعيشون على التسول، ويتخذونه ذريعة للبطالة، وكأنما أصبح الصوفي هو المتسول، ولا بأس من أن يُسْقط عنه الفروض الدينية أحياناً.

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ما كان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء، متهمين لهم بالزندقة والكفر، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجوده يتردد على ألسنة المتصوفة وفي كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفي بالذات الإلهية، ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله، ويرون أن الصوفي لا يبلغ مرتبة الكمال إذا إذا أدى الفرائض والسنن، مخلصاً صادقاً. غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة

---

(١) الفصل ٤/ ٢٢٦.

(٢) أحسن التقاسيم ص٤١.

إنما كان موضعها دراويش الملامتية والكرامية وأمثال أبي سعيد بن أبي الخير، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره.

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم، وكان لابد أن يُرْأب، حتى لا تنشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة، فقيض الله لها صوفيين عظاماً، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السراج[1] عبد الله بن علي الطوسي الزاهد صاحب كتاب اللُّمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السلمي تلميذه في كتابه "طبقات الصوفية": " كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة". فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفياً يتغلغل في الحلول وما إليه، بل كان تصوفاً سنياً يرتبط بأداء الفرائض الدينية. وكان رحالة تجول في العالم الإسلامي من نيسابور إلى القاهرة، ووفد على بغداد فأفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأعطي رياسة الدراويش. ولا نغلو إذا ذهبنا إلى أنه يعد مؤسس مدرسة التصوف السني في عصره، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة، وليس فيه حلول ولا شطحات. ويوضح مذهبه الصوفي كتابه اللمع الذي أشرنا إليه، وفيه يفيض في الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم. وتلقن عنه المذهب في نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمي، ولقنه بدوره عبد الكريم[2] القُشَيْري النَّيْسابوري، وتتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبي علي الدقاق، وكان متصوفاً سنياً، فوصل تلميذه بهذا التصوف، بل ملأ قلبه به حماسةً كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفي وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول. وما توافي سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التي طوفت الآفات غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية في البلدان الإسلامية، ليصحح لهم أفكارهم عن

---

(١) انظر في أبي نصر السراج الطوسي طبقات الصوفية للسلمي وكشف المحجوب للهجويري وشذرات الذهب ٣/ ٩١ وكتابه اللمع (نشره نيكلسون في سلسلة جب التذكارية).

(٢) انظر مصادر ترجمة القشيري في الفصل الرابع من هذا القسم.

التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السني الحقيقي وما سجله من سير أعلام التصوف وأقوالهم، مما يصل التصوف وصلاً وثيقاً بالشريعة، وهو يستهلها بقوله:

" اندرست الطريقة بالحقيقة، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضو التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى إتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه، وهم حو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية ".

وبهذه الرسالة العظيمة التي شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيري الحواجز التي كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمية، فالتصوف ليس خصماً للشريعة، بل هي قوامه وصراطه الموصل إليه وأساسه وعماده. ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكاماً وثيقاً، وهو أيضاً نيسابوري، أصله طوسي حقاً ولكنه تلقن التصوفالسني في نيسابور حيث مدرسته الكبرى: مدرس أبي نصرالسراج والقشيري، ونقصد أبا حامد[1] الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ وقد لزم فقهاء نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم، وسرعان ما أصبح شيخاً يشار إليه بالبنان، وأكب

(١) انظر في الغزالي المنتظم ٩/ ١٦٨ واللباب ٢/ ١٧٠ والوافي بالوافيات ١/ ٢٧٤ وابن خلكان (طبعة دار صادر) ٤/ ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي (٦/ ١٩١) ومقدمة بويج لنشرته لكتابه التهافت طبع بيروت ومؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي ومحاضرات مهرجانه في دمشق سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورض ١٩٦ وبراون ص٣٦٨ والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر القسم الرابع وفي التصوف الإسلامي لنيكلسون ترجمة عفيفي ص١٣٩ وسيرة الغزالي لعبد الكريم العثمان (طبع دمشق) والحقيقة في نظر الغزالي لسليمان دنيا (طبع دار المعارف بمصر).

الطلاب على دروسه. وأخذت شهرته تطبق الآفاق، وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي، فعينه أستاذاً للفقه الشافعي في مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ فبارح بغداد إلى أداء فريضةالحج، وولى وجهه نحو الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغرقاً في تأمل الفرق الإسلامية، واستقر في نفسه أنه ينبغي تخليص الأمة من الدقائق التي يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين في شيء، وأن من شأنه أن يزعزع العقيدة العامة ويحدث بلبلة في العقول. وبالمثل حمل على الفلسفة وأعلن عليها حرباً شعواء في كتابه " تهافت الفلاسفة " وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية، ووجه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية في كتابه " فضائح الباطنية ". وهدته تأملاته في عزلته إلى أنه لابد من الوصل بين التصوف والسنة كي ينمو الشعور الديني ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعانق عمل القلب وعمل الجوارح في أداء الشعائر والفروض والنوافل حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص وبصدق الشعور الباطني، وحتى تكون محبة الله الدافع الأساسي لكل ما يصدر عنه من قول وفعل. وألف على هذا الهدي كتابه " إحياء علوم الدين " محللاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحه، ونقصد التصوف السني الذي أقام هو والقشيري السراج بنيانه، والذي يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول. وقد جعل القلب أساس السعي إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه، وحقاً لابد أن تؤدى الفرائض والسنن، ولكن لابد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الديني وصدقه، إذ هو جوهر الحياة الدينية. وبذلك وصل الغزالي وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لجاج في اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر في شباك الحلول، ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعمة بالإخلاص. ومن أهم ما نفذ إليه الغزالي في أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية، وهي تبدو واضحة- كما يقول نيكلسون[1]- في كتابه " مشكاة الأنوار"

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٤٦ وما بعدها.

وكأن الرسول صورة للأمر الإلهي أو الكلمة الإلهية. وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد في متصوفة الأجيال التالية، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذي يتمثل في الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وقد تكاملت للغزالي هذه النزعة الصوفية في أثناء عزلته وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات، عاد بعدها إلى بغداد، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقه أو علم الكلام، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدث فيها بكتابه " الإحياء ". وراجع إل موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة وتركه إلى طوس مسقط رأسه. وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء " وخانقاه " للمتصوفة، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبى نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشريعة مزاوجة بقيت على مر العصور التالية، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوماً عنيفاً جعلها تسقط أمام التصوف وصولجانه.

وقد ازدهر التصوف السني في إيران وغير إيران من العالم الإسلامي، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالي، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفي انتهى، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السُّهْرَوَرْدِيّ[1] الإيراني المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكب على كتب التصوف والفلسفة. واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه في الفصل الرابع. ومن أصحاب التصوف الفلسفي بعد السهروردي صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده في التصوف الإشراقي على نحو ما يتضح في كتابه " الأسفار الأربعة".

ومنذ الغزالي بل قبله منذ السراج والقشيري ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السني في إيران؛ وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون، من أهمها طريقة النقشبندية، وكان تيمورلنك يرعى أهلها، كما مر بنا في القسم الخاص بالعراق، وعاصرتها طريقة البكطاشية، وقد غمست في التشيع وفي شيء من التصوف الفلسفي. وبدون شك أنتجت إيران في هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف في

(١) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردي في ترجمته في الفصل الرابع من هذا القسم.

الفارسية في مقدمتهم جلال الدين الروي (٦٠٤-٦٧٢هـ) والشيخ سعدي الشيرازي المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية، وخلفه الصوفي الكبير حافظ الشيرازي المتوفى سنة ٧٩١ وفي الحق أن التصوف ظل مزدهراً في إيران قروناً متطاولة.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية في العصرين: العباسي الأول والعباسي الثاني نشاطاً عظيماً، فمن تعليم للناشئة في الكتاتيب إلى تعليم للشباب في المساجد، ومضت على هذا النحو في أوائل عصر الدول والإمارات في إيران وغير إيران، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئاً من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار. أما المساجد فتحولت بجانب ما كان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم. وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد، ويتحلق الطلاب حوله، وهو يملي عليهم محاضراته. وكانوا يتكاثرون في بعض الحلقات، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ، فينهض مُسْتَمْلٍ بترديده، حتى تسمعه تلك الصفوف. وكانت أكثر الحلقات طلاباً حلقات الفقهاء والمحدثين. ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجراً على دروسه، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل.

ولا نبالغ إذا قلنا أن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يعدان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذي نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ، فقد مضى كل منهم يجهد جهداً بالغاً في أ يضم حوله علماءالعصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكي يبعثوا في شباب الدولة الطموح إلى تحقيق ما لم يحققه العلماء قبلهم. ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويجري الرواتب والأرزاق على الفقهاء والأدباء والقراء، فرغب الناس في العلم، وكان هو نفسه يتشاغل بالعلم، ووجد في تذكرة له: إذا

فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم، وإذا فرغنا من كتاب أبي علي الفارسي النحوي تصدقت بخمسين ألف درهم[١]. ويقول ابن الأثير: " كان يجلس مع العلماء يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفوا له الكتب، منها الإيضاح في النحو والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي، والكناش الملكي في الطب لعلي بن العباس المجوسي، وكتاب التاجي في التاريخ لأبي إسحق الصابئ إلى غير ذلك ". وكان خلفاؤه من البويهيين يعنون بالعلم وأهله. وكذلك كان السامانيون، حتى قالوا إن خراسان جنة العلماء، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران في العصر، وسيتردد اسمها كثيراً فيما يلي من كلام. وبالمثل كانت الدولة الزيارية تعنى في طبرستان بالعلم والعلماء. ولم تكن تقل عنها عناية الدولة الخوارزمية بأمرائها الثلاثة في مدينة خيوه المعروف كل منهم باسم " مأمون خورازم " ويكفي أن نعرف أنه كان يعيش في رعاية ثالثهم الذي استولى محمود الغزنوي على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم في مقدمتهم البيروني وابن سينا وأبو سهل المسيحي والطبيب ابن الخمار والرياضي أبو نصر بن العراق، وكان محمود الغزنوي قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته، ولباها ابن العراق وابن الخمار والبيروني، ورفضها أبو سهل وابن سينا، وولى الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزياري صاحب طبرستان[٢]. وفي هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوي[٣] بجمع الفلاسفة والعلماء في عاصمته " غزنة " التي جعلها مركزاً من أهم مراكز العلوم والآداب في الشرق الإسلامي وعمت النهضة في دولته مدناً أخرى مثل هراة. وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمراء، وكانوا أحياناً لا يخصون بها أميراً واحداً، بل ينتجعون بها أمراء الدول والإمارات المختلفة، على نحو ما كان يصنع الثعالبي، فقد أهدى كتابيه: " المبهج " و"التمثل والمحاضرة" إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه: " النهاية في

(١) انظر المنتظم ٧/ ١١٥ وابن الأثير ٧/ ٢١.

(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربي) ص١١١.

(٣) انظر في ثقافته ابن تغري بردي ٤/ ٢٧٣.

الكناية " و"نثر النظم" و"اللطائف والظرائف" لمأمون بن مأمون أمير خوارزم، وكتابه "لطائف المعارف" للصاحب بن عباد وزير البويهيين، وكتابيه " سحر البلاغة " و"فقه اللغة" للأمير أبي الفضل الميكالي راعي العلم والأدب في نيسابور.

وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية في العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها، إذ تأسست بها في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة أبي حفص الفقيه، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١ للهجرة[١]، وفي أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدث الكبير ابن فورك[٢] المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة[٣]. وكثر بها بناء المدارس في النصف الأول من القرن الخامس، إذ بنيت بها مدرسة[٤] لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس[٥]: هي المدرسة البيهقية، ومدرسة الإسترابذي المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعي، والمدرسة السعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكين، والرابعة مدرسة بُنيت لأبي إسحق الإسفراييني.

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الري حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية، ولم يلبث أن وزر لهم في عهد سلطانه ألب أرسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين في سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى ألب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه، وكان سياسياً بارعاً وله في السياسة كتاب باللغة الفارسية سماه " سياست نامه ". وكان شافعي المذهب أشعرياً عدواً للإسماعيلية الباطنية، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس، عُرفت كل واحدة منها باسم النظامية، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نحلة الحشاشين، ولنشر المذهب الشافعي والنحلة

---

(١) طبقات الشيرازي (طبع بغداد) ١٢١.

(٢) السبكي ٤/ ١٢٨.

(٣) السبكي ٤/ ١٥٩.

(٤) السبكي ٤/ ٢٩٠.

(٥) السبكي ٤/ ٣١٤.

الأشعرية. فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهراة ومرو وأصفهان وآمل في طبرستان وبالموصل وبغداد. وجميعها تأسست حوالي سنة ٤٥٧ للهجرة، وكان يدرس فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعري علوم التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يختار لكل منها أستاذاً كبيراً. وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة، ورصد لطلابها نفقات مقدرة، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة. وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تغص بالكتب في كل علم وفن، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين.

والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبينا اهتمام الدولة والأفراد به، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب، وظل الاهتمام بها في هذا العصر، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية، فكانت هناك مكتبات الوراقين التي تعرض فيها الكتب للبيع، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقاً مستقلاً. وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التي ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية. وكانت في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يقفه العلماء على طلاب العلم في الجوامع. وكان هناك رعاة للعلم يبنون المكتبات لطلابه، مثل ابن حبان البستي صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤ فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب. ويروى أن أبا علي بن سوار الكاتب في دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب في مدينة رامَهُرْمُز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها [1].

وكان طبيعياً منذ أوائل هذا العصر أن يشغف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة، أولاها مكتبة عضد الدولة، وقد رآها المقدسي ووصفها بقوله: " حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها، وهي أزج (بناء) طويل في صفة كبيرة، فيه خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها

(١) المقدسي ص٤١٣.

أسامي الكتب، ولا يدخلها إلا كل وجيه[١]". والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد، وكانت أكبر من السابقة، ويقال إنها لو حملت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير[٢]، واتخذ خازناً لها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة، ويبدو أنه اتخذه خازناً- كما مر في ترجمته- بعد وفاة ابن العميد وابنه أبي الفتح. والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالري، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد، إذ كان بها من كتب العلم ما يحمل على أربعمائة بعير أو أكثر. ويقال: كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الري عشرة مجلدات[٣].

ولعل في ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والزياريين والخوارزميين، بل امتد أيضاً كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذي كانت مجالسه تزدان بالعلماء، وكان يحضر سماطه القشيري وإمام الحرمين وأبو إسحق الشيرازي، وكثر تصنيفالكتب باسمه من مثل كتاب التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبي المظفر طاهر بن محمد الإسفراييني المتوفى سنة ٤٧١. وقدم له إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني كثيراً من كتبه، وله بنى المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرس فيها عشرين عاماً إلى أن توفي سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعمائة طالب وأستاذ[٤]. وكان الطلاب دائماً كثيرين في حلقات العلماء، فيُرْوى أنه كان يحضر دروس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور أكثر من خمسمائة طالب[٥]. وفي هذا ما يدل على إقبال الشباب في نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالاً منقطع النظير، ولم يكن ذلك في نيسابور وحدها، فقد كان عاماً في مدن إيران وم وراء النهر من أرض الشاش وفرغانة، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحاً لجميع، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها، لا

---

(١) المقدسي ص٤٤٩.

(٢) ابن مسكويه ٦/ ٢٨٦ وما بعدها.

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٦/ ٢٥٦.

(٤) طبقات السبكي ٥/ ١٨٤.

(٥) التهذيب للنووي (طبعة وستنفلد) ص٣٠٧.

أوساط المثقفين فحسب، بل أياً أوساط العامة، يدل على ذلك من بعض الوجود ما رواه السبكي في طبقاته من أن فقهاء الشاش " كتبوا إلى ابن سريج إمام الشافعية ببغداد يعلمونه أن الناس في ناحيتهم أرض الشاش وفرغانة مختلفون في فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفتيا، ويأسلونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه (محمد وأبي يوسف) وداود بن علي الأصفهاني (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي، فكتب القاضي لهم الرسالة "[1].

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفاً على الفقهاء وتلاميذهم، بل كانت العامة تشارك فيها وفي دقائقها وتفريعاتها الكثيرة لا التي اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى: الشافعي ومالك وأبو حنيفة فحسب، بل أيضاً تلك التي اختلف فيها معهم سفيان الثوري وداود بن علي الأصفهاني. ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفي من خلاف مثل ما حدث بين أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وقفت عليه العامة فيما وراء النهر. وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية في إيران وأنها كانت عامة بين الناس، ولا تخص الرجال بل تعم النساء، وهي تتصل بالحديث النبوي وروايته، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الإثبات، ويذكرن في تراجم بعض المحدثيين وينص على أنهم حملوا الحديث عنهن، منهن كريمة المروزية،وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادي المحدث المشهور صحيح البخاري، وسمع منها أيضاً بمكة سعد الأسد آباذي[2]، فهي لم تحدث في موطنها فحسب، بل حدثت أيضاً في مجمع العلماء بالحرم المكي، وبأي كتاب؟ بأعظم كتب الحديث إسناداً: صحيح البخاري. ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة[3] بنت عبد الله البوشنجية، وهي من محدثات القرن الخامس الهجري، ومثلها فاطمة بنت أبي علي الدقاق شيخ القشيري في

---

(١) السبكي ٣/ ٤٥٧.

(٢) السبكي ٤/ ٣٠، ٣٨٣.

(٣) السبكي ٥/ ١١٨.

التصوف، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون[١]. ومن محدثات القرن الخامس أيضاً كريمة[٢] بنت محمد، وشهدة[٣] بنت أحمد. وهن جميعاً أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران. ومن تتمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية، موزعين الكتب على علومها المختلفة، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمي أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتاباً موسوعياً هو "مفاتيح العلوم" ويهديه إلى أبي الحسن العتبي وزير الأمير نوح الساماني الثاني (٣٦٦-٣٨٧هـ) وكان يعيش في رعايته بنيسابور، والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها، وهو مقالتان: المقالة الأولى في علوم الشريعة وما يتصل بها، والمقالة الثانية في الفلسفة وعلوم الأوائل.

(١) السبكي ٥/ ١١.

(٢) السبكي ٥/ ٩٥.

(٣) السبكي ٦/ ٧١، ٧٣.

obeikandl.com

٢

علوم الأوائل: تفلسف ومشاركة

تحدثنا في كتابي العصر العباسي: الأول والثاني عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات في الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات في الرياضيات والطبيعيات. وسرعان ما شارك العرب في كل ما ترجموه، سواء في النظريات الفلكية أو في العلوم الطبيعية، وقد سارعوا في نقل كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري وهو في الفلك والجغرافية ونقل كتاب الأصول لأقليدس في الهندسة وكتب أرسطو في علمي الحيوان والطبيعة وفي المنطق وكتب جالينوس وبقراط في الطب، وترجموا أيضاً لأفلاطون وغير أفلاطون كتباً مختلفة. وقد ذكرنا في كتابي العصر العباسي أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه، وعرضنا ذلك كله عرضاً مستفيضاً. وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة في جميع الميادين العلمية، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ في الرياضيات دوت شهرتهم فيما بعد في عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمي الذي يفتتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب، ومثل جابر بن حيان الكيميائي المشهور، ومثل محمد بن زكريا الرازي ذائع الصيت في عالم الطب الذي اكتشف في وضوح فرق ما بين مرضى الجدري والحصبة ووضع أسساً واضحة للطب النفسي. وكان طبيعياً بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهون. ويلمع اسم الكندي فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون، ويلمغ بأخرة من العصر العباسي الثاني اسم فيلسوف كبير هو الفارابي الذي مزج في فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجاً رائعاً، مصطفياً لأمته نظريات فلسفية جديدة.

وبانتهاء العصر العباسي الثاني ينتهي عصر المترجمين العظام، وندخل في عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الخصبة، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان

من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيروني المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة.

وابن سينا[1] أكبر فلاسفة الإسلام، ويلقب بالشيخ الرئيس، وقد احتفظ ابن أبي أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخاري في أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولى التصرف للسامانيين بقرية خرميثن، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخاري وعني بتربيته فأحضر له معلماً للقرآن ومعلماً للأدب، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن، وأقبل على دراسة الفقه. ويذكر أن أباه كان إسماعيلياً ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلي، وكان يقرأ معه إيساغوجي وكتاب أقليدس والمجسطي، ويراه لا يفهمها حق الفهم فكان يشرحها لأستاذه. وأكب على علوم الأوائل والطب، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاماً في السابعة عشرة من عمره. واستغلقت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتاباً للفارابي، حل له مستغلقاتها. وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته، ويكون شفاؤه على يديه، فيوظفه عنده ويغدق عليه من أمواله. ويستأذنه ابن سينا في دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز في علوم الأوائل. ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم، ونزل بعاصمتها " خيوة " عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيروني. وسمع محمود الغزنوي بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء في بلاط أمير خوارزم،

---

(١) راجع في ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقي ص٥٢ والقفطي ص٤١٣ وابن أبي أصيبعة ص٤٣٧ وابن خلكان ٢/ ١٥٧ وروضات الجنات ص٢٤١ ولسان الميزان ٢/ ٢٩١ وتاب لكارادي فوعنه (طبع باريس) ومقالته عنه في دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشر هيستنجر (أدنبرة ١٩٠٩) ٢/ ٢٧٢ وبراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربي) ص١١١، ١٢١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور ص١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدوميلي ص١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقنواتي. وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها في كتابنا " الترجمة الشخصية " طبع دار المعارف ومقالاً لنا عن لغة ابن سينا في العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة، وهو عدد خاص بعبده الألفي.

فأرسل إليه في طلبهم، كما مر بنا، وأبى ابن سينا أن يذهب إليه، وأخذ يتنقل في بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير، فأكرمه وأنزله منزلة عليا، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهي علاء الدين بن كاكويه. وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمذان سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م وقبره معروف بها إلى اليوم.

وعند ابن سينا تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية، ويلقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، وأكثر مؤلفاته بالعربية، وله مؤلفات بالفارسية، وأيضاً له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفي، وله قصص فلسفية كقصة سلامان وأبسال وقصة حي بن يقظان ورسالة الطير. ومصنفاته تعد بالمئات، وأشهرها كتاب القانون في الطب وكتاب الشفاء في الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات. وكان الكتاب الأول عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بجامعاتهم حتى القرون القريبة، وقد ترجموه إلى اللاتينية، ويقال إنها طبع بها ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر الميلادي وعشرين مرة في القرن السادس عشر. وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة.

وابن سينا يتأثر بأرسطاليس، وحاول جاهداً أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام. ونحا في كثير من أفكاره نحو الفارابي، وهو يتفق معه في تفاريع المنطق وفي الإلهيات وما ذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله، لأنه منزه عن كل مادة وكل جسم، والله واحد من كل وجه، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة، وإلا اختلفت الجهات في ذاته. وهو- لذلك- لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول. وعن هذا العقد يصدر عقل يدبر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هي جرم الفلك، وأخيراً العقل الفعال الذي تصدر عنه مادة الكائنات في الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية، وطبيعي أن لا يرتضي أهل السنة والمعتزل منه هذه اراء، وإذا نحيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء، فيقول إن كل ما في الوجود خيراً كان أم شراً بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته في القدر. وكان يرى أن من الموجودات ما هو

محض كالأمور العقلية والسماوية، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود الأرضي والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد.

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاه النفوس الكاملة التي تتمسك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعد الموت بطلاناً للجسم، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلي، وسعادتها وشقوتها حينئذ ترجعان إلى اتحادها به قوة وضعفاً. وفي ذلك يكون الثواب والعقاب.

ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة، فيمزجها بالتصوف الذي تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى في الكون سوى مبدعه وجماله على نحو ما تصور ذلك قصتاه "حي ابن يقظان" و"سلامان وأبسال" وسنلم بهما في الفصل الأخير. وفي الأولى يعود حي بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهلية، بينما يتخلص أبسال في الثانية من أغلال اللذات الحسية موغلاً في اللذات العقلية وما يطوى فيها من لذات الصوفية الروحية. ويوضح ذلك في كتابه الإشارات، فيقول عن الصوفي ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس اله مستديماً لإشراق نور الحق على نفسه، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لا رهبة من عقابه ولا رغبة في ثوابه.

والبيروني[1] هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحي خيوه عاصمة خوارزم تسمى بيرون، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته، ويبدو أنه تلقن معارفهالأولى بخيوه، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقهما حذقاً رائعاً، وشغف في أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم، ولم يكد يتدرج في العقد الثالث من عمره حتى بارح موطنه إلى طبرستان حيث عاش في رعاية أميرها قابوس، وإليه قدم أول كتبه: "الآثار

(١) انظر في البيروني تتمة صوان الحكمة للبيهقي ومعجم الأدباء ١٧/ ١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٤٥٩ ومقدمتي سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من مقولة وبراون ١١١، ١٢١ وكاجوري في تاريخ الرياضيات ومادة بيروني في دائرة المعارف البريطانية وكتاب العلم عند العرب لألدوميلي ص١٨٨ وما بعدها ومقالتي بروكلمان وفيدمان عن البيروني في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ٢٤٥ وما بعدها.

الباقية عن القرون الخالية" الذي فرغ من تأليفه حوالي سنة ٣٩٠ وقد صور فيه المناهج التاريخية والتقاويم الحسابية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة، وقد طبعه سخاو في ليبزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيروني وأعماله ومكانته. وكان قابوس متقلباً، فخشي البيروني على نفسه منه، وتركه إلى موطنه وميره فيه "مأمون خوارزم". وسمع به وبعلمه محمود الغزنوي، فطلبه من أميره، وأبدى البيروني- فيما يروى- رغبته في الذهاب إليه، ويقال: بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوي على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة. وكان البيروني شيعياً ومحمود سنياً يضطهد الشيعة، فتحول البيروني إلى مذهبه، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته محمود. وكان محمود ماينى يغزو الهند على نحو ما مر بنا في الفصل السابق، فكان يسير معه، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكنته من دراستها دراسة علمية خصبة، تعلم في أثنائها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماؤها، ودرس في عمق فلسفاتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملة معارفها في التنجيم والتاريخ والفلك، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" وقد أتمه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوي بعامين. وفي الكتابقطع بنصها لمؤلفين هنود، وفيه وصف جغرافي مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارهم في الفلك والتنجيم. ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس. ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق. ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق في الديانات وفلسفاتها، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس. وفي كل ذلك ينثر آراءه الأصيلة التي تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة. ونراه يبين في قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية.

ومن مصنفات البيروني كتابه القانون المسعودي في الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف في الفلك والهندسة

والتنجيم، وقد وصفه ياقوت بأنه يعفي أثر كل كتاب، صنف في تنجيم أو حساب، ويقول البيهقي إنه غرة في وجوه تصانيفه. وفي مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذي قدم إليه الكتاب وقد نشر في حيدر آباد سنة ١٩٥٣. وللبيروني كتب أخرى، منها كتاب في المعادن سماه الجماهر في معرفة الجواهر، أهداه إلى السلطان مودود الغزنوي، ومنها كتب في الطب وكتاب في الصيدلة نشره ماكس مايرهوف في برلين وكتب أخرى في الطبيعيات. وفي الحق أنه شخصية فريدة في تاريخ إيران العربية.

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر[١] ستاني أبو الفتح محمد بن أبي القاسم المتوفى سنة ٥٤٨ وهو من شهرستان في شمالي خوارزم، واشتهر بكتابه الفريد "الملل والنحل" الذي ألفه في سنة ٥٢١ وهو في علم مقارنة الملل والأديان. وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سبباً في نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب، فمنذ القرن الثالث الهجري وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيروني وألف كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة " الذي تحدثنا عنه آنفاً، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة في الديانات، وجاء بعده ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ وألف كتابه " الفِصَل في الملل والأهواء والنحل " وخلفه الشهرستاني، فألف كتابه سالف الذكر عارضاً فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك في اعتدال وإنصار وبصر نافذ، وهو لا يباري في دقته وذكائه وتمييزه بين المعتقدات والمل سواء تحدث عن عالمه الإسلامي أو عن عالم الفرس القديم وديانته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان.

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفي مقدمتها الرياضيات والفلك، وقد تقدم العرب بهما في مطلع هذا العصر خطوات على نحو ما يصور ذلك ألدوميلي في كتابه العلم[٢] عند العرب، ومن نابهيهم في القرن الرابع الهجري ممن تحدث عنهم أبو الفتح

---

(١) انظر في الشهرستاني وترجمته ابن خلكان ٤/ ٢٧٣ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٣١٣ والسبكي ٦/ ١٢٨ والوافي بالوفيات ٣/ ٢٧٨ وشذرات الذهب ٤/ ١٤٩ ومرآة الجنان ٣/ ٢٨٩ ولسان الميزان ٥/ ٢٦٣ وعبر الذهبي ٤/ ١٣٢ وروضات الجنات ١٨٦ وبراون ص٤٥٩ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٢) انظر العلم عند العرب ص٢١٢ وما بعدها.

محمود بن محمد الأصفهاني الذي نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس، وأبو جعفر الخازن الخراساني، وله كتاب في الفلك وصف فيه عدداً من آلات الرصد الفلكية، وأبو الحسين الصوفي مؤلف كتاب الكواكب الثابتة، وهو محلى بالرسوم، ويقول ألدوميلي إنه صحح فيه كثيراً من أخطاء بطليموس، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون. واطرد هذا الشاط العلمي في القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن علي بن أحد النسوي يؤلف بالفارسية كتاباً في اللوغاريتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع في الحساب الهندي. ويشمل نظام الملك في الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين، وفي مقدمتهم[1] عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة وله كتاب فذ في علم الجبر رتب فيه- كما يقول ألدوميلي- الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيباً منظماً، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم، وبنى له مرصداً سنة ٤٧١ ويظن أنه إما كان في مرو وإما في أصفهان وإما في نيسابور، وعين له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم وألف فيه كتابه "التاريخ الجلالي" نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقي. ومن أشهر الرياضيين بعده نصير[2] الدين الطوسي المولود بطوس سنة ٥٩٧ وقد تلقفه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه، فأرسلوه إلى عاصمتهم " ألموت " وهناك وجد مكتبة نفيسة أكب على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات، حتى إذا استولى هولاكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته، وكرمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم، وصحبه في هجومه على بغداد، وانتهز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة، وكون منها مكتبة ضمت أكثر من أربعمائة ألف مجلد، كما يقول ابن شاكر في كتابه فوات الوفيات. وساعده هولاكو في بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعين معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين، وظل نصير الدين قائماً على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣

---

(١) راجع في عمر الخيام وترجمته القفطي ص٢٤٣ وآثار البلاد للقزويني (طبعة وستنفلد) ص٣١٨ وبراون ص٣٠٤ وألدوميلي ص٢١٤، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٢) انظر في نصير الدين الطوسي وترجمته فوات الوفيات لابن شاكر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٢/ ٣٠٧ وروضات الجنات ص٥٠٦ وشذرات الذهب ٥/ ٣٣٩ وبراون ص٦١٥ وألدوميلي ص٢٨٩، ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية، وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته.

وقد ألف زيجاً أو قل تقويماً أصلح به تقويم الخيام، وألف كتباً كثيرة في التنجم والفلسفة والرياضيات والطبيعيات. ومن أشهر تلاميذه قطب[١] الدين محمود بن مسعود الشيرازي المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضياً فلكياً، ومن كتبه: "نهاية الإدراك في دراية الأفلاك". ومنهم نجم[٢] الدين علي بن عمر الكاتبي المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفاً في مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب في المنطق سماه " الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية" وهي مشروحة مراراً. وظل مرصد المراغة مجهزاً بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجري، وكانت العربية لا تزال في إيران اللغة الأولى للعلوم، وإن أخذت تزاحمها الفارسية حتى ظفرت بها في الحقب المتأرة.

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية، وكانت البيمارستانات تعد مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به، ومن أهم الأطباء في القرن الرابع الهجري علي[٣] بن العباس المجوسي صاحب الكنائس الملكي في الطب، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهي، وكان يعاصره أبو[٤] سهل المسيحي الذي ألف ما يشبه دائة معارف طبية في مائة مقالة. ولزين[٥] الدين الجرجاني الطبيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها " ذخيرة خوارزم شاه " وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمي قطب الدين محمد. ويظل الاهتمام بالطب على توالي الحقب، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير، ويشتهر في هذا العلم موفق[٦] بن علي الهروي في القرن الرابع الهجري، كما يشتهر في الكيمياء الطغرائي الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقي مسعود، وله كتب

---

(١) راجع في قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٣٣٩ والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣ وألدوميلي ص٢٩٨.

(٢) انظره في فوات الوفيات ٢/ ١٣٤ وألدوميلي ص٢٧١.

(٣) راجع ألدوميلي ص٢٣٨ وما بعده حيث يعرض مجموعة من الأطباء بينها علي بن العباس وانظر القفطي ص٢٣٢ وبروكلمان ٤/ ٢٩١.

(٤) انظر فيه القفطي ص٤٠٨ وبروكلمان ٤/ ٢٩٤.

(٥) راجع فيه ألدوميلي ص٣٢٠.

(٦) ألدوميلي ص٢٣٩.

كثيرة في الكيمياء[١]، منها الجوهر النضير في صناع الإكسير. وللقزويني[٢] زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف في التاريخ الطبيعي سماه " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ".

ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن كتاب بطليموس الجغرافي وجه العرب منذ الخوارزمي الرياضي محمد بن موسى إلى التأليف في علم الجغرافيا أو تقويم البلدان، ونشط فيه التأليف نشاطاً واسعاً واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهجاً طريفاً في وصف البلدان أن يعنوا بالحديث عن عادات الشعوب، ويقصوا بعض ما سمعوه من الأعاجيب، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ما سمعه الجغرافي بأذنه ورآه تحت بصره، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات. ويلقانا في القرن الرابع رحالة مشهور هو أبودلف الخزرجي مسعر بن مهلهل شاعر الكدية الذي سنترجم له بين الشعراء الشعبيين، وعداده في شعراء أصفهان، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة، حققها المستشرق مينورسكي، وعني الدكتور محمد منير مرسي بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتي في الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربي لإيران. وجاء بعده في القرن الخامس الهجرية رحالة إسماعيلي، هو ناصر خسرو، وقد كتب رحلته بالفارسية في كتابه المسمى " سفرنامه " واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧-٤٤٤هـ) طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر، وهي تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربي. وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون في المحيط الهندي والهادي، ووصفوا رحلاتهم فيها وفي المحيطين وجزرهما وشواطئها في آسيا وإفريقيا وكل ما رأوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور. ومن أهم ما كتبوا من هذه الرحلات كتاب "

---

(١) انظر في نشاط الطغرائي الكيميائي ألدوميلي ص٢٣٩.

(٢) راجع في القزويني براون (ترجمة الدكتور الشواربي) ص٦١٢ وألدوميلي ص٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١/ ٣٦٠.

عجائب[1] الهند بره وبحره وجزره وشطآنه" لبزرك بن شهريار الناخُداه أي الربان. ويدل اسمه على أنه إيراني، وتدل حكاياته على أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجري، وهو يقص في كتابه قصصاً بديعاً ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندي والهادي ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنهم من عواصف هوجاء، وما شاهدون من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها، وهو كتاب جغرافي وأدبي وقصصي نفيس.

وربما كان القزويني زكريا بن محمد المذكور آنفاً أكبر جغرافي أنتجته الحقب التالية في العصر، واسم كتابه الجغرافي: " آثار البلاد وأخبار العباد " وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض، ويذكر ما فيها من البلدان والجزر والأنهار، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم في آسيا وإفريقيا وأوروبا وخاصة شعوب الهند والصين، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد في البلدان الإسلامية، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكي كثيراً من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه في بعض جوانبه شبيهاً بكتب الأدب الخيالية المسلية.

ولعل في كل من سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل في إيران حتى القرن الثامن الهجري، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم في حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفاً دقيقاً، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ يتجرد لوضع كتاب يفي بهذه الحاجة، على نحو ما يلقانا عنده في كتابه التعريفات الذي أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتباً لها على حروف المعجم ترتيباً دقيقاً.

---

(١) انظر في هذا الكتاب كراتشكوفسكي ١/ ١٤٣ وكتابنا " الرحلات " طبع دار المعارف ص٣٣.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث في اللغة نشاطاً واسعاً لهذا العصر، إذ كثر العلماء الإيرانيون الذين تصدوا للمباحث اللغوية، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم، واهتمامهم به قديم، ولذلك لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخيل بن أحمد، وهو أول معجم وضع فيالعربية، إنما تنشر- كما ذكر صاحب الفهرست- من خراسان. ومعروف أن المعجم الثاني في العربية الذي ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ وهو أيضاً نشر لأول مرة في إيران، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والي الأهواز وفارس ابن دريد من البصرة لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل، وهناك وضع الجمهرة، وكان ترتيب الكلمات في هذا المعجم- كترتيبها في معجم العين- على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي أي من الحلق واللسان والفم والشفتين. وأول معجم عام وضع في عصر الدول والإمارات الذي نحن بصدده معجم تهذيب اللغة الذي وضعه أبو منصور محمد[1] بن أحمد الأزهري الهروي المتوفى سنة ٣٧٠هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون في خدمة اللغة وغير اللغة، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران.

ورتب الأزهري معجمه على ترتيب معجم العين أي حسب مخارج الحروف، وعرض في مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضحاً مدى الثقة والتهمة في أعمالهم. وكان يعاصر الأزهري عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع في اللغة معجمه ديوان الأدب الذي نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، واتبع فيه طريقة جديدة هي ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة، ووضع الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم تبق منه إلا بعض

---

(١) انظر في الأزهري ابن خلكان (طبعة دار صادر ببيروت) ٤/ ٣٣٤ ومعجم الأدباء ١٧/ ١٦٤ وشذرات الذهب ٣/ ٧٢ والسبكي في طبقاته ٣/ ٦٣.

أجـزاء لا تـزال مخطوطـة. وخلفهـما أبـو الحـسين أحمـد[١] بـن فـارس القزوينـي معلـم العربيـة بهمذان المتوفى سـنة ٣٩٥هـ ولـه معجـمان: المجمـل ومقـاييس اللغـة، أمـا المجمـل فمعجـم عـام رتبه حسب الأبجدية المعروفـة لنـا اليـوم، غـير أنـه قـسم المـواد في كـل حـرف إلى ثنـائي ويـشمل المـضاعف والمطـابق، ثـم ثلاثـي، ثـم مـا جـاء عـلى أكثـر مـن ثلاثـة حـروف أصـلية، والتـزم أن يفتح حديثه في كل حرف به مع مـا يليـه، ومعجمـه مقـاييس اللغـة عـلى غـرار المجمـل، عُنـي فيـه بـأن يجعـل لألفـاظ كـل مـادة لغويـة أصـلاً تـرد إليـه أو أصـلين. وهـو فيـه أكثـر منـه في المجمـل عنايـة بالـشواهد والأمثـال والعبـارات المجازيـة، بينـما هـو في المجمـل أكثـر منـه في المقـاييس عناية بذكر الأعلام.

ولأبي نـصر إسـماعيل بـن حمـاد الجـوهري [٢] معـاصره المتـوفي سـنة ٣٩٥ معجمـه المـشهور: تاج اللغة وصـحاح العربيـة ويـشتهر باسـم الـصحاح، وأصـل مـوطن الجـوهري فـاراب شرقـي خراسـان، رحـل في طلـب اللغـة إلى بـلاد ربيعـة ومـضر، ورجـع إلى خراسـان فنـزل في الـدامغان ثـم ألقـى عـصاه في نيـسابور، وظـل بهـا يـدرس ويـصنف إلى وفاتـه، ومعجمـه مرتـب عـلى الحروف الجائية ولكـن لا بحـسب أوائـل الكلـمات وإنـما بحـسب أواخرهـا بـنفس المـنهج الـذي اتبعـه خالـه الفـارابي في معجمـه ديـوان الأدب، وأوتي المعجـم مـن الـشهرة والـذيوع ماجعـل مؤلفـات كثـيرة تعنـي بـه عنـد العلـماء في موطنـه وفي غـيره. ووضـع محمـد بـن أبي بكـر بـن عبـد القادر الرازي من أهل القـرن الثـامن الهجـري مختـصراً لـه سـماه "مختـار الـصحاح" ورتبـه حـديثاً محمـود خـاطر بحـسب اوائـل الكلـمات لا بحـسب أواخرهـا، وهـو مطبـوع في عـصرنا مـراراً وتكـراراً. وللزمخـشري [٣] محمـود بـن عمـر المتـوفي سـنة ٥٣٨ معجـم عـام سـماه "أسـاس

(١) انظر في أحمد بن فارس اليتيمة ٣/ ٤٠٠ ودمية القصر وابن خلكان ١/ ١١٨ ومعجم الأدباء ٤/ ٨٠ وإنباه الـرواة ١/ ٩٢ وما به من مراجع والنجوم الزاهرة ٤/ ٢١٢.

(٢) راجع في الجوهري إنباه الرواة ١/ ١٩٤ ومعجم الأدباء ٦/ ١٥١ وشذرات الذهب ٣/ ١٤٢ واليتيمة للثعـالبي ٤/ ٤٠٦ ودمية القصر للباخرزي وكتب تراجم النحاة والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٧.

(٣) انظر في الزمخشري ابن خلكان ٥/ ١٦٨ والأنساب للـسمعاني الورقـة ٢٧٧ وروضـات الجنـات ص٦٨١ وإنبـاه الـرواة ٣/ ٢٦٥ واللباب ٢/ ٥٠٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٢٦ وطبقـات المفـسرين للـسيوطي ٤١ وشـذرات الـذهب ٤/ ١١٨ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٤ وأزهار الرياض ٣/ ٢٨٢ ونزهة الأبـاء صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم ٣٩١ والجـواهر الفـضية

البلاغة" وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامها، ويعني ببيان ما جاء في كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة. ونمضي إلى القرن الثامن فنلتقي بالفيروز بادي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي المتوفي سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه في الفصل الثاني من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية.

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون في الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف. منها معجم أبي عبيد الهروي المتوفي سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهري، ولم يعن مثل أستاذه بمعجم عام إنما عُنى بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين في لغة كلام الله وأحدايث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما، ووضع الزَّوْزَني [1] الحسين بن علي بن أحمد المتوفي سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه ترجمان القرآن. وجاء بعده الراغب [2] الأصبهاني الحسين بن محمد المتوفي سنة ٥٠٢ ووضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن، وهو معجم لا نظير له في بيان دلالات ألفاظ القرآن، ولا يستغنى عنه ناظر في آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم. ووضع الزمخشري المذكور آنفاً معجماً لألفاظ الحديث النبوي سماه الفائق في غريب الحديث.

وبجانب هذا النشاط اللغوي نشط علماء اللغة في إيران في دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تتضمن شرحها، ويمكن أن ندخلها في المعاجم الخاصة، ولعل أول من يصادفنا في هذا الباب حمزة [3] الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يتهم بشعوبيته لافتخاره بنسبة إلى الفرس، ولأنه فيما يقال وضع ك تاباً لعضد الدولة البويهي في الموازنة بين العرب والفرس،

٢/ ١٦٠ وكتب التاريخ في سنة وفاته ويراون في تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ص ٤٥٨.

(١) راجع في الزوزني إنباه الرواة ١/ ٣٢٠ ويراون ص٤٤٦ وبروكلمان ٥/ ٢٠٧.

(٢) انظر في الرغب بغية الوعاة وطبقات المفسرين تتمة البيهقي ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٥/ ٢٠٩ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

(٣) راجع في حمزة الفهرست لابن النديم ص٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٣/ ٦٠ ودائرة المعارف الإسلامية

وينفي عنه بروكلمان هذه التهمة، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكرهم!. وله في الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم "أحلم من الأحنف" وسماه الدرة الفاخرة، وصنع الصاحب المذكور آنفاً أمثال المتنبي، استخرج من شعره الأبيات التي تجري مجرى المثال.

وكان يعاصره أبو هلال [١] العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ وقد وله بعسكر مكرم في إقليم خوزستان وإليها ينسب، وتعلم بها، واحترف التجارة، ولم تشغله عن التصنيف والتأليف، وله في الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبه على احروف المعجم، ذكر فيه منها نحو ألفي مثل. وشرحها شرحاً وافياً مبيناً مضاربها ومواردها، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهاني فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل. وجاء بعده الميداني [٢] أحمد ابن محمد المتوفي سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال. حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية، وهو استقصاء لم يُسْبَقْ إليه، مع شرحها شرحاً مستفيضاً. وخلفه الزمخشري الذي ذكرناه آنفاً فألف معجمه "المستقصى في الأمثال"، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميداني. ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة والدقة. ويدخل في هذا النشاط المعجمي بعض اللغويين وضع معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب في ترتيب المعرب لناصر [٣] المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشري في وطنه خوارزم. ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التي يستخدمها الفقهاء.

وحاول اللغويون في إيران أن يضعوا كتباً تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المار ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية، وأهم منه كتاب الصاحبي في فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد، وهو أول كتاب منهجي في موضوع أصل

---

(١) انظر في أبي هلال معجم الأدباء ٨/ ٢٥٨- ٢٦٧ ومعجم البلدان في عسكر مكرم وإنباه الرواة للقفطي باب الكني وبغية الوعاة للسيوطي ص٢٢١ وخزانة الأدب ١/ ١١٢.

(٢) راجع في الميداني كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٥/ ٤٥ والإنباه ١/ ١٢١ وابن خلكان ١/ ١٤٨ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص٨٠.

(٣) انظر في المطرزي معجم الأدباء ١٩/ ٢١٢ وإنباه الرواة ٣/ ٣٣٩ وروضات الجنات ص٢٢٣ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ١٩٠ وابن خلكان ٧/ ٣٦٩ وابن قطلوبغا ص٧٩.

اللغة العربية وخصائصها. واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء، وتجرد لذلك أبو أحمد[١] العسكري خال أبي هلال، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب في هذا الموضوع.

ولم يقتصر نشاط اللغويون في إيران على كل ما قدمنا، فقد بذلوا جهوداً خصبة في شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدي لديوان المتنبي وشرح الزوزني المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مراراً ويتداوله الطلاب في الجامعات العربية. واشتهر التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح، تناول في بعضها الشعر القديم وفي بعضها الشعر المولد، وقد تحدثنا عن نشاطه في هذا الاتجاه بين اللغويين في العراق، وشرح الزمخشري بعده لامية العرب للشنفري، وشرح المطرزي خليفته مقامات الحريري.

ونهض اللغويون بمحاولة أخرى هي جمع الأشعار والكلم البليغة، وألفوا في ذلك مصنفات مختلفة، منها ديوان المعاني لأبي هلال العسكري وكتاب نثر الدرر لأبي سعيد منصور بن الحسن الآبي[٢] من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني المذكور آنفاً وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة تابيه الكشكول والمخلاة، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر.

ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة، وكثير منهم لهم كتب نحوية متنوعة غير أننا سنكتفي بذكر الأمهات وأصحابها، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مر ذكره بين اللغويين في العراق، وأهم منه إمام النحاة عامة في القرن الرابع الهجري أبو علي الفارسي[٣] المولود بالقرب من شيراز سنة

---

(١) انظر في أبي أحمد لعسكري ابن خلكان ٢/ ٨٣ ومعجم الأدباء ٨/ ٢٣٣ وإنباه الرواة ١/ ٣١٠ والمنتظم ٧/ ١٩١.

(٢) راجع في أبي الحسن الآبي دمية القصر ١/ ٤٦٧ وتتمة اليتيمة ١/ ١٠٠ ومعجم البلدان في آية من قرى أصبهان.

(٣) انظر في ترجمة أبي علي الفهرست ص١٠١ وإنباه الرواة ١/ ٢٧٣ وطبقات القراء لابن الجزري ١/ ٢٠٦ وتاريخ بغداد ٧/ ٢٧٥ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٣٢ ولسان الميزان ٢/ ١٩٥ وشذرات الذهب ٣/ ٨٨ وابن خلكان ٢/ ٨٠ ونزهة الألباء ص٣١٥ وكتاب د. عبد الفتاح شلبي: أبو علي الفارسي.

٢٨٨ وكان رحلة في تدريسه، فأيام في شيراز وأيام في عسكر مكرم بخوزستان وأيام في كرمان، وأيام أخرى في بغداد أو في حلب أو في الكوفة أو في دمشق، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبية، وهكذا. وبجانب ذلك له كتب مستقلة عُني القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكملة وقد صنفها باسم عضد الدولة. هو أستاذ ابن جني، وفي كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة في الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية، حتى ليخيل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التي سجلها ابن جني في كتبه إنما استمدها من إملاءات أبي علي الفارسي. وهو في آرائه النحوية ينتصر مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين، ومرة ثانية ينتصر للكوفيين، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يسبق إليها، نافذاً بذلك إلى المذهب[1] البغدادي الجديد في النحو الذي كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستي الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة.

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذي مر بنا ذكره، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجي في المنطق، سماها مقدمة في النحو. ومن نحاة إيران في القرن الخامس عبد القاهر الجرجاني وسنفصل الحديث فيه بين البلاغيين، غير أننا نشير إلى أن له كتاباً في النحو سماه العوامل المائة، عُني به الشراح طويلاً.

ويأتي بعده الزمخشري، وله كتب نحوية مختلفة، أشهرها المفصل، وقد جعله في أربعة أقسام: قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة، وقسم للمشترك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام، وقد شُرح هذا الكتاب مراراً، وأهم شروحه شرح ابن يعيش في عشر مجلدات. وهو في الكتاب بغدادي ينتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة، فهو ينتخب آراه من المدارس السابقة عليه، وينفرد بآراء

(١) راجع في ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص٢٤٥ وما بعدها.

جديدة[١]. وتلك هي أصول المذهب البغدادي في النحو الذي استحدثه ابن كيسان والزجاجي وثبته بعدهما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني. ويؤلف المطرزي كتاباً في النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون. وإمام النحاة بعد ذلك في إيران الرضى[٢] الإستراباذي نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالي سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه في إستراباذ من أعمال طبرستان، وقد عُني بعملين لابن الحاجب المصري، هما الكافية في النحو والشافية في الصرف، فشرحهما شرحاً واسعاً ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره، وفي ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية في إيران حتى أواخر القرن السابع الهجري وهو في شرحه للكتابين بغدادي المذهب، فهو ينتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصلاً القول في اختلاف النحاة، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة.

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران، وأول من نقف عندها فيها أبو أحمد العسكري الذي عرضنا له آنفاً، فقد ألف فيها كتاباً في صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكري احتفظ منها بكثير من بحوثها في كتابه الصناعتين، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلاني في كتابه إعجاز[٣] القرآن. وكتاب الصناعتين لأبي هلال مطبوع مراراً، وهو يريد بالصناعتين صناعتي الكتابة والشعر، وقد جعل الكتاب في عشرة[٤] أبواب: باب لموضوع البلاغة وحدودها، وباب ثان لتمييز جيد الكلام من رديئه، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام، وباب رابع لحسن النظم، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب، وباب سادس للسرقات الشعرية، وباب سابع للتشبيه، وباب ثامن للسجع والازدواج، وباب تاسع

(١) انظر في ذلك كتابنا المدارس النحوية ص٢٨٣.

(٢) راجع في الرضا كتابتنا المذكور ص٢٨١.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص١١١ وما بعدها وص٤١٣ وما بعدها.

(٤) راجع في تحليل هذا الكتاب: البلاغة تطور وتاريخ ص١٤٠ وما بعدها.

لفنون البديع وهو أطول الأبواب، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافي ودقة الخروج من النسيب إلى المديح.

وخلف أبا هلال القاضي عبد الجبار[١] قاضي قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥ وقد عرض في موسوعته الكلامية " المغني في أبواب التوحيد والعدل " لإعجاز القرآن في الجزء السادس عشر منها، وأداه الحديث في الإعجاز إلى عرض كلام أبي هاشم الجبائي في أن المدار في الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته. ويأخذ عبد الجبار في توضيح معنى الفصاحة، فيقول- كما قال عبد القاهر الجرجاني من بعده- إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، فالكلمة في نفسها لا تعد فصيحة، بل لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها وحركاتها في الإعراب ومواقعها في التقديم والتأخير. وبذلك يقترب بوضوح من عبد القاهر في تفسيره للنظم في كتابه دلائل الإعجاز، إذ يشير في صراحة إلى الخصائص النحوية وا ترسم من فروق في الكلام، أو بعبارة أدق يريد- كما أراد عبد القاهر- النظام النحوي للكلام. ويمنع عبد الجبار- كما منع عبد القاهر فيما بعد- أن يكون للفظة صفة أدبية في الكلام من حيث هي لفظة مفردة، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها. ويقول عبد الجبار إن حسن النغم وجمال اللفظ لا وزن له في الفصاحة، مع أنهما يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء.

وهذه النظرية[٢] الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجاني[٣] المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا، فبسطها أعظم بسط وفسرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعاني المعروف بين علوم البلاغة العربية، فالأصل

---

(١) انظر في عبد الجبار تاريخ بغداد ١١/ ١١٣ ولسان الميزان ٣/ ٣٨٦ والشذرات ٣/ ٢٠٢ ومرآة الجنان ٣/ ٢٩ وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى ٦٦ وميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٣ والسبكي ٥/ ٩٧ وكتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص١١٤.

(٢) راجع في تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص١١٥ وما بعدها.

(٣) انظر في عبد القاهر إنباه الرواة ٢/ ١٨٨ ودمية القطر ٢/ ١٧ والسبكي ٥/ ١٤٩ وروضات الجنات ١٤٣ وشذرات الذهب ٣/ ٣٤٠ ومرأة الجنان ٣/ ١٠١ وفوات الوفيات ١/ ٦١٢.

من لدن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التي يصورها كتاب دلائل[١] الإعجاز من لدن عبد القاهر. وكما وضع علم المعاني وضع علم البيان وضعاً نهائياً في كتابه[٢] أسرار البلاغة، وضعه بتشبيهاته وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكنية والتمثيلية وبمجازاته اللغوية والعقلية، مع روعة العرض وطرافته، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية، ويخلفه الزمخشري فيطبق في تفسيره الكشاف مباحثه في علمي المعاني والبيان تطبيقاً حياً خصباً مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات[٣] بارعة، سواء في المعاني الإضافية التي يصورها علم المعاني عند عبد القاهر أو في فنون البيان التي يصورها أيضاً عبد القاهر. وعُنى ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفاف وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظير والتقسيم والاستطراد والتجريد.

وتتحول البلاغة بعد الزمخشري وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة، وأهم ن دفَعها نحو هذا الاتجاه عاجلاً الفخر[٤] الرازي المتوفي سنة ٦٠٦ وقد أوغل في دراسة الفلسفة والعلوم الدينية، وطاف بكثير من البلدان الإيانية واستقر بمدينة هراة حتى وافاة أجله وهو يمتاز في تآليفه الكثير بالقدرة على تشعيب الأفكار وتقسيمها وتفريعها، يمده في ذلك عقل متفلسف، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة، وله كتب مختلفة في التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام. ويهمنا كتابه في البلاغة الذي سماه: "كتاب نهاية الإيجاز دراية الإعجاز" وهو يعلن في مقدمته[٥] أنه سينظم ما كتبه عبد القاهر في مصنفية: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وينوه بصنيعه قائلاً. "ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابي التقطت منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعيت الترتيب مع التهذيب، والتحرير في التقرير، وضَبطتُ أوابد الإجمالات في كل باب التفسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات

(١) انظر في عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص١٦٠-١٨٩.

(٢) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ١٩٠-٢١٨.

(٣) راجع في هذه الإضافات الكتاب السالف ص٢١٩-٢٧٠.

(٤) انظر في الخر الرازي ابن خلكان ٤/ ٢٤٨ وطبقات السبكي (طبعة عيسى الحلي) ٨/ ٨١ وطبقات المفسرين ٣٩ والوافي للصفدي ٤/ ٢٤٨ وتاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليبزج) ص٢١٩وابن أبي أصيبعة ص٤٦٢ وشذرات الذهب ٥/ ٢١.

(٥) راجع في تحليل الكتاب مواده كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص٢٧٥.

الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل". وكأنه يعرِّفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط العقلية، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل" وكأنه يعرِّفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد احالتها هيكلاً لا حياة فيه فقد ألقتْ فيها المسوم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة. ولم تنفعه إضافات الزمخشري فقد بثَّ فيها نفس السموم. وبالمثل ما نقله عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفي سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذي وضعه بالفارسية وسماه "حدائق السحر في دقائق الشعر". ما ذكره فيه ن أوان البديع، وأسعفه في هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعر في كتابه من الأدبين الفارسي والعربي. ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازي من الجفاف الشديد.

ويخلفه السكاكي [1] سراج الدين يوسف بن محمد بن علي المولود في خوارزم سنة ٥٥٥ وقد مضى يعبُّ في موطنه من جداول الفلسفة والمنطق، وأكبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها، وذاعت شهرته، فقصده الطلاب، وظل يعلم ويلقي محاضراته إلى أن توفي سنة ٦٢٧. ويشتهر السكاكي بتأليفه في البلاغة كتابه "المفتاح" وقد جعله في ثلاثة أقسام [2]: قسم لعلم الصرف، وقسم ثان لعلم النحو، أما القسم الثالث فقصره على علمي المعاني والبيان، وألحق بهما ذيلاً تناول فيه مبحثاً عن الفصاحة والبلاغة ومبحثاً ثانياً لألوان البديع اللفظية والمعنوية. وقدَّم لعلوم البلاغة بمحبث واسع في علم المنطق، وتلاه بمبحث في علمي العروض والقوافي، وبذلك تضمَّن المفتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي. وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كُتب فيه عن علوم البلاغة ملخصاً، إذا الكتاب أشبه بمتن في كل ما خاض فيه من مباحث، وهو متن استضاء فيه بالفخر الرازي قبله. مع تفوقه عليه في الدقة وضبط

---

(١) انظر في السكاكي معجم الأدباء ٢٠/ ٥٩ والجواهر المضية ٢/ ٢٢٥ والفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي ص٣٠١ وتاج التراجم لابن قطلوبغاً ص٨١ وشذرات الذهب ٥/ ١١٢٥.

(٢) انظر في تحليل المفتاح كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص٢٨٧.

الأقسام، غير أنه يخلو خلوًّا تاماً من تحليلاً عبد القاهر الوزمخشري، ويصبح الكتاب متنا لعلوم البلاغة يُخْصى قوانيها وقواعدها، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس، إذ وُضعت تلك القواعد والقوانين في قوالب منطقية شديدة الجفاف، وهي قوالب يداخلها غير قليل من اللتواء بسبب كثرة التقسيمات، مما جعل الكتاب أو قل المتن في حاجة إلى الشرح والتوضيح، وتوالت الشروح، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي وقد تقدم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم، وشرحه كثيرون من مواطنيه، من أشهرهم سعد [1] الدين مسعود بن عمر التفتازاني المولود في تفتازان شرقي إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقن، وبها توفي سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة في المنطق والنحو. وممن شرح "المفتاح" السيد الشريف [2] الجرجاني المتوفي سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذي مر بنا ذكره، وله أيضاً تأليفات كثيرة في المنطق وقواعد البحث. وصنع الخطيب القزويني خطيب جامع دمشق في سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المتن موجزاً أشد الإيجاز فتصدى له سعد الدين مسعود التفتازاني بالشرح، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجاني يعمل حاشية عليه. ويتوقف عمل علماء البلاغة في إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التي يعودون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وشع الحواشي عليه.

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغة في إيران نشطت المباحث النقدية في هذا العصر، وأول ما يلقانا منها رسالة الصاحب بن عباد في الكشف عن مساوي المتنبي، وهو فيها ساخط عليه سخطاً شديداً، وقد يُرَدّ سخطه إلى عامل شخصي هو أن المتنبي أبى أن يمدحه، وأهم مساوئ المتنبي في رأيه الغموض في أشعاره على طريقة الصوفيين في عباراتهم الموهمة، وأنه استخدم الألفاظ الممعنة في الغرابة، ورداءة المطالع كما يقول، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة، والنظم على القوافي الصعبة. ويلقانا في خراسان

---

(١) راجع في ترجمة السعد التفتازاني روضات الجنات ص٣٠٩ والبدر الطالع للشوكاني ٢/ ٣٠٣ والفوائد البهية ص١٢٨ وحبيب السير لخواندمير ٣/ ٢٣، ٨٧.

(٢) انظر في ترجمة السيد الشريف حبيب السير لخواندمير ٣/ ٣، ٨٧ والبدر الطالع ١/ ٤٨٨ وبغية الوعاة ودائرة المعارف الإسلامية

لعصر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦-٣٨٧هـ). رواية للمتنبي يسمى المتيم [١] وله فيه وفي شعره كتاب الانتصار المنبي عن فضل المتنبي وهو من الكتب المفقودة. وكان المتنبي قد شغل الناس في إيران وغير إيران وأكثروا من التخاصم والجدل في شعره، فألف علي [٢] بن عبد العزيز الجرجاني المتوفي سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه، وكان من قضاة الدولة البويهية في إيران، فرأى أن يعرض شعر المتنبي على موازين القضاء العادل، وهدته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أن ينبغي أن لا يُحْكَم على الشاعر بما أساء فيه، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جوَّد فيه، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والمحدثين في معانيهم وألفاظهم، ليبين أن شاعراً ممتازاً من السابقين لم يَخْلُ شعره من هذه الأغلاط، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره، ويفيض في بيان الحسن والقبيح عند الشعراء وخاصة عند أبي نواس وأبي تمام. ويلمُّ بطائفة من أبيات المتنبي التي أُخذت عليه لبعد في الاستعارة أو غرابة في اللفظ أو تعقيد في الكلام. ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبي قليل. ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تخلصه ومعانيه الدقيقة، ويتحدث عن سرقاته حديثاً مستفيضاً مبيناً أن السرقات شركة بين الشعراء جميعاً. ولعلي بن عبد العزيز في ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلة رائعة، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة في الشعر، ومنها ما يتصل بأثر البيئة في الشعر الشعراء، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات[٣] ويأتي بعده الثعالبي [٤] المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد ف يكتابه اليتيمة فصلاً طويلاً عن المتنبي فيما له وما عليه، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة، وقد استهله بقوله عنه: "نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر" ويبدأ ينبذ عن ابتداء أمر المتنبي، ويورد بعض أخباره، ثم يعرض طائفة من معانيه التي استظهرها عِلْيَة الكتاب في عصره برسائلهم من أمثال الصاحب بن عباد وأبي إسحق

---

(١) انظر في المتيم اليتيمة ٤/ ١٥٧ ومعجم الأدباء ٤/ ٢٤٤ وفورات الوفيات ١/ ١٣٣.

(٢) انظر في تحليل الوساطة كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص١٣٢ وسنترجم للمؤلف بين الشعراء.

(٣)انظر في تحليل الوساطة كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص١٣٢ وسنترجم للمؤلف بين الشعراء.

(٤) راجع في الثعالبي دمية القصر وابن خلكان ٣/ ١٧٨ وعبر الذهبي ٣/ ١٧٢ وشذرات الذهب ٣/ ٢٤٦ ونزهة الألباء ص٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ ومرآة الجنان ٣/ ٥٣ ومعاهد التنصيص ٣/ ٢٦٦.

الصابئ وأبي العباس الضَّبِّي والخُوَارزمي، كما يعرض طائفة من المعاني التي سرقها الشعراء منه من أمثال أبي الفرج الببغاء والمهلبي الوزير والصاحب بن عباد والسَّرِيّ الرفَّاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبي، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمي وأبا الفتح البستي وأبا الحسن السلامي وأبا القاسم الزعفراني، ويعرض لبعض سرقات المتنبي من غيره وما تكرر من معانيه، ثم يسترسل في بيان مساوئ شعره مستضيئاً في ذلك بما كتبه الصاحب بن عباد في رسالته آنفة الذكر، ثم يفيض في بيان محاسن شعره، مشيداً بنسيبه بالأعرابيات، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصديق، واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعاني. وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم [1] عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني عاش في النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس، وقد ألف كتاباً نُشر أخيراً في تونس سماه الواضح في مشكلات شعر المتنبي، ذكر في مقدمته نبذة عن المتنبي عرض فيها لنشأته في الكوفة ولبعض أخباره عن معاصريه من البغداديين والشاميين والشيرازيين، ورماه في هذه المقدمة بخبث الاعتقاد وقال إنه وقع في صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوَّسه وأضلَّه. ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخيل والحرب من خصائصه، وأن له النادَ البِدْع، وفي بعض ألفاظه تعقيد وتعويص. ثم أخذ يناقش ابن جِنِّي في كثير من تفسير شعره مرتباً الأبيات التي ناقشها على الحروف الهجائية، وهو يدل في نقاشه على قدرة في فهم الشعر وتحليل معانيه. وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبي:

أأحبُّه وأحبُّ فيه ملامةً ... إن الملامةَ فيه من أعدائِه

وذكر أن ابن جني زعم أنه ناقض بذلك أبا الشيِّص في قوله:

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حُبًّا لذكرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

---

(١) انظره في خزانة الأدب ١/ ٣٨٢.

ويعلق على ذلك بقوله: معنى المتنبي بخلاف قول أبي الشيص، وإنما يريد المتنبي: إني أحب حبيبي واللوَّام ينهون عنه فكيف نأتلف، وأبو الشيص يريد بقوله: أحب اللوم لا لنهيٍ عن هواك بل لتكرر ذكرك في تضاعيف الكلام وأثناء الملام. ومضى الأصفهاني على هذا النحو يرد على ابن جني بعض تفسيراته لشعر المتنبي حتى نهاية الكتاب. وعُنى بالرد على تفسيرات ابن جني إيرانيٌّ ثان هو أبو علي بن فُورَّجَة [1] البُروجِرْدِيّ المتوفى سنة ٤٧٣ وقد كتب في ذلك كتابين: كتاب الفتح على فتح أبي الفتح لابن جني يقصد كتابه الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجه كتاب ثان في الرد على ابن جني سمّاه كتاب التجني على ابن جني، والأبيات في كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية، وعماده الرد على ابن جني، وفيه أيضاً ردود على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في سواطته وأبي علي الخاتمي في رسالته الحامية والصاحب بن عباد في كشفه عن مساوئ المتنبي، وهو يغلظ- كما لاحظ الدكتور غياض- في ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنياً! وفيه يقول: "ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوي العقول يذم المتنبي غير هذا الظالم". ويبد من ملاحظات ابن فروجة في الكتاب وسَوْقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطَّلع على كثير وسَوْقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطَّلع على كثير من خصائصه، من ذلك ملاحظته على البيت:

وإني لمن قومٍ كأنَّ نفوسنَا ... بها أَنفٌ أن تسكنَ اللَّحْمَ والعظْما

فقد لاحظ أن المتنبي في فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم، وهو ضرب من الالتفات، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما في البيت أو ضمير المخاطب. ثم قال إن ابن جني سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله: "وقد استقريت شعره كله فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به، فإذا

---

(١) انظر في ابن فورجة تتمة اليتيمة ١/ ١٢٣ ومعجم الأدباء ١٨/ ١٨٨ وفوات الوفيات ٢/ ٢٤٧ وإنباه الرواة ١/ ١/ ٣٣٤ وما به من مراجع.

أورد ضميراً في ذمٍّ ردَّه إلى الكلام الأول تفادياً أن يخاطب به مواجهاً أو يرده إلى نفسه مخيراً (أي أنه يرد الضمير إلى الغيبة). ومع أنه يبدو دائماً مدافعاً عن المتنبي وخاصة أما الصاحب كما قدمنا فإنه ينصُّ على بعض سيئاته، فيقول في قصيدته "مُلِتَّ القطر أعطشْها رُبوعاً" هذه القصيدة كلها من الشعر الرَّذْل الذي لا يُنْتَفع به ولا بتفسيره. وحرى بنا أن نذكر تتمة لهذا النشاط النقدي الذي عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبي شرح علي بن أحمد الواحدي الذي مرّ ذكره[1] لديوان المتنبي، وقد أُلِّفت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخياً على حياة المتنبي وأيامه، وهو مالم يتح لديوان آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة، بحيث أصبح الديوان مُعَدًّ لكي يستغله الباحثون في كتابة ترجمة حياة المتنبي على نحو ما صنع بلا شيروطه حسين. وفي الشرح نظرات نقدية كثيرة، وخاصة في الأبيات الغامضة التي يختلف فيها الشراح، فإن الواحدي يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبي جيد.

(١) راجع في الواحدى دمية القصر ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٥٧ وإنباه الرواة ٢/ ٢٢٣ والسبكي ٥/ ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣/ ٣٣٠ وابن خلكان ٣/ ٣٠٣.

openkandil.com

٤

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران في تفسير القرآن الكريم، واتضحت فيه اتجاهات ثلاثة: اتجاه التفسير بالرأي، واتجاه شيعي، واتجاه صوفي، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشري، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالي فالآيات الكريمة توجَّه مع فكرة الحرية والاختيار في أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد في السحر والكهانة [١]. ويقف الفخر الرازي المار ذكره آنفاً بعده في الصف المقابل فيدفع في تفسيره العظيم للقرآن "مفاتيح الغيب" آراء المعتزلة بطريقة فلسفية، إذ ك ان عقله متفلسفاً إلى أبعد حد، وهي فلسفة تظهر في تفسيره بصور كثيرة، حين يخوض في المباحث العقلية، وحين نرى المألة عنده تتشعب شعباً كثيرة. وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة، تتفرع منها فروع، وتتفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية. وكان أشعري العقيدة، فأشاع مذهب الأشاعرة في تفسيره، وتعقب المعتزلة كما قلنا مُعْلياً عليهم وعلى أفكارهم مذهبه الأشعري المسُّنِّي. ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازي تفسير البيضاوي [٢] عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" وهو يعتمد فيه على الزمخشري وتفسيره، كما يعتمد على الرازي وغيره ن المفسرين، وهو لا يُنْحى في تفسيره باللائمة- كما يصنع الزمخشري- على أهل السنة، وجاء بعده في هذا الاتجاه أبو البركات النسفي[٣] المذكور بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد سمى تفسيره "مدارك التنزيل وحقائق التأويل".

---

(١) انظر تأثر الزمخشري بالاعتزال في تفسيره كتاب المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن لجولد تسيهر ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.

(٢) راجع في البيضاوي السبكي ٨/ ١٥٧ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٥/ ٣٩٢ ومرآة الجنان ٤/ ٢٢٠.

(٣) انظر في النسغيّ الدرر الكامنة ٢/ ٣٥٢ وتاج التراجم رقم ٨٦ واللكنوي ١٠١ ودائرة المعارف الإسلامية.

وهذا الاتجاه في التفسير كان يرافقه اتجاه شيعي في بيات الشيعة المختلفة بإيران، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن علي العسكري المتوفي سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم، ومن مفسريهم في أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السُّلمى رأس الإمامية بخراسان، ومن أشهر تفاسيرهم في هذا العصر تفسير الطوسي أبي جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ في طوس، ثم رحل إلى العراق في الثالثة والعشرين من عمره، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتياها ومن أجل ذلك وضعناه في القسم الخاص بالعراق. ونلتقي بتفسير الطبري [١] أبي علي الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسي نسبة إلى طبرستان، وقد سمى تفسيره مجمع البيان. وهو في ثلاثين مجلداً.

أما الاتجاه الصوفي فمن التفاسير فيه تفسير أبي عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة ٤١٢ وسماه "حقائق التفسير" وأهم منه تفسير القشيري الذي مر ذكره في حديثنا عن التصوف، وهو في تفسيره كعقيدته صوفي سني، بعيد عن متاهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلجُّ فيه بعض متفلسفة الصوفية، وتغلب عليه روح الوعظ، ومثله في هذا الاتجاه الغزالي في بعض ما يعرض له من آي الذكر الحكيم، ولأخيه أبي الفتح أحمد بن محمد الغَزَّالي الواعظ المذكور بين المفسرين في العراق، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف، لا يزال مخطوطاً.

ومن التفاسير العامة تفسير أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفي سنة ٣٧٣ وسماه "بحر العلوم" وتفسير الثعلبي [٢] النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدي المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبي ثلاثة تفاسير: البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب "أسباب النزول" واختصر الفرَّاء البغوي الحسين بن مسعود المتوفي سنة ٥١٠ تفسير الثعلبي وسَمّى مختصره "معالم

---

(١) انظر في الطبرسي روضات الجنات ص٥١٢ ومقدمة تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع.

(٢) راجع في الثعلبي معجم الأدباء ٥/ ٣٦ وطبقات المفسرين ص٥ وطبقات القراء ١/ ١٠٠ وابن خلكان ١/ ٧٩ وإنباه ١/ ١١٩ وروضات الجنات ٦٨ والسبكي ٤/ ٥٨ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٨٣.

التنزيل". ولنظام [١] الدين بن الحسن النيسابوري المتوفى في أواسط القرن التاسع الهجري تفسير سماه "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازي ويهتم فيه بذكر القراءات.

وظل علم الحديث ناهضاً في إيران لهذا العصر، ومرَّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني ما يصور مدى نهضته في هذا الإقليم، فقد كان من إنتاجه صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي وابن ماجه القزويني وجامع الترمذي، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبي داود السجستاني، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوي من صُنْع إيرانيين. ومضى هذا النشاط يؤتي ثماراً جديدة في القرون التالية. وأول من نلقاه من كبار المحدثين في العصر محمد [٢] بن أحمد بن حِبّان البُسْتي السجستاني قاضي سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه "الجرح والتعديل" في نقد حملة الحديث وروائته، وكان يُمْلي مصنفاته في الحديث وتُقْرأ عليه أو تؤخذ عنه. وكان يعاصره ابن القطان [٣] الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل في الجرح والتعديل أو كتاب الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين. وخلفهما ابن مَنْده [٤] الأصبهاني محمد بن إسحق المتوفي سنة٣٩٥ وقد رحل طويلاً في طلب الحديث وله مسند أبي حنيفة وكتب في الحديث مختلفة. وكان يعاصره أبو سليمان حمد [٥] بن محمد الخطَّابي البُسْتي المتوفى سنة ٣٨٦ وألف في نقد لحديث كتباً منها إصلاح غلط المحدثين، وله شرح على صحيح البخاري، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي: الصحيح والحسن والضعيف. وعاصره الحاكم

---

(١) انظره في روضات الجنات ص٢٢٥.

(٢) انظر في ابن حبان الأنساب ٨١ والوافي بالوفيات ٢/ ٣١٧ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٢٥ والسبكي ٣/ ١٣١ وميزان الاعتدال ٣/ ٥٠٧ وشذرات الذهب ٣/ ١٦ ولسان الميزان ٥/ ١١٢.

(٣) راجع في ابن القطان تذكرة الحفاظ ٣/ ١٤٣ وميزان الاعتدال ١/ ٢ ولسان الميزان لابن حجر ١/ ٦ وشذرات الذهب ٣/ ٥١.

(٤) راجع في ابن منده أخبار أصبهاني لأبي نعم ٢/ ٣٠٦ وتذكرة الحفاظ ٣/ ٣٣٨ ولسان الميزان ٥/ ٧٠.

(٥) وابن خلكان انظر في الخطابي السبكي ٣/ ٢٨٢ وإنباه الرواة ١/ ١٢٥ والأنساب ٨٠ب ٢٠٢ب ومعجم الأدباء ١٠/ ٢٦٨ وابن خلكان ٢/ ٢١٤ وتذكرة الحفاظ ويتيمة الدهر ٤/ ٣٣٤.

النيسابوري [١] المعروف باسم ابن البَيِّع المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذي جعل أصول الحديث النبوي علماً مستقلاً، وكان بنو سامان أصحاب بخاري يوفدونه في سفاراتهم إلى بني بويه، وله كتاب المستدرك على الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم، جمع فيه كثيراً من الأحاديث التي لم يُدْخلاها في صحيحيهما مستدلاً ببراهين قوية على أنها مستكملة لشروطهما، والكتاب مطبوع في حيدر آباد، مع تعليقات في الرد على مؤلفه للذهبي. وكان يعاصره ابن فُوّرك [٢] محمد بن الحسن الأصبهاني محدث نيسابور ونزيل غَزْنه المتوفى بها سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكرامية وله كتب كثيرة في الحديث والفقه الحنفي، منها بيان مشكل الحديث، ورد على المحدة والمعطلة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة، وكتب مصنفات أخرى في نفس الموضوع رداً على المشبهة والمجسِّمة. ومن كبار المحدثين التالين أبو إسحق الإسفرايني المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة "حلية الأولياء" والبيْهقي [٣] أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور، وبها كان يملي كتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير، وكتاب معرفة الآثار. وازدهرت دراسات الحديث في عصر السلاجقة ازدهاراً عظيماً، كان من ثمارها ظهور الفراء البغوي [٤] المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة في الحديث والفقه الشافعي وتفسير القرآن الكريم، وأهمها كتابه المصابيح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوبه وقسم الأحاديث في كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيحي البخاري ومسلم إلى حسنة، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه. وجاء بعده في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي فرتبه ترتيباً جديداً وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح،

---

(١) راجع في الحاكم النيسابوري الأنساب ٩٩ب والسبكي ٤/ ١٥٥ وتذكرة الحفاظ ٣/ ٢٢٧ وطبقات القراء ٢/ ١٨٤ ولسان الميزان ٥/ ٢٣٢ والمنتظم ٧/ ٢٧٤ وتاريخ بغداد ٥/ ٤٧٣ واللباب ٢/ ٩٥ وابن خلكان ٤/ ٢٨٠.

(٢) انظر في ابن فورك السبكي ٤/ ١٢٧ والوفي ٢/ ٣٤٤ وابن خلكان ٤/ ٢٧٢ والشذرات ٣/ ١٨١ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٠.

(٣) راجع في البيهقي تذكرة الحفاظ ٣/ ٣٠٩ واللباب ١/ ١٦٥ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١/ ٧٥ والسبكي ٤/ ٨.

(٤) انظر في البغوي السبكي ٧/ ٧٥ وابن خلكان ٢/ ١٣٦ وتهذيب ابن عساكر ٤/ ٣٤٥ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٥٧ وشذرات الذهب ٤/ ٤٨ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٣.

وألف بجانب المشكاة كتاباً في رجالها سماه أسماء المشكاة، وهو تراجم للرواة المذكورين في المشكاة أتمه سنة ٧٤٠. وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران في القرون التالية.

ولم يكن النشاط في علم الفقه أقل منه في علم الحديث، بل ربما كان أوسع وأعظم، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل، ولم يكن المذهب الحنبلي شائعاً في إيران ولا في أي إقليم من أقاليمها، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة في هرة وهمذان[1] من مثل أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري صاحب كتاب ذم (علم) الكلام، وكان محدثاً يتظاهر بالتجسيم والتشبيه، وينال من الأشاعرة[2] وربما كان المذهب المالكي أقل إتباعاً حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوي الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وكان شافعياً كان ينزل الري، فصار مالكياً، كما يقول ياقوت في ترجمته بمعجم الأدباء، فسئل في ذلك، فقال: دخلتي الحمية لهذه البلدة، يقصد مدينة الري، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة، وكان مذهب داود الظهري أكثر إتباعاً في إيران أثناء القرن الرابع، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين. مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة.

وكان لمذهب الشافعي الغلبة وخاصة في شرقي إيران وما وراء النهر، ويقال إن الفقيه أبا بكر[3] القفال المعروف بالشاشي والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذي نشر مذهب الشافعي في تلك الأصقاع، ويذكر المقدسي أنه كان غالباً أيضاً في كرمان[4]، وعملت مؤثرات سياسية في نشره بل في ازدهاره لعهد السلاجقة، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعياً أشعرياً عدواً للحشاشين الإسماعيلية، فأسس، كما مر بنا، مدارس في جميع المدن الإيرانية

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ١٧٩، ٣٩٥، ٤٣٩، ٤٨١.

(٢) السبكي ٤/ ٢٧٢.

(٣) انظر في ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٣/ ٤٦ وعبر الذهبي ٢/ ٣٣٨ والوافي ٤/ ١١٢ وشذرات الذهب ٣/ ٢٠٧ والسبكي ٣/ ٢٠٠.

(٤) المقدسي ص٤٦٨.

الكبيرة سنة ٤٥٧، ورصد لها مبالغ طائلة، لإلحاق مكتبات بها ولمساكن الأساتذة ورواتبهم، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة في عصره، وظل ذلك من بعده. فكان طبيعياً أن يزدهر المذهب الشافعي في إيران ازدهاراً عظيماً وأن يتألق في دراساته الفقهية فقهاء كثيرون، يعدون في الذروة من الإمامة والقدرة على الفُتْيا، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد في الفروع، لتطوروا بالفقه الشافعي تطوراً عظيماً. ومن أهم من نلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو[1] إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعي بنظامية بغداد كما مر في قسم العراق، وكان يقابه في نظامية نيسابور إمام الحرمين الجويني[2] عبد الملك أبو المعالي إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨. وقلنا في غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعمائة تلميذ، ورزق من التوسع في العبارة وعلوها ما لم يعهد من غيره، وله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور، وظل فيها ثلاثين سنة يلقي محاضراته، وسلم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية في الفقه الشافعي والشامل؛ والبرهان في أصول الفقه. ومن تلاميذه الغزالي وأجل تلاميذه بعده إلكيا الهراسي[3] علي بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته. وكان يعاصره أبو المحاسن الروياني[4] عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيداً على أيدي الباطنية الملاحدة، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب

---

(١) انظر في ترجمة أبي إسحق الشيرازي السبكي ٤/ ٢١٥ والمنتظم ٩/ ٧ واللباب ٢/ ٢٣٢ والأنساب ٤٣٥ب وشذرات الذهب ٣/ ٣٤٩ وابن خلكان ١/ ٢٩.

(٢) راجع في الجويبي الأنساب الورقة ١٤٤ والمنتظم ٩/ ١٨ وابن خلكان ٣/ ١٦٧ والسبكي ٥/ ١٦٥ والعقد الثمين ٥/ ٥٠٧ وشذرات الذهب ٣/ ٣٥٨.

(٣) مرت مصادر ترجمته بين المفسرين في العراق.

(٤) انظر في الروياني كتاب الأنساب ٢٦٣أ والمنتظم ٩/ ١٦٠ وابن خلكان ٣/ ١٩٨ والسبكي ٧/ ١٩٣ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٩٧.

البحر في الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافي، وصنف في الأصول والخلاف. ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن السادس فخر الدين الرازي محمد بن عمر الطبرستاني الأصل الرازي المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له في البلاغة، وله كتب كثيرة في علم الكلام وفي الحكمة وفي الطب، يقول ابن خلكان: " انتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين، وله في الفقه وأصوله كتب مختلفة، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربي والفارسي، ونزل بأخرة من عمره في هراة. وبها توفي، وله مواعظ طريفة. وكان قريباً من عصره الرافعي[1] المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً في التفسير والحديث والأصول، أما الفقه فكان فيه- كما يقول السبكي- عمدة المحققين وأستاذ المصنفين، وهو قزويني، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه، وله الشرح الصغير والمحرر وشرح مسند الشافعي والشرح الكبير المسمى بالعزيز في شرح كتاب الوجيز للغزالي، واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي وحواشيه التي ألفت بعده في مصر وغير مصر.

وكان مركز المذهب الحنفي مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البهية للكنوي والجواهر المضية لابن أبي الوفاء وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا، ومن مشاهيرهم في القرن الرابع أبو بكر أحمد بن علي الجصاص الرازي الذي سبق ذكره في قسم العراق ومثله مر هناك أبو زيد الدبوسي البخاري المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية، وله تقويم الأدلة في أصول الفقه. ومنهم البزدوي[2] علي بن محمد بن عبد الكريم السمرقندي المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط في الفقه وكتبه مختلفة في علم الأصول والتفسير. ومنهم السرخسي[3] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماماً علامة متكلماً

---

(١) انظر في الرافعي تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٦٤ وشذرات الذهب ٥/ ١٠٨ وفوات الوفيات ٢/ ٧ والسبكي ٨/ ٢٨١ ومرآة الجنان ٤/ ٥٦.

(٢) انظر البزدوي في الفوائد البهية (طبعة القاهرة) ص١٢٤ والجواهر المضية وابن قطلوبغا ص٤١ والأنساب ٧٨.

(٣) راجع في السرخسي الجواهر المضية والفوائد البهية ص١٥٨ وابن قطلوبغا رقم ١٥٧.

مناظراً أصولياً مجتهداً وله كتاب المبسوط في أحد عشر مجلداً، وهو أشبه بدائرة معارف في الفقه الحنفي، ومنهم برهان[١] الدين أبو الحسن الفرغاني المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداي شرح البداية في مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفي، وعليه حواشٍ عدة. ومنهم العميدي[٢] السمرقندي أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦١٥ كان إماماً في فن الخلاف، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدي الفقها، ومن مصنفاته الإرشاد، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن. ومنهم حافظ الدين النسفي المذكور بين المفسرين والذي مر ذكره بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذي يتداوله علماء المذهب الحنفي والذي سماه كنز الدقائق، وله طبعات كثيرة في الهند ومصر، وعني به كثيرون فشرحوه، ويكثر الشراح للكتب في القرون التالية. ولابد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا في علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافاً ولهم مشاركة في تأليف مصنفات الفقه الحنفي مثل الزمخشري وناصر المطرزي ونصير الدين الطوسي.

وكان للشيعة بإيران فقهاؤهم، ونذكر للزيدية منهم الإمام الهاروني [٣] أحمد بن الحسين البطحاني المتوفى سنة ٤١١ وكان إماماً للزيدية بجيلان وبلاد الديلم. وقد أخذ المذهب الزيدي في التضاؤل أمام المذهب الإمامي الاثنى عشري حتى انحسر عن إيران، وتبعه المذهب الإسماعيلي، وخاصة بعض القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية في منتصف القرن السابع الهجري قضاء نهائياً، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلي كانوا يتركون- في عهد الدولة الفاطمية- موطنهم في إيران وينزلون القاهرة وتذيع منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن ينسبوا إلى موطنهم الجديد، على نحو ما صنع حميد الدين الكرماني المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى حوالي سنة ٤٧٠. أما المذهب الإمامي فهو الذي كتب له أن يذيع وينتشر في إيران، حتى إذا كانت الدولة الصفوية

---

(١) انظر في الفرغاني الفوائد البهية ص٤١ والجواهر المضية ١/ ٣٨٣ وابن قطلوبغا ص٤٢ وبروكلمان ٦/ ٣٠٩.

(٢) راجع ترجمة العميدي في الفوائد البهية والجواهر المضية ٢/ ١٢٨ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٤/ ٢٥٧ والوافي ١/ ٢٨٠ والشذرات ٥/ ٦٤.

(٣) انظره في بروكلمان (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ٣/ ٣٣٣

جعلته المذهب الرسمي للدولة، ومن فقهائه المبكرين الذين عملوا على تأسيسه في إيران أبو جعفر القمي المتوفى سنة ٢٩٠ والكليني الرازي المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتابه الكافي أهمية كبيرة، ويعد- كما مر بنا في قسم العراق- رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده. وأشهر فقهاء الإمامية في أوائل هذا العصر: عصر الدول والإمارات ابن بابويه القمي نزيل بغداد المذكور في قسم العراق والمتوفى بالري سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مر بنا رئيس الشيعة في مدينة قُم مركز المذهب الإمامي، وبابن بابويه استعان ركن الدولة بن بويه في استخدام تعاليم الإمامية في تدبير سياسته، وفي ذلك دليل يضم إلى ما قدمناه من أدلة في غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية. ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأمالي واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وقد تحدثنا عنه في القسم الثاني الخاص بالعراق.

ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم، ومن أهم رجالهم القاضي عبد الجبار قاضي قضاة البويهيين في الري المار ذكره في المباحث البلاغية، وله كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل، وهو دائرة معارف واسعة في الاعتزال وأصوله، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه. ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشري ومر بنا أنه أخذ نفسه في تفسيره بتوجيه آي الذكر الحكيم توجيهاً اعتزالياً، أساسه تأويل كل الآيات التي قد يفيد ظاهرها تشبيهاً، وكذلك توجيه الأخرى التي قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة في أفعال العباد. وقد عُني الشيعة دائماً بالاعتزال وعدوه مؤيداً لهم في دعواتهم الشيعية، ولعل ذلك ما ساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجري، ولكن على كل حال ضعف شأنه. ومنذ أحمد بن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهل السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة، حتى ليصمونهم بالإلحاد أحياناً. ولا نصل إلى أوائل القرن الرابع الهجري

حتى ينفصل- كما مر بنا في العصر العباسي الثاني- أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة، وكان قد تتلمذ لهم، ويكون لنفسه مذهباً جديداً يسمى المذهب الأشعري، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة، وكان المعتزلة يقدمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوي. وبذلك أصبحت كل مسألة تقرن فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن والسنة، ونضرب لذلك مثلاً تنزيه الله عن التشبيه الذي كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به، كما أخذ يقول أهل السنة في أن الله يُرَى بالأبصار يوم القيامة، واستدل على ذلك بأدلة سمعية في كتابه الإبانة وبأدلة عقلية في كتابه اللمع. وكان المعتزلة يحتكمون دائماً في الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة. وتوسط بين المحدثين والمعتزلة في فكرة خلق الإنسان لأفعاله، فقال إن هذه الأفعال لله صنعاً وللإنسان كسباً وإرادة، فالإنسان يريدها والله يخلقها. وقال، في مسألة خلق القرآن التي أحدثت فتنة بين المحدثين والمعتزلة في زمن المأمول والمعتصم والواثق، إن الألفاظ المنزلة بالوحي دلالات على الكلام الأزلي والدلالة مخلقة محدثة، وقال إن صفات الله ليست هي عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولا هي أحوال كما قال أبو هاشم الجبائي المعتزلي وإنما هي زائدة على الذات قائمة بها.

وإنما أطلنا في الحديث عن مذهب الأشعري لأنه المذهب الذي ساد طوال هذا العصر في أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية، وكان المذهب الشافعي- كما مر بنا- منتشراً في شرقي إيران، وكان أصحابه جميعاً أشاعرة، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامي وبالمثل لقرينه المذهب الشافعي كراسي في جميع المدارس التي أنشأها- كما مر بنا- في إيران والعراق، فازدهر المذهب ازدهاراً عظيماً، وانتصر فعلاً على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعاً، إذ أصبح المذهب الرسمي آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجويني الذي ذكرناه بين الفقهاء، وكان أعلم أهل زمانه بعلمي الكلام والفقه الشافعي وبُنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا، ونرى الشهرستاني يشرح على لسانه رأيه المتوسط في أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول: إن نفي هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يأباه العقل

والحسن، وأيضاً إثبات قدرة لا أثر لها بوجه كنفي القدرة ألاً.. فلابد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحسن من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجوده إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغني على الإطلاق، فإن كل سبب مهما استغنى من وجه محتاج من وجه، والبارئ تعالى هو الغني المطلق الذي لا حاجة له[1]. وخلف الجويني تلميذه الغزالي، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر.

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا في إيران وغير إيران، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على مذهب الأشعري مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لَعَلم من أعلامهم، وهو مذهب الماتريدي [2] محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التي توجبه هي العقل، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هي الشرع الذي يحتم علينا الإيمان بالله، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة، ولن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه. ومثلاً في مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية، وقال الأشعري إنها زائدة على الذات قائمة بها، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزلي. وبينما كان المذهب

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني (طبعة مصطفى البابي الحلبي وتحقيق الكيلاني) ١/ ٩٨.

(٢) انظر في ترجمة المتاريدي الأنساب للسمعاني ٤٩٨ والفوائد البيهية ص٩٥ والجواهر المضية لابن أبي الوفا ٢/ ١٣٠ وابن قطلوبغا ص٥٩ وشرح الإحياء للزبيدي ٢/ ١٥ ونشر له الدكتور فتح الله خليف كتاب التوحيد الذي يصور مذهبه الكلامي، وهو كتاب نفيس.

الأشعري يسود في نيسابور كان المذهب الماتريدي يسود في بخاري وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفي في الفقه. وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعري، ومعروف أنهم كانو يَغْلُون في التشبيه. وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعري، الأشعري تعلو حتى في بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة في عهد وزيرهم نظام الملك. وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر، حتى في نيسابور فسها وحتى منذ عهد نظام الملك. وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر، حتى في نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قل قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندري حسَّن لسلطانه طُغْرُلْبك السلجوقي أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزلهم عن الخاطبة، ونشبت بذلك فتنة [1] في نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة، ولم يلبث الوزير أن قتل وخلفه نظام الملك فازدهرت المذهب الأشعري منذ هذا الحين كما ذكرنا.

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية في الأخذ بفكرة التأويل المجازي للآيات والأحاديث التي قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية، دون إثباتها، ومعروف أن الأشعري كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما في قوله تعالى (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) إن ذلك يُفْهَمُ ولكن بلا كيف، حتى لا يأخذ بكفرة التشبيه والتمثيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق، بينما توسط الأشعرية، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة، فهي ليست كلام الله ولكنها تبليغ له. وأيضاً توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان. وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة والحنابلة والأشاعرة، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية، وكاد يختفي في القرون المتأخرة أنصار الاعتزال، وأُلِّفت في ذلك كله كتب كثيرة، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك، وتارة تحكي جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهر ستاني المؤلف في القرن

(١) راجع في هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٣٨٩ وترجمات عبد الكريم القشيري والجوبتي وأبي سهل بن الموفق.

السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين [1] الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني وغيرهما، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه.

obeikandl.com

(١) انظر في عضد الدين السبكي ١٠/ ٤٦ والدرر لابن حجر ٢/ ٤٢٩ والبدر الطالع ١/ ٣٢٦ والشذرات ٦/ ١٧٤ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٢٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع

٥

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية في إيران كما تنوعت في كل بلد عربي، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول، وهناك المؤرخون للمدن، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة. ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن أكبر مؤرخي الأمم والدول في الإسلام كان مؤرخاً إيرانياً هو الطبري المتوفى سنة ٣١٠ وأول من يلقانا في هذا العصر من هؤلاء المرخين المطهر [١] بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانياً كما يشهد اسمه، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ في مدينة بُست شرقي إيران، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان. وبه كثير من الأخبار التاريخية، وكان يعاصره مؤرخ إيراني هو حمزة الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٠ ومر بنا حديث عنه في عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية، وله تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام. وبلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه "تجارب الأمم" وقد ترجمنا له في القسم الثاني الخاص بالعراق.

وكان في عصره المرعشي المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوي كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم، عُنى فيه بِسِيَرِ ملوك الفرس، ومضى فيه حتى عصره ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتبا "الآثار الباقية من القرون الخالية" للبيروني كما مر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عشرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والنزعات الدينية، وكان حرَّ الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيَّف العرب في أحكامه، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية. وهو يدعو في هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المغرقة في القدم لما يشوبها من أساطير. ويفوق هذا الكتاب في التاريخ العام أهمية كتابه تحقيق ما للهند من مقولة الذي سبق أن تحدثنا عنه والذي يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها

---

(١) انظره في بروكلمان ٣/ ٦٢.

وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبها. وكان يعاصره العُتْبى [١] محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذي ألفه في الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمد الغزنوي وقد فصَّل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سُبُكْتِكين وحروبهما، وخاصة حروب محمود في الهند، وسماه اليميني نسبة إلى لقبه: يمين الدولة الذي منحه له الخليفة تكريماً، وألفه في لغة مسجوعة منمقة، حتى عدَّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم "الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي". وعُني محمد بن حسين البيهقي المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين، غير أن الكتاب فُقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودي، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثاً إلى العربية وطبع في مصر باسم تاريخ البيهقي. وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتاباً في تاريخ الدولة السلجوقية، وعليه اعتمد العماد [٢] الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ في كتابه عن السلاجقة الذي سماه "نُصْرة الفِطْرة وعصرة القَطرة". ويدخل في هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلطاطين كتاب ابن عَرَبْشاه [٣] المتوفى سنة ٨٥٤: "عجائب المقدور في نوائب تيمور" وهو تاريخ مفصل لتيمور لنك طبع مراراً بمصر وفي أوربا، وحقاً ابن عربشاه ولد في دمشق، غير أنه رحل عنها إلى بالد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول في التكستان، وتلقى العلم على الشيوخ هناك، فمر باه بإيران، وتولى ديوان الإنشاء هناك، وكانت تصدر عنه الرسائل بالعربية والفراسية والتركية.

وللمؤخين في إيران كتب كثيرة خصُّوا بها البلدان عراضين علماءها عرضاً واسعاً، فهي من جهة تاريخ علمي لبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمي لعملائها النابهين، ومن

---

(١) انظر مصادر ترجمة العتبي في الفصل الأخير من هذا القسم.

(٢) راجع في العماد معجم الأدباء ١٨/ ١١ والشذرات ٤/ ٣٣٢ وابن خلكان ٥/ ١٤٧ وذيل الروضتين لأبي شامة ص٢٧ والوافي ١/ ١٣٣ والسبكي ٦/ ١٧٨.

(٣) انظر في ابن عربشاه الضوء اللامع ٢/ ١٢٦ والشذرات ٧/ ٢٨٠ والبدر الطالع ١/ ١٠٩.

السابقين إلى صنع ذلك في العصر العباسي الثاني ابن منده محمد [١] بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١، فله تاريخ أصبهان، ومن أوائل ما يلقانا في هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول والإمارات كتبا تاريخ بخاري حتى سنة ٣٣١ لأبي بكر محمد بن جعفر الترشخي المتوفى سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر الساماني، واختصره بعد محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤ وأكمله مؤلف مجهول إلى عهد المغول، ونشره شيفر في باريس، وجاء بعد الترشخي الحاكم النيابوري الذي مر بنا ذكره بين الحدِّثين، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ علماء نيسابور، ويقول السبكي في طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد. ويؤلف الحسن [٢] بن محمد القمى المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم: مدينة الشيعة، باسم الصاحب بن عباد، وهو مطبوع في طهران. ويؤلف أبو نعيم [٣] المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ أصبهان ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه. ومن كتب القرن الخامس تاريخ الريّ لأبي سعد الآبي صاحب نثر الدرر الذي عرضنا له في غير هذا الموضع. ونلتقي في القرن السادس بتاريخ مرو للسمعاني [٤] المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسبا وأَبَيوَرْد الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥.

وعُنيت طائفة كبيرة من المؤخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم، ومنها العامة، ومنها الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين، ونذكر في مقدمة تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن [٥] السُّلَمى النيسابوري المذكور بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدِّم معلومات دقيقة في عبارات موجزة عن الصوفي الذي يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار. وأوسع منه

---

(١) ابن خلكان ٤/ ٢٨٩ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ والشذرات ٢/ ٢٣٤.

(٢) انظر في القمى بروكلمان (الترجمة العربية) ٣/ ٢٩.

(٣) انظر في أبي نعيم السبكي ٤/ ١٨ وتذكرة الحفاظ ٣/ ٢٧٥ وشذرات الذهب ٣/ ٢٤٥ والمنتظم ٨/ ١٠٠ وميزان الاعتدال ١/ ١١١ وطبقات القراء ١/ ٧١ وابن خلكان ١/ ٩١ والعبر ٣/ ١٧٠.

(٤) راجع في السمعاني المنتظم ١٠/ ١٠/ ٢٢٤ وابن خلكان ٣/ ٢٠٩ وشذرات الذهب ٤/ ٢٠٥ ومرآه الجنان ٤/ ٣٧١ والسبكي ٧/ ١٨٠ وتذكرة الحفاظ للهبي ٤/ ١٣١٦.

(٥) انظر في السلمى السبكي ٤/ ١٤٣ وتاريخ بغداد ٢/ ٢٤٨ واللباب ١/ ٥٥٤ والمنتظم ٨/ ٦ وتذكرة الحفاظ وشذرات الذهب ٣/ ١٩٦ وميزان الاعتدال ٣/ ٥٢٣

في طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبي نُعَيْم صاحب تاريخ أصبهان الذي ذكرناه آنفاً، وترجماته أوسع وأخصب. ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي [1] المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمى تتمة صوان الحكمة، ونشر في مصر بالاسم الأول وفي لاهور بالاسم الثاني.

وأهم كتب التراجم التي عنيت بالشعراء كتاب الأغاني لأبي الفرج [2] الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع في نحو ٢٥ مجلداً، ترجم فيه أبو الفرج للنابهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام، ولم يترجم لأنبه الشعراء فحسب، بل ترجم أيضاً لأنبه المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجري. وعادة يذكر صوتاً أو كما نقول الآن أغنية، ولذلك سماه الأغاني، ويتلو الأغنية دائماً برقيمها الموسيقى قائلاً مثلاً إنها من الثقيل الأولى ونحو ذلك، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها، ويترجم إما للشاعر وإما للمغني أو المغنية ترجمة مفصلة، قد تمتد أحياناً إلى مائة صفحة، وقد تزيد كثيراً، وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه، مورداً ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف، يعرف كيف يروى وكيف يقص وكيف يسوقالأخبار سوقاً مشوقاً، وفي أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء، ويخيل إليك أحياناً أنك تراهم في قصورهم وفي مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون، رؤية مجسمة، تجعل الماضي أمامك حاضراً بحذافيره.

ويُعنَى الثعالبي بعده بعمل موسوعته الشعرية التي أشرنا إليها والتي سماها اليتيمة أو "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" وهي تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من

---

(١) راجع في البيهقي معجم الأدباء ١٣/ ٢١٩.

(٢) انظر في أبي الفرج تاريخ بغداد ١١/ ٣٩٨ وتاريخ أصبهان لأبي نعيم ٢/ ١١ والمنتظم ٧/ ٤٠ ومعجم الأدباء ١٣/ ٩٤ وإنباه الرواة ٢/ ٢٥١ وابن خلكان ٣/ ٣٠٧ وعبر الذهبي ٢/ ٣٠٥ وميزان الاعتدال ٣/ ١٢٣ ولسان الميزان ٤/ ٢٢١ ومرآة الجنان ٢/ ٣٥٩ والشذرات ٣/ ١٩ والنجوم الزاهرة ٤/ ١٥ وروضات الجنات ٤٨٧.

الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفذاذ ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر، فبعض الشعراء النابهين المقيمين ببخاري وبغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور. وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس، ويقول في مقدمته إنه أورد فيه لب اللب، وحبة القلب، وناظر العين، ونكتة الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفص، مع كلام في الإشارة إلى النظائر والأحاسن والسرقات، غير أنه عُني بأشعار الشعراء، والاختيار منها، ولم يُعن، مثل أبي الفرج في كتابه الأغاني، عناية واسعة بأخبار الشعراء إلا قليلاً جداً لا يكاد يشفى غلة. وأتبع الثعالبي اليتيمة بذيل لها سماه "تتمة اليتيمة" وزع فيه الشعراء على نفس الأقسام التي ذكرها في اليتيمة، وبينما تقع اليتيمة في أربع مجلدات كبار تقع التتمة في جزءين، وهي مطبوعة في طهران. والتتمة واليتيمة تؤرخان لشعراء الدولتين البويهية والسامانية وكذلك لشعراء الزياريين في طبرستان والغزنويين في غزنة. ويليهما كتاب " دمية القصر وعصرة أهل العصر " للباخرزي على بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٧ وهو يؤرخ لشعراء زمنه، ويجري على نفس نظام اليتيمة، فيؤرخ لشعراء العالم العربي، ويُعنَى خاصة بشعراء إيران وأقاليمها كما عُني الثعالبي. وقد سار على غراره في العناية بشعر الشعراء أكثر من أخبارهم، وكأن الثعالبي هو المسئول عن هذا الاتجاه في الترجمة للشعراء، إذ عم وشاع لا في إيران وحدها بل في أقطار العالم العربي جميعها. ويأتي بعد الباخرزي في الأهمية كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهاني الذي سبق أن ذكرناه بين المؤرخين وهو أيضاً يترجم لشعراء الأقطار العربية لعصره أي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ للهجرة، وتراجمه أوسع، غير أنها تصطبغ بصبغة اليتيمة، وخص إيران بقسم كبير من كتابه لم ينشر حتى الآن، ونشرت منه الأجزاء الخاصة بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس..

ولعل أهم كتاب في التراجم العامة هو كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد الذي ذكرناه بين المؤرخين للمدن وهو مطبوع في مجلد ضخم بالزنكوغراف، وهو ليس في

الأنساب بمعنى نسب الشخص في آبائه، بل هو أعم من ذلك، إذ يعني بأنساب العلماء والأدباء إلى بلدانهم أو قبائلهم أو أسرهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم. ويعرف أولاً بما ينسب إليه الشخص، وإذا كان بلدة ذكر مكانها، وكذلك الأنساب الأخرى ثم يترجم ترجمة دقيقة لصاحب النسبة، وقد يشترك في النسب أو اللقب الواحد عدة أشخاص، فيتحدث عن كلمنهم، أو قل يترجم لكل منهم ذاكراً مولده ووفاته. واختصر الكتاب عز الدين بن الأثير في مصنفه اللباب في مختصر الأنساب، وإلى الكتابين نرجع في كثير من التراجم، كما هو واضح في الهوامش.

obeikandl.com

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربي على كل لسان

رأينا في حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجري نزعة قومية قوية كان من آثارها في أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رفعة إيران الفسيحة، فكان البويهيون في الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق. وكان الزياريون في الشمال بطبرستان وجرجان، وكان السامانيون في خراسان، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية: بغداد، وتليها إمارة الزياريين في البعد. وهيأ ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية. وكان السامانيون أسبق إلى ذلك، لأن إمارتهم أسبق في التاريخ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التي سبقتهم منذ عصر المأمون، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُعْمة له ولبنيه، فاستقلوا بها مبكرين، وكانت أول الإمارات الفارسية في الظهور والنشأة، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين في استشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسي لهم ينافسون به الشعر العربي. وكذلك الشأن في إمارة الصفاريين التي عاصرتها، ويذكر مؤرخو الشعر الإيراني عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجري، واتخذوا الفارسية لساناً لهم، يعبرون بها عن مشاعرهم، وغير قليل منهم يلفَه ضباب الأساطير، وأول شاعر معروف حقاً هو الرودكي السمرقندي جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمديح السامانيين ووزيرهم البلعمي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسياً، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن. وخلفه الدقيقي الطوسي المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بدوره من شعراء الدولة السامانية،

واشتهر بأنه اعتزم نظم الشاهنامَهْ في تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها ألف بيت، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها، فأكملها من بعده الفردوسي في عهد محمود الغزنوي.

ولم يهتم البويهيون أي اهتمام بهذا الاتجاه القومي في إحياء الآداب الفارسية، فقد آثروا الانضواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة، وكثير منهم أتقنوا العربية، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم، مما جعل الثعالبي يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية في إيران. وكان وزراؤهم من كبار الأدباء وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتاباتهما في العربية. ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قدما له مدائحهما بالفارسية، وهما منصور بن علي الرازي الملقب بالمنطقي ومحمد بن علي السرخسي الملقب بالكِسْروي، غير أن ذلك يُعَد شذوذاً في بيئة البويهيين، فقد كانت بيئة عربية خالصة، وكان مثل هذين الشاعرين يُعَدَّان طارئين عليها. وبالعكس عُنيت الدولة الغزنوية، وخاصة في عهد محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية. وفي عهد محمود أنجز الفردوسي نظم الشاهنامه في نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسي[١]، وكان الفرخي والعنصري والعسجدي ومنوجهري يتبارون في تمجيد فتوحه ومديح أبنائه. وخلفت كل هذه الإمارات السالفة في إيران الدولة السلجوقية، وفي عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبي سعيد بن أبي الخير وسنائي وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنوري يتجهون نحو التصوف. وتعم هذه الموجة شعراء إيران في القرون التالية من أمثال الشيخ سعدي الشيرازي وجلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وعبد الرحمن الجامي.

وينبغي أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسي وأصحابه لم يكن يُقاس في شيء إلى نشاط الشعر العربي في إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية: الرابع والخامس والسادس.

---

(١) ترجمت الشاهنامه بمصر في العصر الأيوبي، ترجمها أبو الفتح البنداري، ونشر ترجمته في القاهرة الدكتور عبد الوهاب عزام.

وأكبر دليل على ذلك أنه بينما ألفت المجلدات الضخام عن الشعر العربي في تلك القرون على نحو ما تصور ذلك مجلدات اليتيمة ودمية القصر والخريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسي كتاب يضم بين دفنيه شعراؤه، وأول كتاب عُني بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفي المؤلف في أوائل القرن السابع الهجري. ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية، ولو أن الفتح المغولي لم يحدث في هذا القرن لظل الشعر العربي هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن، على الرغم من الخراب الذي رافق المغول والذي عَمَّ إيران، فقد حرقوا ودمروا كل ما صادفهم من حضارة، وكانت الحضارة العربية هي التي تسود في كل تلك الديار، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكزخان وهولاكو من تدمير، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات. أما المدن فقد أنزلا بها خراباً لا مثيل له في التاريخ.

وما أنزل هولاكو ببغداد من دمار معروف مشهور. وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية في إيران وبالتالي للشعر والعلم العربيين، ومع ذلك فقد ظل العلم العربي حياً وبالمثل الشعر، وإن فقدا كثيراً من نشاطهما الهائل القديم. ولابد أن نعرف أن لغة العلم في إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجري هي العربية، فبها كان يكتب علماؤهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيروني في القنر الخامس والزمخشري والفخر الرازي في القرن السادس ونصير الدين الطوسي والكاتبي القزويني المعروف بدبيران في القرن السابع. وسعد الدين التفتازاني وعضد الدين الإيجي في القرن الثامن والسيد الشريف الجرجاني في القرن التاسع. ففي كل هذه القرون- وخاصة حتى القرن السابع- لم تستطع الفارسية أن تستولي تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين، حقاً قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبيروني، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التي يذيع بها كتبه ومعارفه، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية في القدرة على التعبير العلمي بفضل ما تتسم به من مرونة في الاشتقاقات، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية، تزخر بمصطلحات العلم، فكان من الصعب أن

تحل الفارسية محلها، ويصور ذلك البيروني قائلاً: " إلى لسان العرب نُقلت العلوم في أقطار العالم، فازدانت وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة.. والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية. ويعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية. (فسيرى أنه) قد ذهب رونقه، وكسف باله، واسود وجهه، وزاع الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة (الفارسية) إلا للأخبار الكسروية والأسحار الليلية[1] ".

وظل هذا الشعور ماثلاً في نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجري، فكانوا يشبّون في مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية، بل إننا نجد ذلك نفسه عاماً بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لساناً لهم منذ الرودكي، ولذلك مظهر عام عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية، فإن الألفاظ العربية تكثر في أشعارهم، بل لذلك مظهر أبعد عمقاً وغوراً، فإن ضروب النظم التي صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربي ومادة تفاعيله وأوزانه.

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربي وأنماطه أولها المثنوي، وهو نفس الضرب المعروف في العربية باسم المزدوج الذي أخذ يشيع- كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول- منذ بشار، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد في ترجمة كليلة ودمنة وما نظم من الشعر التعليمي[2]، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت في حين تتحد في الشطرين المتقابلين، وقد اختاره الفردوسي لشاهنامته والتزم فيه وزن المتقارب.

والضرب الثاني القصيدة، وموضوعها ونسقها لا يختلف في شيء عن موضوع القصيدة العربية، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو ديناً أو فلسفة.

والضرب الثالث الغزل، وموضوعه غزلي أو صوفي وأبياته لا تزيد عن اثنى عشر بيتاً إلا في النادر، وهو بذلك المعروف في العربية باسم المقطعات الغزلية.

---

(١) انظر كتاب الأدب الفارسي في العصر الغزنوي للدكتور علي الشابي (طبع تونس) ص٣٣٨ نقلاً عن كتاب الصيدلة للبيروني.

(٢) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص١٩٦ وما بعدها.

والضرب الرابع الرباعيات، وهي تتألف من أربعة شطور، يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نمط عربي ظهر عند بشار وأبي نواس وأبي العتاهية[1]، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنهما في قسم العراق.

والضرب الخامس المسمَّط، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكون من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة. وقد أخذ هذا الضرب يشيع في العربية منذ أبي نواس قبل نشأة الشعر الفارسي الحديث.

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسي الذي أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجري فَصَلَ عن الشعر العربي كما يفصل الرضيع عن أمه، بل لقد ظل الشعر العربي يغذيه طوال القرون التالية، ولذلك مظاهر مختلفة فيه، فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هي نفس موضوعات الشعر العربي، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه ينظم بنفس الصورة العربية، فللمدحة مقدمة من النسيب ومن وصف الطبيعة، وكأننا نقرأ مدحة عربية مترجمة على نحو ما يتضح عند شعراء الدولة الغزنوية: منوجهري والعسجدي والعنصري والفرخي. ونما عندهم- على نحو ما هو معروف- شعر التصوف، ولكنه يتغذى في نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربي عند الحلاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربي وابن الفارض والسُّهْرورَديَّين. ولا يوجد شاعر صوفي من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامي إلا وهو يحسن العربية ويتربى ثقافياً في مهادها، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربياً، وهو يقل عند بعضهم حقاً، ولكنه على كل حال يرمز في قوة إلى هذا التواصل الوثيق[2] بين شعراء الفارسية وشعراء العربية. وشاعت بينهم طريقة هي أن يقتبسوا في بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية، ويسمون

---

(١) العصر العباسي الأول ص١٩٧.

(٢) من يرجع إلى كتابات الثعالبي والباخرزي يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن اللسانين وينظم بهما، انظر اليتيمة ٤/ ٨٨ ودمية القصر ٢/ ٢٦٠، ٢٨٠، ٣٤٤، ٣٦٢.

ذلك الملمع، فالشطر أو البيت العربي يلمع في المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق. ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معاني أبيات عربية، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان " متنبي وسعدي" طبعه في طهران، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم في شعر سعدي الشيرازي، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة، ويتلوها ما استظهره سعدي من الأحاديث النبوية في نحو ثلاثين صحيفة، ويعرض تضمينه لمعاني أبيات الشعر العربي في أشعاره في نحو خمسين صحيفة، وهي أبيات تمتد من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي مصورة بقوة ثقافة سعدي الشيرازي بالشعر العربي على مر العصور، ويلي ذلك تضمين سعدي أشعاره معاني أبيات المتنبي في نحو خمسين صحيفة. وبجانب ذلك يذكر أشعار سعدي العربية الخالصة. وسعدي أو الشيخ سعدي هو أحد ثلاثة يعدون أنبه شعراء الفرس في تلك الحقب، والاثنان الآخران جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه. فإذا قلنا إن الشعر الفارسي كان دائم الاتجاه إلى الشعر العربي، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه في قوة لم نكن مغالين.

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسي للشعر العربي في تلك القرون، فإننا نجد أصحابه يعنون منذ نشأته بمصطلحات البديع التي أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية في إيران وغير إيران، وأكبر مثل يوضح ذلك " كتاب حدائق السحر في دقائق الشعر" لرشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة، وقد أورد فيه ستة وخمسين فناً من فنون البديع، ونراه في كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربي وأمثلة أخرى من الشعر الفارسي تحاكيها جرت على ألسنة الرودكي والعنصري والفرخي والعسجدي ومنوجهري والمنطقي وأضرابهم، وكأن شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فنا إلا حاكوه فيه، مهما يكن معقداً أو شديد التكلف، فمن ذلك تقليدهم " لزوم ما لا يلزم " في القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفاً قبل حرف الروى، وتقليدهم الأبيات التي يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين، ومن ذلك المقطع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل

حروف كلماته في الكتابة، والموصل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع في الكتابة، والأرقط وهو البيت الذي يتولى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب، والأخيف وهو الذي تتولى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منطوقة. وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة في قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيراً اللغز، والتضمين، والتقسيم، وحسن التعليل، والمثل.

ولعل في هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسي كان يتبع خطوات الشعر العربي الماضي والمعاصر له خطوة خطوة، يتبعه في الصياغة والسمات ويحاكيه محاكاة دقيقة، وكان الشعر العربي هو الأكثر شيوعاً، وهو الذي يدور على كل لسان، أما في القرون الرابع والخامس والسادس فليس في ذلك شك، حتى لنرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربين مثل بديع الزمان الهمذاني إذ تروى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية، وبالمثل أبو الفتح البستي، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية. ولكن هذا النظم ضاع، وبقي له ديوانه العربي، ومثلهما الباخرزي ضاع شعره الفارسي إلا ما احتفظ به محمد عوفي في كتابه اللباب، وظل ديوانه العربي تتناقله الأجيال حيناً من الدهر. ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال، فكثر من ينظمون بالفارسية، وأصبح المعول في شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة، كما هو الشأن في سعدي الشيرازي الذي مر بنا حديث عنه، أما قبل ذلك فكان الشعر العربي هو الأكثر ذيوعاً، وكأنه العملة الشعبية المتداولة في بيئات المثقفين جميعاً، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب، غير من كان ينظمه من الشعراء، ويعدون بالمئات.

obeikandl.com

٢

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربي بإيران في القرن الرابع الهجري رواجاً عظيماً، وكان من العوامل التي أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه، وفي مقدمتهم عضد الدولة، وكان ينظم شعراً حسناً، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، كما يقول صاحب اليتيمة، وقد أنشد له أبياتاً طريفة في الشراب والطرب من مثل قوله[1]:

ليس شُرْبُ الكأسِ إلا في المطَرْ وغِناءٍ من جَوارٍ في السَّحَرْ

وكان الشعراء يفدون عليه ويجزل لهم في صلاتهم ومكافآتهم، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة. وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يلقيه، أو يصفوا شيئاً عرض لهم، ونضرب لذلك مثالاً: أن بعض الوافدين حياه بأترجة حسنة، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها [2]، وابتدأ بقوله: " وأترجَّةٍ فيها طبائعُ أربعُ" فقال أبو محمد بن هندو: " وفيها فنونُ اللهو للشُّرْب أجمعُ" فقال أبو القاسم: " يشِّبهها الرائي سَبيكةَ عسْجدٍ" فقال أبو الحسين بن فارس: " على أنها من فَأْرة المسك أّضْوَعُ " فقال أبو عبد الله الطبري: " وما اصفَّر منها اللونُ للعشق والهوى " فقال أبو الحسن البديهي: " ولكنْ أراها للمحبين تجمَعُ ". وبذلك تكونت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً. وكانت تكثر هذه المقارضات في مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدبين، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبي في كتابه اليتيمة: " احْتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر، وأبناء الفضل وفرسان الشعر، من يربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب

---

(١) اليتيمة ٢/ ٢١٨.

(٢) اليتيمة ٣/ ١٧٦ وما بعدها.

القوافي وملك رق المعاني، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبي نواس وأبي العتاهية والعتّابي والنَّمري ومسلم بن الوليد وأبي الشِّيص ومروان بن أبي حفصة ومحمد بن مناذر، وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان وبالري وجرجان مثل أبي الحسين السلامي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني وأبي القاسم بن أبي العلاء وأبي محمد الخازن وأبي هاشم العلوي وأبي الحسن الجوهري وبني المنجم وابن بابك وابن القاشاني وأبي الفضل الهمذاني وإسماعيل الشاشي وأبي العلاء الأسدي وأبي الحسن الغويري وأبي دلف الخزرجي وأبي حفص الشهرزوزي وأبي معمر الإسماعيلي وأبي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عني اسمه. ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدم أو متأخر ". ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تحصى، ومع كل مدحة كان يأمر بصلة. وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته، وكثيراً ما كان يعرض موضوع، فيتنافس فيه الشعراء، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه، من ذلك أنه بنى قصراً بأصبهان، فتبارى نحو عشرين شاعراً في وصفه [١]"، منهم أبو سعيد الرستمي، وفيه يقول [٢]:

وسامية الأعلام تلحظ دونها ... سَنا النجم في آفاقها مُتضائلا

نسختَ بها إيوانَ كسرى بن هُرْمُزِ ... فأصبحَ في أرض المدائن عاطلا

متى ترها خلتَ السماء سُراداقَا ... عليها وأعلامَ النجوم مواثلا

وماءٍ على الرَّضراض يجري كأنه ... صفائحُ تِبْرٍ قد سُبكْنَ جداولا [٣]

---

(١) اليتيمة ٣/ ٢٠٣.

(٢) اليتيمة ٣/ ٢٠٦.

(٣) الرضراض: الحصى الصغار في مجاري المياه.

ولما حصل الصاحب، وهو بجرجان، على فيل ضخم كان في عسكر السامانيين أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه في تشبيب القيدة على وزن قافية قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

أعددتُ للحَدَثان سا ... بغةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى [1]

وأنشد أبو الحسن الجوهري في هذه المباراة قصيدة استهلها بمديح الصاحب، ثم أخذ في وصف الفيل وصفاً مرحاً بمثل قوله [2]:

يُزْهَى بخرطومٍ كمثـ ... ـل الصَّوْلجان يرِدّ رَدَّا

أو كُمّ راقصةٍ تشـ ... ـيرُ به إلى النُّدْمان وَجْدَا

وكأنه بوقٌ تُحَـ ... ـرِّكه لتنفخ فيه جدّا

أذناه مِرْوَحَتان أُسْـ ... ـندتا إلى الفَوْدين عقْدا

ونفق بِرْذَوْن (بَغْل) أبي عيسى بن المنجم، بعد أن طالت صحبته له، فأوعز الصاحب إلى من حلوه من الشعراء الندماء أن يُعَزّوا أبا عيسى فيه ويبكوه له، ونظم منهم عشرةٌ قصائدَ فكاهية سُمِّيت بِالبرْذَونيات منها برذونية أبي القاسم ابن أبي علاء وفيها يقول [3]:

لقد أنصفتْه الخيلُ ما ذُقْن بَعْدَهُ ... شَعِيراً ولا تِبْناً ومُتْنَ غَليلا

وفي كل إصْطَبْلٍ أنينٌ وزفرةٌ ... تردَّدُ فيه بُكْرَةً وأصيلا

ولو وفَّت الجُرْدُ الجِياد حقوقَهُ ... لما رجَّعتْ حتى المماتِ صَهيلا

وفي هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربي في أصبهان والرَّي لعهد بني بويه، وبالمثل كان الزِّياريون وفي مقدمتهم قابوس بن وَشْمكير يشجعون الشعراء ويجزلون لهم في العطاء، ويذكر الباخَرْزي في دُمْيته أبا بكر الخُسْرُويّ الذي كان ينظم باللسانين

---

(١) اليتيمة ٣/ ٢٢٩ والسابغة الدرع. والعلندي: الغليظ، وأراد به الفرس.

(٢) اليتيمة ٣/ ٢٣١.

(٣) اليتيمة ٣/ ٢١٨.

العربي والفارسي، ويقول: "كانت له وظائف كل سنة من الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير والصاحب أبي القاسم بن عباد تُدَرّ عليه، وتتسابق إليه [١] ". وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين، وكذلك من الدولة السامانية، وفي عصامتها بخاري يقول الثعالبي: "كانت بخاري في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض ومَوْسم فضلاء الدهر [٢] " ويذكر مجلساً من مجالسها ضَمَّ أبا الحسن اللَّحَّام وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبي الثياب وأبا النصر الهَرْثَمي وأبا نصر الطريفي ورجاء بن الوليد الأصبهاني وعلي بن هرون الشيباني وأبا إسحق الفارسي وأبا القاسم الدينوري وابا علي الزَّوْزَني إلى غيرهم ممن ينتظم في سلكهم من الشعراء. وليست الحواضر وحدها هي التي اختصت بالنشاط الشعري، فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجُرْجان وَطَبرستان وخُوَارزم وفارس والأهواز ونَيْسابور وهَراة. وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي في يتيمته من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً، وزادوا عن المائتين في الدمية إلى من ترجم لهم العماد الأصفهاني في الخريدة وترجمات ضافية وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حماة الأدب والشعر في كل بلدة كبيرة، منهم آل ميكال في نيسابور، وفيهم يقول الثعالبي: "القول في يل ميكال وقِدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أَقْامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وَجْمعم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريفة يستغرق الكتب ويملأ الأدراج ويُخْفى الأقلام، وما ظنك بقوم مدَحجهم البحتري وخدمهم ابن دريد وأَلَّف لهم معجم الجمهرة وسيَّر فيهم المقصورة التي لا يُبْليها الجديدان، وانخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر [٣] ". ويدل أكبر الدلالة على ما كان ببلدان إيران من نشاط أدبي وشعري أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم، بل يفد عليها كثيرون

---

(١) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي) ٢/ ٢٥٩.

(٢) اليتيمة ٤/ ١٠١.

(٣) اليتيمة ٤/ ٣٥٤.

غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة في العراق وغير العراق، على نحو ما يلقانا في نيسابور، فقد ترجم الثعالبي لطائفة من الشعراء الطارئين عليها من لبلدان شيء، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم.

ونَيْسابور من بلدان الدولة السامانية، وهي صالحة لأن تكتب في شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا في عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً في الحقب التالية، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والريّ والجُرْجانية عاصمة الزياريين وخُوَارزم وهَراة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بديع الزمان الهمذاني وغَزْنة عاصمة الغزنويين، فكل هذه البلدان وما يماثلها، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها في اليتيمة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكي ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان.

ومن يرجع إلى هذه الكتب يخيَّل إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان، وكان الأمراء ورُعاته في كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير، وكانوا يعيِّنون لهم مرتبات، كما مر بنا يُغْدقون عليهم إغداقاً كثيراً، حتى ليقال إنه حصل للأبِيَوَرْدِي الشاعر السلجوقي من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبي في عصره ولابن هانئ في مصره. فلا عجب أن يتكاثر الشعراء، فقد كان الشعر وسيلة لحياة رَغْدة، ولذلك قلما ترى شاعراً من المئات التي ترجم لها الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدُّمْية والعماد والأصبهاني في الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعيم.

وليس هذا وحده كل ما دعا الشعر إلى النشاط في إيران، فقد كان يعد جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية التي كان الناس يعكفون عليها في شغف، وهذا هو السر في أنك قلما تجد فقيهاً أو فيلسوفاً في تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر، ويتخذه أداته في التعبير عن مشاعره، تجد ذلك عند البيروني في ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا، ويتسع ذلك عند الفقهاء، وكأنهم كانوا يعدون الشعر من آلات عملهم، وارجع إلى السبكي في طبقاته فإنك تجده من وقت إلى آخر حين يترجم لفقيه يذكر له أشعاراً مختلفة في الغزل وغير الغزل، من

ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النيلي أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ فيذكر له أشعاراً منه هذه الأبيات الغزلية البديعة [١]:

ما حالُ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابَهُ ... ما حالُ من كسَر التصابيَ بابَهُ

نادى الهوى أسماعَه فأجابه ... حتى إذا ما جازَ أغلق بابَه

أهْوَى لتمزيق الفؤاد فلم يجد ... في صدرهِ قلباً فشقَّ ثيابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية في العصر القفال الشاشي ناشر مذهب الشافعي فيما وراء النهر، وكان أكبر من صاح في قومه لغزو الروم عام النفير، وذلك أن نقفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيدة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله [٢]:

ثغوركمُ لم يبقَ فيها لوَهْنكم ... وضعفكمُ إلا رُسومُ المعالمِ

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه في كريت (إقريطش) وسروج وعلى أبواب سميساط والحدث ومرعش والمصيصة وطرسوس. ورد عليه فخره ونقضه نقضاً الشيخ القفال بقصيدة طناطنة يذكر لها فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاول وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وما سبوا من آلاف الجواري الروميات، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به وبجنوده، ترسلها عليهم زحوف الخراسانيين جنود الملك السامانى منصور بن نوح (٣٥٠-٣٦٦هـ) التي تزحف بقضها وقضيضها ورعودها وبروقها المميتة، يقول:

أنَتْك خُراسانٌ تجرُّ خيولَها ... مُسوَّمةً مثلَ الجرادِ السَّوائمِ

كهولٌ وشبانٌ حماةٌ أحامِسٌ ... ميَامنُ في الهَيْجاء غيرُ مَشائِم [٣]

ونرجو بفضلِ الله فتحاً معَجَّلاً ... ننالُ بِقُسْطَنْطِين ذاتِ المحارم

---

(١) السبكي ٤/ ١٧٩.

(٢) السبكي ٣/ ٢٠٥ وما بعدها.

(٣) أحامس: أشداء.

هناك نرى نِقْفورَ والله قادرٌ ... ينادىَ عليهِ قائماً في المقَاسمِ

ويجري لنا في الرومِ طُرًّا وأهلِها ... وأموالِها جَمْعاً سِهامُ المغانمِ

فيضحك منا سنٌّ جذْلان باسمٍ ... ويُقْرَعُ منه سِنٌّ خَزْيانَ نادمِ

ووراء القفال أمة في الفقه الشافعي كثيرون أنشد لهم السبكي أشعاراً في الزهد، وسنترجم منهم للقشيري بين شعراء الزهد والتصوف. وأنشد السبكي أيضاً أشعاراً لقاضيين هما علي بن عبد العزي الجرجاني والأرجاني وسنترجم لهما بين شعراء المديح، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقيه الأبيوردي وسنترجم له بين شعراء الفخر، وله ديوان كبير مثل الأرجاني، وكان لعلي بن عبد العزيز ديوان سقط من يد الزمن. وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدثون ينظمونه أيضاً، مثل حمد بن محمد الخطابي البستي الذي مر حديثنا عنه بين المحدثين، وقد ترجم له صاحب اليتيمة في جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره، وكان ينظمه أيضاً المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشري، وله ديوان شعر لما ينشر، وهو زاخر بالأدعية والابتهالات. وتروي كتب التراجم للفخر الرازي أشعاراً مختلفة، وكان كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر، منهم الجوهري إسماعيل بن حماد صاحب معجم الصحاح، وله ترجمة في الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبي طائفة من أشعاره، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمي المجمل ومقاييس اللغة، وقد ترجم له الثعالبي في الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من شعره من مثل قوله [1]:

مَرَّتْ بنا هَيْفاءُ مَقْدودةٌ ... تركيَّةٌ تُنْمَى لتُرْكيِّ

ترنو بطَرْفٍ فاترٍ فاترٍ ... أضعفَ من حُجَّة نَحْويِّ

ومنهم ابن فورجة البروجردي، وله ترجمة في الجزء الأول من تتمة اليتيمة وكذلك في الجزء الأول من دمية القصر، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذي أنشده الثعالبي [2]:

---

(١) اليتيمة ٣/ ٤٠٢.

(٢) تتمة اليتيمة ١/ ١٢٤.

ألم تطربْ لهذا اليوم صاحِ ... إلى نغمٍ وأوتارٍ فِصاحِ

كأنَّ الأيْكَ يوسعنا نِثاراً ... من الوَرق المكسَّر والصِّحاح

تَميدُ كأنها عُلَّت براحٍ ... وما شربتْ سوى الماء القَراحِ

كأن غُصُونها شَرْبٌ نَشَاوَى ... تصفِّق كلُّها راحاً براحِ

ومر بنا أنه كان ناقداً بصيراً، كما كان شاعراً فذاً وذكر له الثعالبي معنى نقله عن شاعر فارسي معاصر له يسمى المعروقي على هذا النمط.

يظنون ما تَذْرِي جفوني أدْمُعاً ... بل الدم منها يستحيلُ فيقطُر

تُعيد بياضاً حمرةَ الدمِ لَوْعتي ... كما أبيضَّ ماءُ الورد والوردُ أحمرُ

ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين، وقد ضمنه كل ضمن كتابه ديوان المعاني طائفة من أشعاره، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره. ومثله الثعالبي صاحب اليتيمة ومر بنا حديث عن بعض نظرات نقدية له، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها في كتاب لطائف المعارف وفي كتبه الأخرى. ومثلهما عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وفي ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره. وهو باب يطول إذا أخذنا نحصي شعراء العلماء من كل صنف، إنما هي أمثل فحسب، أردنا بها أن نصور تفتح ينابيع الشعر العربي على ألسنة المثقفين من كل لون. وكان من أقربهم إلى هذه الينابيع كُتَّاب الدواوين، ولا تكاد تجد كاتباً كبيراً يترجم له الثعالبي في اليتيمة والباخرزي في الدمية والعماد في الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب نثره. بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على ما لهم من أشعار، حتى إنه يكاد يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتابها وآثارهم النثرية عند السامانيين والخوارزميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتي عفواً. وكثير من كتاب هذه الدول والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبي بكر الخوارزمي الكاتب المشهور ومثل بديع الزمان وأبي الفتح البستي والباخرزي وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم، ومثلهم

الصاحب بن عباد والعماد الأصبهاني، وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن الشعر هو العملة العربية المتداولة التي تحوز لصاحبها الشهرة الأدبية.

obeikandl.com

٣

شعراء المديح

يكثر شعر المديح في هذا العصر كثرة مفرطة، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة. ومن يقرأ اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم، وكأن عمل الشاعر الأساسي أن ينظم في المديح، وهو شيء طبيعي إذ كان أداة للكسب ورفاهة العيش، ومرت بنا كثرة الأعطيات التي كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا- أو كان كثير منهم- يأخذ رواتب من الوزراء والحكام، وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدمون لأصحابها المدائح والتهاني في المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يروحون عليه ويغدون بالمدائح الرائعة، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نظم في عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلاً، إذ لم يكد ينبغ شاعر في إيران إلا قصده، وقدم له مدائحه، وقصده المتنبي بشيراز في سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة، كما قصده شعراء العراق وفي مقدمتهم السلامي الشاعر، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخوارزمي [١]:

غريبٌ على الأيام وحْدانُ مثلِهِ ... وأغربُ منه بعد رُؤْيته الفقْرُ

عجبتُ له لم يلبس الكبرَ حُلَّةً ... وفينا لأنْ جُزْنا على بابِه كِبْرُ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال في مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمي في البيت الأول، ونظمت في مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة، ولأبي سعيد الرستمي مدائح بديعة في أولها من مثل قوله [٢]:

بقيتَ مدى الدنيا ومُلْكك راسخٌ ... وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرُ

يَرُدُّ سَناك البدرُ والبدرُ زاهرٌ ... ويقفوا نَداك البحرُ والبحرُ زاخر

---

(١) اليتيمة ٤/ ٢٢٢.

(٢) اليتيمة ٣/ ٣٠٣.

وبالمثل كان وزراء بني بويه ممدحين، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد، أما اب العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبي الذي وفد عليه بمدينة أرجان ومدحه بقصائد رائعة، ومثل ابن نباتة السعدي الشاعر العراقي، وله فيه مدائح جيدة، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله في قدومه إلى أصبهان [١]:

قَدِمَ الرئيسُ مقدَّماً في سَبْقِهِ ... فكأنما الدنيا جَرَتْ في طُرْقِهِ

وكأنما الأفلاك طوعُ يَمينِهِ ... كالعبد منقاداً لمالكِ رِقِّهِ

قد قاسمتْه نجومُها فنحوسُها ... لعدوِّه وسعودُها في أفْقِه

ولعل وزيراً بويهياً لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه، وكان وراءهم كثيرون يفدون عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية، وعقد لهم الثعالبي في تيمته الباب السادس من جزئها الثالث، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمي، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله [٢]:

وَرِثَ الوزارةَ كابراً عن كابرٍ ... موصولةَ الإسنادِ بالإسنادِ

يَرْوِي عن العباس عبادٌ وزا ... رتَه وإسماعيلُ عن عَبَّادِ

وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة في حجرها ودرج إلى الناس من وكرها إذ ورثها عن آبائه، وكان أبو سعيد يبالغ مبالغة مفرطة في مديحه أحياناً على عادة الشعراء في العصر، من مثل قوله فيه [٣]:

لو كان غيرُ الله يُعْبَدُ ما انثنتْ ... إلا إليك أعنَّةُ العُبَّادِ

---

(١) اليتيمة ٣/ ١٥٨.

(٢) يتيمة ٣/ ١٩٠، ٣٠٧.

(٣) يتيمة ٣/ ٣٠٧.

وهي مبالغة تمجها الآذان، ونراه في نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجبر ومن يقولون بأن كل شيء قدر مقدور ملغين حرية الإرادة في الإنسان، يقول:

ونصبتَ للإسلام أكرمَ رايةٍ وقصَمْتَ أهل الجَبْر والإلحادِ

وكان الصاحب إمامياً معتزلياً، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صح ما يقول أبو سعيد الرستمي، ويقول له أبو بكر الخوارزمي من قصيدة فيه [1]:

ومَنْ نصرَ التوحيدَ والعدلَ فعلهُ وأيقظ نُوَّامَ المعالي شمائلُهْ

وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المائح لم تكن ثناء فحسب، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمالأ الأمراء والوزراء، وهي لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة، وهي قيمة تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان في العصور السابقة ملقاً ونفاقاً، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات. وعلى نحو ما نجد في كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بني بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البلعمي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية كما أسلفنا، وفيه يقول أبو محمد المطراني الشاشي [2]:

بلوناك حين يرجَّ الولـ ـيُّ عُرْفا ويَخْشى العدوُّ النكيرا

فلم تك إلا اختياراً نَفوعا ولم تك إلا اضطراراً ضَرورا

وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدحاً، وللمأموني الشاعر فيه مدائح مختلفة. وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذي لقبه الخليفة بلقبه: شمس المعالي، فقد مدحه كثير من الشعراء، وكان غيثاً مدراراً، فأكثروا من مديحه.

---

(١) يتيمة ٤/ ٢١٤.

(٢) يتيمة ٤/ ١١٦ وضروراً: مضراً.

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التي عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبويهيين تضمنت وصف ما بنى القوم من قصور مشيدة، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمه الشعراء في دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان. وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسيب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين. وأكثروا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً في مقدمات المدائح بعيد النيروز. واطرد ذلك في مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها. وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية في مديح محمود الغزنوي الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه في إيران وما وراء النهر وفي الهند، ومن رائع ما مدح به قصيدة لبديع الزمان الهمذاني يقول فيها [1]:

تعالى اللهُ ما شاءَ ... وزاد اللهُ إيماني

أأفْرِيدونُ في التاجِ ... أم الإسكندرُ الثاني

أم الرجعةُ قد عادتْ ... إلينا بسليمانِ

أطلَّت شمسُ محمودٍ ... على أَنْجمِ سامانِ

وأمسى آلُ بَهْرَامٍ ... عَبيداً لابن خاقان

إذا ما ركبَ الفِيلَ ... لحربٍ أو لميدانِ

رأتْ عيناك سلطاناً ... على مَنْكِب شيطانِ

فمن واسطةِ الهند ... إلى ساحةِ جُرْجانِ

ومن قاصيةِ السِّندِ ... إلى أقصى خُرّاسانِ

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين، وآل بهرام هم السامانيون الذي قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم، ويسميه ابن خاقان لأنه تركي، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ما عدا إقليمي فارس وكرمان، كما مر بنا في غير هذا الموضع. ويكثر بعده مديح السلاجقة

---

(١) اليتيمة ٤/ ٢٩٦.

ووزرائهم، وخاصة نظام الملك، ومداحه يتعاقبون في كتاب دمية القصر بالعشرات، مع أن مؤلفها الباخرزي توفي قبله بنحو سبعة عشر عاماً، وممن ذكرهم بين مداحه الفياض الهروي، وله فيه وفي فتوح سلطانه ألب أرسلان في آسية الصغرى وأسره لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة، يذكر فيها جيش رومانوس الجرار ومناه في احتلال ديار السلطان السلجوقي، وكيف رد الله كيده في نحره، فسحق جيشه سحقاً، وقتل منه ما لا يحصى، وأسر الإمبراطور ووقف بين يدي ألب أرسلان ذليلاً خانعاً، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه. ويصور ذلك كله الفياض الهروي مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألب رسلان لجيش المسلمين قائلاً [١]:

إذا ما ملوكُ الأرض عُدُّوا فإنما ... لكم كاهلُ المجد الأشمِّ وغاربُهْ

أحاسدَه مَهْلاً فهذِي سُيوفُه ... وهاتيك يومَ المكْرُمات مواهبُهْ

ويتولى سلاطين الدولة السلجوقية ووزراؤهم ويتولى مديحهم عند الطغرائي والأرجاني وغيرهما من معاصريهما. وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من علية القوم يخصهم الشعراء بمدائحهم، وقد دبجت فيهم قصائد كثيرة. وكانوا يهنئون كثيراً لا بالأعياد فحسب، بل أيضاً بالمواليد، وفي اليتيمة والدمية من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة. وكثر في العصر مديح الفقهاء والعلماء يمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم، من ذلك ما أنشده الباخرزي لأبي المطهر الأصفهاني في أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية في نيسابور، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة [٢]:

يا أيها المولى الأجلُّ ومَنْ بهِ ... أصبحتُ آمنَ مَنْ تحصَّن في الذُّرَى

أَنْبَتَّنِي ورعيتَني وسموتَ بي ... غُصْناً بأبكار البيان منوَّرا

ولابن عنين قصيدة رائعة سيرها من نيسابور إلى الفخر الرازي بهراة، وفيها يشيد بقضائه على البدع في عصره، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات في

---

(١) الدمية ٢/ ٢٨٦ وما بعدها.

(٢) الدمية ١/ ٤٣٤.

الفلسفة والطب، غير أن ابن عنين دمشقي، وعلى كل حال هو تكملة لهذه الظاهرة التي رآها في إيران، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشيوخهم وأساتذهم من العلماء والفقهاء. وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح في تلك البيئة لتتضح لنا صورته، وهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطغرائي والأرجاني.

علي[١] بن عبد العزيز الجرجاني

من جرجان، وفد على نيسابور في صباه، وسمع على شيوخها، وتخرج بهم فقيهاً شافعياً نابهاً، وولى قضاء موطنه جرجان ثم ولاه الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الري، ثم جعله قاضي القضاة بها، وظل في هذه الوظيفة إلى أن توفي سنة ٣٩٢ وحمل تابوته إلى جرجان فدفن بها، وترجم له الثعالبي في يتيمته فقال: " هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، ودرة تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري ". ومر بنا حديث عن كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه " وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتاز، بل لعله أهم ناقد ظهر في عصره. وهو في الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربي قديمه وحديثه، كما يصور ذوقاً شعرياً مصفى. وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره في المديح وغير المديح، وقد روى له الثعالبي طائفة من مدائحه في قواد عصره وولاة جرجان وفي شمس المعالي قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان، وللصاحب بن عباد القدح المعلى من مدائحه من مثل قوله:

يا أيها القَرْمُ الذي بعلوِّهِ ... نال العَلاءُ من الزمانِ السُّولا

قسمتْ يَداك على الوَرَى أرزاقها ... فكنَوْك قاسمَ رزقها المسئولا

وهي مبالغة أن يجعل الصاحب يقسم على الناس أرزاقهم، ولكنها كانت تستحب في عصره، وكان كل شاعر يحاول أن يأتي منها بمعنى طريف. وكان الصاحب بحراً فياضاً

---

(١) انظر في ترجمة علي بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/ ١٤ واليتيمة ٤/ ٣ وما بعدها وابن خلكان ٣/ ٢٧٨ والسبكي ٣/ ٤٥٩ والمنتظم ٧/ ٢٢١ وشذرات الذهب ٣/ ٥٦ ومرآة الجنان ٢/ ٣٨٦ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٥.

أغـدق الـصلات عـلى زواره وقاصـديه، ولـه يـصف بلاغتـه التـي عـرف بهـا في النثـر والـشعر جميعاً:

سَبَقْتَ بأفراد المعاني وألَّفتْ ... خواطُرك الألفاظَ بعد شِرادِها

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ ... حَصَلْنا على مسروقها ومُعادها

وهـو معنـى طريـف، وكانـت لـه ملكـة خـصبة لا تـزال تمـده بالمعـاني الغريبـة النـادرة، وكـان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها في مدائحه من مثل قوله للصاحب:

لا وجفونٍ يغضُّها العَذَلُ ... عن وجناتٍ تذيبها القُبَلُ

ما عاش من غاب عن ذَراك وإن ... أخَّر ميقاتَ يومِه الأجَلُ [1]

وله في عياالته حـين يمـرض قـصائد بديعـة، وأخـرى في تهنئتـه حـين يبـل مـن مـرض ألم بـه أو حمـى نزلـت بجـسده، وكـان يتخيلهـا مـن تلهـب ذهنـه وتوقـد ذكائـه، ومـن قولـه في تهنئـة لـه بالشفاء:

بك الدهرُ يَنْدَى ظلُّه ويَطيبُ ... ويُقْلع عما ساءنا ويتوبُ

وأنـشد لـه الثعـالبي قـصيدة طويلـة في وصـف دار الـصاحب التـي بناهـا بأصـبهان وتبـارى الشعراء في وصفها على نحو ما مـر في حـديثنا، كـما أنـشد لـه أيـضاً قـصيدة فكهـة في رثـاء بـرذون أبي عيسى بن المنجم، استهلها بقوله:

جَلّ واللهِ ما دَهاك وعَزّا ... فعزاءً إن الكريمَ مُعَزَّى

هيَ ما قد علمتَ أحداثُ دهرٍ ... لم تدع عُدَّةً تُصان وكَنْزاً

وكـان يمـزج بـين الطبيعـة والمـديح مزجـاً بـديعاً لا يكتفـي فيـه بـأن يجعـل الطبيعـة مقدمـة للمديح كما كـان يـصنع الـشعراء كثـيراً مـن حولـه، بـل يجعلهـا جـزءاً مـن الممـدوح ومـن عملـه

(١) الذرا: الكنف والظل.

وشيمه وفكره، وكأنها صورة منه، أو كأنها مرآة له، يقول في وصف بعض الرياض الجميلة الساحرة مادحاً لأبي مضر محمد بن منصور والي جرجان:

أباتتْ يَدُ الأستاذ بين رياضها ... تدفَّقُ أم أهدتْ إليها سَحائبا

أألبسَها أخلاقَه الغُرَّ فاغتدتْ ... كواكبُها تَجْلو علينا كواكبا

أوشَّتْ حواشيها خَواطرُ فكرهِ ... فأبدتْ من الزَّهْر الأنيق غرائبا

أخالتْه يَصْبُو نحوها فتزَيَّنَتْ ... تؤمِّل أن يختار منها ملاعبا

ولعل في ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية، وهي قدرة تلقانا في غزله كما تلقاها في مديحه، على نحو ما نقرأ في قوله يصف بعض ليالي أنسه مع مُنى قلبه:

وليالٍ كأنهن أمانٌ ... من زمانٍ كأنه أحلامُ

وكأن الأوقات فيها كئوسٌ ... دائراتٌ وأنْسُهُنَّ مُدَام

زمنٌ مُسْعِدٌ وألفٌ وَصولٌ ... ومُنًى تَسْتَلِذُّها الأوهام

وواضح ما في الأبيات من خيال دقيق، فكأنه كان يعيش في حلم، يتعاطى خمر الأنس المسكرة، ومن قوله في الغزل:

قد بَرَّح الشوق بمشتاقِكْ ... فأولِهِ أحسنَ أخلاقكْ

لا تَجْفُه وارْعَ له حَقَّهُ ... فإنه آخر عشاقِكْ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم، يراه متعة لا تعدلها متعة، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة في منزله، وفي ذلك يقول:

ما تطعمتُ لذَّة العيش حتى ... صرتُ للبيتِ والكتابِ جَليسا

ليس شيءٌ أعزُّ عندي من العِلْـ ... ـم فما ابتغى سواه أَنيسا

فلذة القراءة لا تعدلها عنده لذة، وكانت نفسه أبية شديدة الإباء، لا يهينها ولا يذلها فدون الذل والهوان الموت، وفيم يذل الإنسان ويهون أفي سبيل المال والغنى؟ بؤساً لهما وله إن هو اقترف في نفسه هذه الجناية الكبرى، وفي ذلك يقول:

كأني ألاقي كلَّ يومٍ يَنُوبني ... بذنبٍ وما ذَنْبي سوى أنني حُرُّ

وقالوا تَوَصَّلْ بالخضوع إلى الغِنَى ... وما علموا أن الخضوعَ هو الفَقْرُ

وبيني وبين المال شَيْئانِ حَرَّما ... عليَّ الغَنَى: نَفْسِي الأبِيَّة والدَّهْرُ

إن مثل هذا الغنى الذي يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقي الذي يدمر حياة الإنسان، فتعساً لمن يطلبه عن هذه الطريق وتباً له، وله أبيات رائعة في عزة النفس، وخاصة عزة نفس العلماء، اشتهرت في عصره وبعد عصره، وهو يمضي فيها على هذا النمط:

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلاً عن موقفِ الذلِّ أحْجَما

إذا قيل: هذا مَنْهَلٌ قلتُ: قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظّمَا

ولم أقْضِ حقَّ العلم إن كان كلما ... بدا طمعٌ صيَّرْتَه ليَ سُلَّما

ولم ابتذلْ في خدمة العلم مُهْجتي ... لأخْدُمَ من لاقيتُ لكنْ لأُخْدَمَا

أأشْقَى به غَرْساً وأَجْنِيه ذلةً ... إذنْ فاتِّباعُ الجهل قد كان أحْزَمَا

ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صانَهم ... ولو عظَّموه في النفوس لعُظِّما

ولكنْ أهانوهُ فهانَ ودنَّسُوا ... محيَّاه بالأطماعِ حتى تجهَّما

وهو يصور في الأبيات نفس العالم الحر الذي يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى حد، وإنه ليأبى في شمم ما بعده شمم أن يروى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذي نفسه، وإنه ليزدري الطمع في الدنيا الذي يتحول بالعالم إلى ما يشبه دوارة الريح فهو يدور مع نفعه المهين، ناسياً أن من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً، وإلا

كان الجهل خيراً منه وأكثر عائدة على صاحبه، ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنسوه ولطخوه بهوان أليم.

الطغرائي[١]

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي بن محمد، الكاتب الشاعر الذي غلب عليه لقب الطغرائي لعمله في دواوين الطغراء، وهي الطرة التي يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء في أعلى الكتب فوق البسملة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذي يصدر الكتاب باسمه. وقد ولد بأصفهان سنة ٤٥٣ لأسرة عربية تنتسب إلى أبي الأسود الدؤلي، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذنعومة أظفاره وأنه تثقف على أيدي جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها مصنفات مختلفة [٢] ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة، فسال الشعر على لسانه، ووفد به على الرؤساء، وكان من أول من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألب أرسلان، وأعجب به وبشعره، فعينه كاتباً في الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائحه فيه، ورحب به، وحدث أن اشترك الفضل في مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة، وألقى به في غياهب السجون، وظل الطغرائي يحفظ له صنيعه معه ويواسيه في محنته ببعض أشعار يدبجها في مدحه، وكان نظام الملك حصيفاً، فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه، وظل الطغرائي يعمل في دواوينه، كما ظل على صلته به يمدحه في المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه بائيتان، يشيد فيهما به وبانتصارات جيوش الدولة في الشرق وفي الغرب على شاكلة قوله:

---

(١) انظر في ترجمة الطغرائي وشعره معجم الأدباء ١٠/ ٥٦ وابن خلكان ٢/ ١٨٥ والأنساب للسمعاني ٥٤٣ والشذرات ٤/ ٤١ ومقدمة الصفدي لشرحه على قصيدة الطغرائي، لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطغرائي للدكتور على جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتابه الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، وديوان الطغرائي مطبوع قديماً بإستانبول وطبعت لاميته مع سروج لها وأهم شروحها شرح الصفدي (طبع القاهرة).

(٢) العلم عند العرب لألدوميلي ص٣٠٧-٣١٠ وكتاب الشعر العربي السالف للدكتور علي جواد الطاهر ٢/ ١٥٥.

خَمِيسٌ أقاصي الشرق تَرْزِمُ تحته ... وترتجُّ منه أُخْرياتُ المغاربِ [1]

يلفَهمُ بالرُّعب قبل طِرادِهِمْ ... ويهزمهم بالكتْب قبلَ الكتائبِ

وفي هذه الأثناء يتزوج، وما تلبث زوجته أن تتوفى وتترك له رضيعاً لا يزال يجد في نفسه شجى عميقاً عليها، ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله:

بنفسيَ من غاليتُ فيها بمهجتي ... وجاهي وما حازتْ يدايَ من الوَفْرِ

وفُزْتُ بها من بين يأسٍ وخيْبَةٍ ... كما استخرج الغَوَّاصُ لؤلؤةَ البَحْرِ

فجاءتْ كما جاء المُنى واشتهى الهوى ... فإن بقائي بعدها غايةُ وفي سِتْرِ

فيا موتُ ألحقْني بها غيرَ غادرٍ ... فإن بقائي بعدها غايةُ الغَدْر

وهي مرثية بديعة، فقد أظلمت الدنيا في عيني الطغرائي بعد زوجته الشابة الجميلة. ولم يعد له سوى الأنين والدموع والزفرات، وإنه لشيح بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه مفضياً إلى لوعات قلبه وحسرات نفسه، إذ تركت بي جوانحه ناراً لا تنطفئ، ويتوجه إليها بالخطاب نادباً لحظه العاثر، منشداً:

لآنَسْتِنا حتى إذا ما بَهَرْتنا ... سَنًا وسناءً غِبْتِ غيبوبة البَدْرِ

وقد كان رَبْعي آهلا بكِ مُدَّة ... أحِنُّ إليه حَنَّةَ الطَّيْر للوَكْرِ

وآوِى إليه وهْوَ روضةُ جَنَّةٍ ... بدائعُها يَخْتَلْنَ في حَلَلِ حُمْرِ

فمذ بِنْتِ عنه صار أوحَشَ من لَظًى ... وأضيق من قَبْرٍ وأجْدَبَ من قَفْرِ

لقد غاب عنه بدره وانقض وكره ودمرت جنته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعيم في لظى الجحيم، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلما وقفراً مجدباً ويظل يبكيها وتمر به الأيام، فيسلو عنها ويتزوج ويرزق الولد، وهو في أثناء ذلك يعمل في دواوين السلاجقة، ويتوفى نظام الملك، وتضطرب به الحياة، فيتعرض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بالمدح والثناء،

---

(١) ترزم: تسقط إعياء.

وتتوثق صلته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩-٥١٢هـ) ويصبح في عهده نائباً في ديوان الطغراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء. ونراه في مدحه له يتحدث عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تلقي في قلوبهم من فزع بمثل قوله:

خيلٌ بأرض الرَّقَّتين وراءَها ... نَقْعٌ كمُرْتَكِم الغَمام مُثَارُ

رِيعَ العدوُّ وقد أحسَّ بِقُرْبها ... فالجنبُ نابٍ والرقادُ غِرارُ [1]

وعلى خليج الرُّوم منك مهابةٌ ... من خوفها يتطامنُ التيَّار

ولقد دَرَى الروميُّ أنّ وراءه ... خطراً تقاصَرُ دونه الأخطارُ

ويتحدث في نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عطاش في حصن " شاه دز " بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. ويتولى السميرمي الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغرائي والوزير، ويرحل إلى بغداد وينبو به المقام فيذم في بائية مقامه في العراق مستهلاً ذمه بقوله:

مللتُ ثَوائي بالعراق وملَّني ... رفاقي وكانوا بالعراقِ طِرابا

وينظم حيئنذ لاميته التي اشتهرت خطأ باسم لامية العجم، وقائلها عربي كما مر بنا في نسبه، وليس فيها أي تعصب للعجم ضد العرب، ولعلها سميت بذلك لأن قائلها كان يعيش في بلاد العجم وجعلها على روي لامية العرب للشنفري وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدي، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله، شكوى لا تنكسر فيها نفسه، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته، وتظل له فضائله التي يفخر بها، وهو يستهلها بقوله:

أَصَالَةُ الرأيِ صانتْني عن الخَطَلِ ... وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانَتْنِي لدى العَطَلِ

---

(١) غرار: قليل.

وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حينئذ، أو ربما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف:

فِيمَ الإقامةُ بالزَّوْراء لا سَكنِي ... بها ولا ناقتي فيها ولا جَمَلِي

ويشكو طويلاً الغربة بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار، مع بوار الأماني وانعكاس الآمال. ويرحل مع صديق، ويقتربان من حي إضم بالقرب من المدينة، حي الحبيبة التي ضرب إليها أكباد الإبل، ولكن دونها الحماة بالسهام والبيض والسمر، أو السيوف والرماح، والأسد رابضة حول الكناس. ويتمنى إلمامة بالحي تبرئه من علله، بل ليتمنى الموت في سبيل نظرة، وكل هذا رمز عن مطامحه التي لا يستطيع تحقيقها، وإنه ليصرح بأنه طالب المجد لابد له أن يغامر وأن يركب الأخطار، فإن لم يتحقق له في بلدة طلبه في أخرى، ويصيح:

إن العُلا حَدَّثَتْني وهْي صادقةٌ ... فيما تحدِّث أن العِزَّ في النُّقَلِ

ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال في أن تقبل عليه الأيام ثانية. ويشكو من الدهر ومن الناس، مع شعور غير قليل بالكرامة، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأدعياء قبل الأعداء. ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل زائل، وسننشد قطعة من هذه اللامية في حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة. ولا ندري كيف رغب ثانية في العمل لدى السلاجقة، إذ نراه يقصد إمارة السلطان مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعينه وزيراً له، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان محمود وتدور الدوائر في سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطغرائي ويقتل بتهمة الزندقة. ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء، فاتهموه بالسحر والإلحاد، واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله. والشكوى كثيرة في أشعار الطغرائي وتكفي منها لاميته السالفة. وفي ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحي فيها حجازيات الشريف الرضى ومهيار، ومن طرائف غزله:

يا قلبُ مالكَ والهوى من بعدما ... طابَ السلُّو وأَقْصَرَ العَشَّاقُ

أوَ ما بدا لك في الإفاقة والأُلَى　　نازعْتَهم كأسَ الغرامِ أفاقوا

يا حبَّذا نَجْدٌ وأعراقُ الثَّرى　　لُدْنٌ وأنفاسُ النعيم رِقاقُ

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثالث والمثاني والانتشاء بالخمر في مباهج الربيع، وطبيعي أن يتردد الفخر في أشعاره، على نحو ما ترددت منه رنات في لاميته، وله يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشتى العلوم:

أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ ببُغْيتي　　منها فما أحتاجُ أَنْ أتعلّما

وعرفتُ أسرارَ الخليقةِ كلَّها　　عِلْمًا أنار لِيَ البَهِيمَ المظلما

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصنعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء، وله فيها أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة، ونقل منها الدكتور علي جواد الطاهر طائفة[1] تصور هذا الضرب من شعره العلمي أو التعليمي. ويكثر عند الطغرائي ومعاصريه جميعاً معارضته الشريف الرضي ومهيار في بعض قصائدهما، بل أيضاً معارضته من سبقهما من الشعراء، وربما كانت لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة، ومع ذلك حاول الصفدي في شرحه لها جاهداً أن يرد معاني أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقيه. وكان الطغرائي كشعراء عصره يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف، وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً، وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون، كان آخرهم البارودي في لامية له مشهورة.

(١) انظر الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ٢/ ١٥٥.

الأرَّجاني[١]

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرَّجاني نسبة إلى أرَّجان من كور الأهوز من بلاد إقليم خُوسْتان، وُلد سنة ٤٦٠ ويقل العماد الأصفهاني فيه: "منبت شجرته أرَّجان، وموطن أَسرته تُسْتَرَ وعسكر مُكْرَمَ من خوزستان، وهو وإن كان في العجم مولده فمن العرب محتده، سلفه القديم من الأنصار" فهو عربي النجار، فارسي الموطن. وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق، فظل بها، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعياً، يُحْسن الحكم بين الخصوم وألفُتْيا. وتفجر الشعر على لسانه، فقصد به الوزير السلجوقي المشهور نظام الملك. منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة، وظل ينظمه إلى وفاته بُتستَر سنة ٥٤٤ وكأنه مات عن سن عالية، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفي ذلك يقول:

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافَعٍ ... في العصر، بل أنا أفقهُ الشعراء

وأعدَّته معرفته العميقة بالفقه لكي يشتغل بالقضاء في موطنه ببلاد خوزستان، تارة بتستَر، وتراة بعسكر مُكْرم عن قاضيها ناصر الدين أبي محمد ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء، وفي ذلك يقول:

ومن النوائبِ أنني ... في مثل هذا الشغل نائبْ

ومن العجائبِ أنَّ لي ... صبراً على هذِى العجائبْ

وكان يُحْسن الفارسية وترجم منها عدداً من الرُّباعيات، وأكثر شعره في المديح، ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها:

كم موقفٍ دون العلاءِ وقفتَه ... والخيلُ بالأسَل الطِّوال تصُولُ

---

(١) راجع في ترجمة الأرجاني ابن خلكان ١/ ١٥١ والسبكي ٦/ ٥٢ وشذرات الذهب ٤/ ١٣٧ ومرآة الزمان ٣/ ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٠٦ والمنتظم ١٠/ ١٣٩. والنجوم الزاهرة ٥/ ٢/ ٢٨٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان في أرجان. وديوانه مطبوع قديماً ببيروت

ونـراه يمـدح وزراء بَرْكيـاروق حـين اسـتولى عـلى صـولجان الحكـم بعـد أبيـه ملكـشاه. وفي مقدمتهم الوزير الدهقاني وفيه يقول:

فأتى به العصرُ الأخيرُ وقصَّرتْ ... عن شَأْوِهِ وزراءُ كلِّ الأعْصُرِ

ويظـلُّ عـلى صـلة وطيـدة بـسلاطين الـسلاجقة، يـروح إلـيهم ويغـدو بالمـدائح، ولـه في السلطان محمود مدائح مختلفة، من مثل قوله:

أعلى السلاطين في يَوْمَىْ نَدًى ووغًى ... رَأْيًا وأفضلهُم سرًّا لإعلانِ

ويمدح وزيره السميرمى الذي يقـول فيـه ابـن الأثـير كـان ظالمـاً كثـير المـصادرة للنـاس سـيئ السيرة، ولعله اضطُرَّ إلى مديحه خوفـاً مـن بطـشه بـه كـما بطـش بالـضُّغْرابي، ولـه يقـول في بعـض مديحه:

وأنقذتَ دينَ الله من شرِّ مارقٍ ... وكان كِشلْوٍ بين نابَيْه ناشبِ

وخـصَّ معـين الـدين أحمـد بـن الفـضل وزيـر الـسلطان سـنجر بمـدائح كثـيرة، وصـلته بـه قديمة منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد، وله يقول:

أحلَّك سلطانُ السلاطين رتبةً ... يَضيق بها ذَرْعُ الحسود المساجلِ

وكـان يـزور بغـداد كثـيراً ويمـدح خلفاءهـا ووزراءهـا، ولـه في اخليفـة المـستظهر (٤٨٥-٥١٢هـ) غير مدحة، ونراه يلجج فـيما لجـج فيـه قـديماً مـروان بـن أبي حفـصة وغـيره مـن شـعراء العـصر العبـاسي الأول حـين كـانوا يتحـدثون عـن شرْعيـة الخلافـة وأن العباسـيين أولى بهـا مـن العلـويين لأن العـم يـرث ابـن أخيـه ولا يرثـه ابـن العـم، ويـزعم الأرَّجـاني أن الرسـول عليـه السلام بشَّر بها عمه وأنها تكون في أبنائه، يقول:

بكم قديماً رسولُ الله بشَّرنا ... كما به بشَّرتْنا سالفُ النُّذُرِ

وقال مِنْ بَعْدُ للعباس في ملأٍ ... أفخَرْ فأنت أبو الأملاك في مُضَر

وولى المسترشد (٥١٢-٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه، واصفاً له بالبأس والشجاعة والإقدام محذِراً أعداءه من جيوشه وما تدمِّر وتحطم وتَسْحق كل من يقف في طريقها سَحْقاً. وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفي مقدمتهم بنو جهير، وفيهم يقول:

لله دَرّ بني جهيرٍ إنهم ... جَهَرُوا بدين المجد حتى أُعْلنا

ونوَّه طويلاً بجلال الدين بن صدقة وبأنوشروان بن خالد، وله فيه نحو عشرين مدحة يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواكبه. كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد الدولة محمد بن عبد الكريم، وله يقول في بعض مدائحه:

أمينَ أميرِ المؤمنين الذي اصْطَفَى ... وسَهْمَ أمير المؤمنين المسَّددا

وله غزليات رقيقة، وهي مطبوعة مثل غزليات الطغرائي بطوابع الشريف الرضي ومهيار، ونقصد الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته:

أأحبَّتي الشاكين طولَ تغُّيبي ... والذاهبين على الهوى في مَذْهبي

ما جُبْتُ آفاق البلاد مطِّوفاً ... إلا وأنتم في الورَى مُتَطلَّبي

سَعْي إليكم في الحقيقة، والذي ... تجدون مني فهْو سَعْىُ الدَّهْر بي

أنْحوكمُ ويردّ وجهي القَهْقَرَى ... سَيْرى، فسيري مثلُ سَيْرِ الكوكبِ

فالقصدُ نَحْوَ المشرق الأقصى له ... والسير رأىَ العينِ نحو المغربِ

تالله ما صدق الوشاةُ بما حكَوْا ... أنى نسيتُ العهد عند تغُّربي

والأبيات تحمل معاني وصوراً دقيقة تصور شاعرية الأرجاني وأنه كان يعرف كيف يُطْرف بصوره ومعانيه، مما جعل القدماء يشيدون به، ومن معانيه الغريبة:

رَثَى لي وقد ساويتُه في نُحولهِ ... خياليَ لَّما لم يكن ليَ راحمُ

فدلَّس بي حتى طَرقتُ مكانه ... وأوهمتُ إلْفي أنه بي حالمُ

وبِتْنا ولم يشعر بنا الناسُ ليلةً ... أنا ساهرٌ في جَفْنهِ وهْو نائمُ

وهو بعد في الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم، وكان مثل الطغرائي يشكون من الزمن ومن الناس، وقلماء تجد شاعراً في هذا العصر لا يشكو، ومن شكواه قوله:

ولما بلوتُ الناسَ أطلبُ عندهم ... أخا ثقةٍ عند اعتراض الشدائدِ

تطلعتُ في حالَيْ رخاءٍ وشدَّةٍ ... وناديتْ في الأحْياء هل من مساعدِ

فلم أر فيما ساءني غيرَ شامتٍ ... ولم أر فيما سرَّني غير حاسدِ

تمتعتما يا ناظريَّ بنظرةٍ ... وأوردتما قلبي أمرَّ الموارِدِ

أعينيَّ كُفَّا عن فؤادي فإنه ... من البَغْى سَعْيُ أثنين في قَتْل واحدِ

فحتى عيناه لا ترحمانه بما تدلعان في قلبه من جحيم الفتنة بالجمال. وله رباعيات كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف، وقد نظم في مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على ثمانين رباعية. ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته في نظم بيت يُقْرأ طرداً وعكْساً مثل قوله:

أحبُّ المرءَ ظاهُرهُ جميلٌ ... لصاحبه وباطنهُ سليمُ

مودَّته تدومُ لكلِّ هولٍ ... وهل كلِّ مودَّته تدومُ

فالبيت الثاني يقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يقرأ من أوله إلى آخره، ونجد عند الأرجاني أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب، بل على أربع قواف، وهي تدل على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنيه خالصة. ولعل في كل ما أسلفنا ما يوضح شخصية الأرجاني الشعرية.

٤

شعراء المراثي

نشط الرثاء طوال هذا العصر، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة، وانضم إلى ذلك كرم فياض، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذي كان غيثاً مدراراً للشعر والشعراء، فأتوه من كل فَجٍّ، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات، ونرى الثعالبي في يتيمته يتوقف مراراً ليذكر لنا بعض الأشعرا التي قيلت في مديحه، وبالمثل الأخرى التي قيلت في رثائه، من ذلك قول أبي سعيد الرستمي [١].

أبعدَ ابن عبَّادٍ يهشُّ إلى السُّرى ... أخو أملٍ أو يُستماحُ جوادُ

أبى اللهُ إلا أن يموتا بموتهِ ... فما لهما حتى المعادِ مَعَادُ

وحُمل تابوته من الرَّيِّ إلى أصفهان، ودُفن في محله تُعْرَف بباب دُزيه، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه، وتقدَّم أبو منصور أحمد بن محمد اللُّجَيْمِيّ ويُنْشد معبراً عنه بلقبه: "كافي الكفاة"[٢]:

ثَوَى الجود والكافي معاً في حُفَيْرةٍ ... ليأنس كلٌّ منهما بأخيهِ

هما اصطحبا حَيَّيْن ثم تعانقا ... ضجيعين في قبرٍ بباب دُزيهِ

ومرَّ بنا الحديث عن محمود الغزنوي وفتوحه في إران والند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام، وكان مثقفاً وطلب- كما مر بنا- إلى بلاطه العلماء والأدباء، وأقبلوا عليه يصنِّفون له كثيراً من الكتب في فنون العلوم، وقصده الشعراء من جميع البلدان في إيران،

---

(١) اليتيمة ٣/ ٢٨٠.

(٢) اليتيمة ٤/ ٤٠٩.

فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطاياه، فلما توفي بكاه غير شاعر، وفي مقدمتهم أبو علي الحسن بن محمد الدَّامَغاني، وفيه يقول [١]:

مضَى الأُفْعوان الصِّلُّ والأَسَدُ الوَرْدُ ... وتاجُ ملوكِ الأرض والفارسُ النَّحْدُ

ولم أدْرِ أن الشمسَ يَسْترها ثَرىً ... ولا الفَلَكُ الأعلى يُغَيِّبه لَحْدُ

وأحسَّ الشراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور، الذي عَمَّ العلماء والشعراء ببرِّه، وأُلِّفت باسمه مصنفات كثيرة، وكان مجلسه يَغَصُّ دائماً بالفقهاء والقرَّاء والأدباء، فلما توفي أكثر الشعراء من رثائه، ومن جِيِّد ما قيل فيه قول خَتنه شِبْل الدولة مقاتل بن عطية [٢]:

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ... يتيمةً صاغها الرحمنُ من شرفِ

عَزَّتْ فلم تَعْرف الأيامُ قيمتَها ... فردَّها، غَيْرةً منه، إلى الصَّدَفِ

وظاهرة جديدة في الرثاء لهذا العصر، قد تكون لها مقدمات في العصر العباسي، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء في كل فن، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه في رثائه، فمن ذلك رثاء أبي الحسن عبد الرحمن البُوشَنْجِيّ لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان، وفيه يقول [٣]:

أَوْدَى الإمامُ الحَبْرُ إسماعيلُ ... لَهْفى عليه فليس منْه بديلُ

بكتِ السما والأرض يوم وفاتِهِ ... وبكى عليه الوَحْيُ والتَّنْزيلُ

والشمسُ والقمرُ المنيرُ تناوَحا ... حَزَناً عليه وللنُّجوم عَويلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكي سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدِّثين وأئمة الإسلام كثيراً، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل ايتيمة ودُمْية القصر وكتب

---

(١) تتمة اليتيمة ١/ ١٥٣ والأفعوان الصل: الذي لا تفيد معه الرقية، والورد: الفاتك.

(٢) ابن الأثير ١٠/ ٢٠٦.

(٣) االسبكي ٤/ ٢٨٣.

التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خِلِّكان ومعجم الأدباء لياقوت، من ذلك قول أبي الفرج حَمْد بن محمد الهمذاني في رثاء الشيخ الإمام أبي محمد الجُوَيْنِيِّ [١]:

علومٌ علتْ أعلامَها غَبَراتُها ... وأعينُ أعيانٍ طغتْ عَبراتُها

وأفلاذُ أكْبادٍ من الفضل فُتِّتَتْ ... فدلَّتْ على تَفْتيتها زَفراتُها

تداعتْ مباني الدين وانهدَّ رُكْنهُ ... وهُدِّمَ من أطْواده صَخَراتُها

وبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجوبني من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مَادةٍ وتفنناً في العلوم من الأصول والفروع. ولما توفي أُغلقت الأسواق في نيسابور إجلالاً له وتكرمة، وكُسر مِنْبَره في الجامع وقعد الناس لعزائه، كما يقول ابن خلكان، وأكثروا فيه من المراثي، كقول بعض تلاميذه [٢]:

قلوبُ العالمين على المَقالي ... وأيامُ الوَرَى شِبْهُ الليالي

أَيُثْمِرُ غُصْنُ أَهْلِ العلم يوماً ... وقد مات الإمامُ أبو المعالي

ونجد بين أساتذة الزمخشري أستاذاً مغموراً درس عليه النحو، يسمى أبا مضر منصوراً، ومع ذلك نراه- حين يلبي نداء ربه- يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً، فيرثيه بقوله[٣]:

وقائلةٍ: ما هذا الدُّررُ التي ... تساقَطُ من عينيكَ سِمْطَيْن سِمْطَيْن

فقلتُ هو الدرُّ الذي كان قد حَشا ... أبو مُضَرٍ أُذْني تساقَطَ من عيني

وهي صورة بديعة، فدرر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه، أودعها الزمخشري في سمعه فجرت من مدمعه.

---

(١) الدمية ١/ ٥٥٧.

(٢) ابن خلكان ٣/ ١٧٠.

(٣) ابن خلكان ٥/ ١٧٢.

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوهم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم وآبائهم وللباخرزي رثاء لأبويه، ولأبي الحسن الحسيني البلخي رثاء جيد لأمه [١]. ومر بنا عند الطغرائي رثاؤه لزوجته التي ماتت في ريعان الشباب، وفي ديوانه مرثية لها قافية، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مطرقتان، وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ، يقول:

ولم أنسها والموتُ يقبض كفَّها ... ويبسُطها والعينُ تَرْنو وتُطْرِقُ

هلالٌ ثَوَى من قبل أن تمَّ نورُه ... وغُصْنٌ ذَوَى فَيْنانُه وهْو مُورِقُ

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به، وهو لا يكاد يصدق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً، والدموع تنهل على خديه، وكله حسرات ولوعات.

ومر بنا في كتابي العصر العباسي الأول والثاني بكاء الشعراء للمدن، حين تنزل بها صواعق النهب والحريق، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون، وبكوا البصرة حين هجم عليها الزنج في أواسط القرن الثالث ودمروا مساكنها وفتكوا بأهلها. وكانت كارثة هذا العصر أعظم وأطم، ونقصد تدمير المغول لبغداد في سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها نحو مليون أو يزيدون، وأشعلها بها الحرائق وأعملوا النهب حتى في الكتب والمكتبات، وكان ذلك دماراً فظيعاً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية، أو قل كان ذلك أفولاً لنجمها الذي طالما تألق في سماء البلاد العربية جميعاً، وطبيعي أن نجد من شعراء إيران من يبكون المدينة العظيمة، وفي مقدمة من بكاها منهم الشيخ سعدي الشيرازي المتصوف الفارسي المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة، وهو يشتهر بكتاباته الصوفية الفارسية التي يمثلها كتاباه: جُلُسْتان وبوستان، غير أشعار فارسية وعربية كثيرة، وقصيدته [٢] في دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلها بقوله:

---

(١) الدمية ٢/ ٢٠٨.

(٢) متنبي وسعدي للدكتور حسين محفوظ (طبع طهران) ص٧٣.

حبستُ بجفنيَّ المدامعَ لا تَجْرِي فلما طغى الماءُ استطال على السَّكْر [1]

ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على علمائها الراسخين في العلم وكيف تبكي المحابر أئمتها وجهابذتها، وهو يندب ويبكي ويذرب الدموع، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلاً:

أيا ناصحي بالصَّبْر دَعْني وزَفْرتي أموضعُ صَبْرٍ والكبودُ على الجَمْرِ

ويقول تحولت دجلة دماً قانياً، ويرثى الخليفة الشهيد: المستعصم والشهداء الأبرار ويهنئهم بالفردوس، ويتحدث عن سبايا المسلمين، والمغول يسوقونهن في الصحراء، والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربي المجيد وكيف وقعت فريسة لذئاب المغول الكاسرة.

ولم نتحدث حتى الآن عن مراثي الشيعة للإمام علي بن أبي طالب والحسين، ولا ريب في أنها كانت كثيرة، إذ انتشر التشيع في إيران منذ عصر بني بويه، واعتاد الشيعة أن يعقدوا سنوياً مأتماً كبيراً في يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينة لاستشهاده، وكان الشعراء يرثون الحسين في تلك الذكرى القاتمة مراثي كلها أنين وزفرات. ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة في رثاء الحسين، ونراه يألم ألماً شديداً لهذه الجريمة البشعة، التي مثل فيها بحفيد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يكرر في مراثيه الأنين والبكاء والدمع المدرار. وله شعر كثير في فضائل علي بن أبي طالب يدخل في الشعر الشيعي بعامة، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلي بن أبي طالب المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته في الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه في الخلافة. ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدي المختفي ورجعته ليرد حق أسرته الضائع ويعيد س الشريعة. والأشعار المتصلة به تغرق لا في الرثاء، بل في المديح، مثل الأشعارالمتصلة بالإمام علي، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان، وخير قصيدة

(١) السكر: ما سد به النهر.

تصوره قصيدة بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته وظله [١]. ونتوقف قليلاً عند شاعر شيعي من شعراء الرثاء.

أبو الحسن[٢] علي بن أحمد الجوهري الجرجاني

نشأ بجرجان، واجتذبه الصاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبهم من أدباء عصره وشعرائه، ونراه يقربه منه ويرفع مكانته عنده. ويتخذه في ندمائه، وتستهل ترجمته في اليتيمة برسالة كتبها إلى أبي العباس الضبي نائب الصاحب في أصبهان يشيد فيها به، ويقول إنه يحسن الشعر في اللسانين العربي والفارسي كما يحسن النثر. ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام، كما يقول الثعالبي، حتى يلبي نداء ربه، ويقول من ترجموا له إنه توفي سنة ٣٨٠، ولا يذكر له الثعالبي شيئاً من شعره الشيعي ولا من رثائه للحسين، ومما يروى له في بكاء الحسن قوله:

أهلَ الكِساءِ صلاةُ الله نازلةٌ ... عليكمُ الدهرَ من مَثْنَى ووُحْدانِ

أنتم نجومُ بني حوَّاءَ ما طلعتْ ... شمسُ النهار وما لاح السِّماكانِ

ويشير الجوهري بفكرة الكساء إلى ما يروى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام علي والحسن والحسين كساء، وقال: نحن أهل البيت.. ويشير الجوهري في القصيدة إلى مقتل الحسين وسباء كل من كانوا معه من أهله، وله مرثية أخرى للحسين يبدؤها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكياً نادباً قائلاً:

يا أهل عاشورَ يا لهفي على الدينِ ... خذوا حدادكمُ يا آل ياسينِ

اليوم قام بأعلى الطَّفِّ نادبُهم ... يقول مَنْ ليتيمٍ أو لمسْكين

يا عينُ لا تَدَعِي شيئاً لغاديةٍ ... تَهْمِي ولا تَدَعي دَمْعاً لمحزونِ

---

(١) انظر الكشكول للعاملي (طبعة الحلبي) ١/ ١٧٦.

(٢) انظر في الجوهري اليتيمة ٤/ ٢٧ وأعيان الشيعة ج٤١ ص٤١ وأدب الطف أو شعر الحسين لجواد شبر (طبع بيروت) ٢/ ١٣٠ وما بعدها.

يا آل أحمدَ إنَّ الجوهريّ لكم　　سيفٌ يقطِّع عنكم كلَّ مَوَضون [١]

والأبيات تصور المأساة تصويراً محزناً ملتاعاً. والطف هو الموضع الذي استشهد فيه الحسين، والجوهري لا يرقأ دمعه، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكف ولا تجف، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوي الطاهر.

وينشد الثعالبي للجوهري أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبي العباس الضبي ولبعض الوجهاء، كما تتصل بالغزل وبتصوير بعض الأطعمة وبهجاء بعض الأشخاص، وله خمريات طريفة يمزجها بالحديث عن الطبيعة، كقوله في دعوة بعض أصدقائه إلى الصبوح:

شجرٌ مُدْنَفٌ وجوٌّ عليلٌ　　وصباحٌ يميل كالنَّشْوانِ

صاحِ إن الزمان أقصرُ عمراً　　أن يُراع المُنى بصَرْفِ الزمانِ

رَقَّ عني ملاحفُ الليل فانهَضْ　　برقيقٍ من صَوْب تلك الدِّنانِ

كعصير الخدود في يَقَقِ الأو　　جه أو كالدموع في الأجفان [٢]

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة في التصوير، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته، وأن يأتي بصور مبتكرة، على شاكلة قوله:

صَكَّ النسيمُ فِراخَ الغَيْث فانزعجتْ　　يَنْفُضْنَ أجنحةً من عَنْبَرِ الزَّغَبِ

ويقول الثعالبي: لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كشعيرات الريش المتطايرة.

---

(١) الموضون: الدرع المنسوج.

(٢) اليقق: شدة البياض.

٥

شعراء الهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعرا يريشون سهام الهجاء في هذا العصر كما كانوا يريشونها في العصور السابقة، تارة يسددها بعضهم إلى صدور بعض، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم، وقد تسدد إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً، لمجرد أنه تأخر في جائزة شاعر، أو لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر، أو لأنه أسخطه لأي سبب من الأسباب. ومر بنا أن الصاحب بن عباد وزير بني بويه كان ينهال عليه المديح انهيالاً لكثرة ما كان يغدقه على الشعراء، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مات، ومع ذلك كان لا يسلم من ألسنة بعضهم مثل أبي العلاء الأسدي، وكان كما يقول الثعالبي قديم الصحبة له، شديد الاختصاص به، ممتد الغرة والتحجيل في شعرائه وصنائعه وندمائه. وكان يوده ويأنس به ويكاتبه نثراً ونظماً. وإليه كتب: " أبا العلاء شيخي أين ذلك الميعاد؟ وأين تلك العهود سقتها العهاد (الأمطار).. وأين كتبك التي هي ألذ من انتهاء النفس إلى رجائها، وابتداء العين في إغفائها". ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً، فأسرع يهجوه بقوله [١]:

إذا رأيتَ مُسَجَّى في مرقَّعةٍ ... يأوى المساجدَ حُرًّا ضُرُّ بادي

فاعلمْ بأن الفتى المسكين قد قذفتْ ... به الخطوبُ إلى لؤم ابن عبَّادِ

وهو يصفه باللؤم، ويصغر من جوده الذي شاع عنه في سخرة مرة. وانتقم للصاحب من أبي العلاء الأسدي زميل له من الشعراء يسمى عبدان الأصبهاني جعله عرضة وهدفاً لأهاجيه، ومن قوله فيه [٢]:

أبا العلاء اسكتْ ولا تُؤْذنا ... بِشَيْنِ هذا النسبِ الباردِ

---

(١) اليتيمة ٣/ ٢٧٧.

(٢) اليتيمة ٣/ ٢٩٨.

وتدَّعي في أسَدٍ نِسْبةً ... لا تثبتُ الدعوى بلا شاهدِ

أقِمْ لنا والدةً أوَّلاً ... وأنت في حِلٍّ من الوالدِ

وهي سخرية لاذعة. ومن كبار الهجائين في أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن اللحام، وفيه يقول الثعالبي: لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه، وكان لا يهجو إلا الصدور، وفي مقدمتهم البلعمي وزير السامانيين وفيه يقول [١]:

وزارةُ البلعميِّ منقلبهْ ... وهْو كقُفْلٍ غدا على خرِبَهْ

لم يَرْعَ للأولياء حُرْمَتهم ... فيها ولا للوجوه والكَتبْه

فهْو أحقُّ الورى بداهيةٍ ... تضْحى لها رأسُه على خَشَبه

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مثلة للناظرين، وكان عبدان آنف الذكر يستثيره كثيراً فما زال يفكر في أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام، وهداه طول تفكيره إلى قوله فيه [٢]:

عبدانُ هامتُه للصَّفْع معتاده ... لاسِيَّما من أكفِّ السادةِ القاده

كأنَّ أيدي النّدامَى في تناولها ... أيدي صِيامٍ إلى كيزانِ بَرَّاده

والبرادة: إناء يبرد الماء. وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً عند بعض الشعراء حداً يجعلهم يعمونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد، فإذا هم يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودي الرازي في قوله [٣]:

لا يصحبنَّ ملوكَنا إلا امرؤ ... لِصٌّ مغنٍّ مُفْلِسٌ قَوَّادُ

فلهُ لديهمْ زُلْفَةٌ ومنالةٌ ... ولمن تحرَّج واستعفَّ كسادُ

---

(١) اليتيمة ٤/ ١٠٨.

(٢) اليتيمة ٤/ ١١٢.

(٣) تتمة اليتيمة ١/ ١٢٣.

والبيتان يمسخان الملوك حينئذ مسخاً. وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها، ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلطوا عليها سهام هجائهم، وقد يتعرضوا لصفة في الشخص ذميمة، فيهجونه بها، كصفة الحمق، ولابن حَسْول يهجو المتكبرين عليه [١]:

دخلتُ على الشيخ فيمن دَخَلْ ... فغربَل عُصْعُصَهُ وانتحَلْ [٢]

وأظهر من نخوة الكبريا ... ء مالم أقدِّر ومالم أخَلْ

فقلتث له مؤثراً نُصْحَهُ ... وقد يُقْبَلُ النُّصْح ممن نَخَلْ

إذا كنتَ سيدنا سُدْتضنا ... وإن كنت للخال فاذهبْ فَخَلّ

أخلَّ بحقِّ دُهاةِ الرِّجالِ ... فمازال يُصْفَعُ حتى أَخَلّ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف، وقد دخل عليه فلم يقم له، وكأنما همّ أن يرفع نفسه وعصعصه أو مؤخرته، ثم تخلّى عن ذلك وتمكَّن من مجلسه، فعرف أنه متكبر متعاظم، وهو مالا يكاد يظنه، فحاول أن ينصحه نصيحة من نخَل القول وعرف صوابه وخطأه، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقاً سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخلِّ عنك، غير أنه لم يستمع نصحه فمازال يُصْفَعُ، حتى أصابه الخلل.

وكان الفخر في هذا العصر يراف الهجاء كما رافقه في العصور السابقة، وقلما يحسن الشعرَ أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه، وفي كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بني بويه، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر، ويلقانا فخر كثير للشعراء، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها، من مثل قول علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المديح [٣]:

ألا إنني أَرْمِى بكلِّ بديعةٍ ... يَبِتْنَ بألباب الرِّجالِ لواعبا

---

(١) دمية القصر ١/ ٤١٥.

(٢) العصعص: نهاية العمود الفقاري، وغربلة العصعص: تمكنه في الجلوس. انتحل: ادعى لنفسه ما ليس له.

(٣) اليتيمة ٤/ ٢٠.

تسيرُ ولم ترحَلْ، وتدنو وقد نأتْ ... وتُكْسب حُفَّاظَ الرجالِ المراتبا

ترى الناس إما مُسْتَهاما بذكرها ... وَلُوعاً وإما مُسْتعيراً وغاصباً

فأشعاره كلها- في رأيه- بدائع وطرائف، تنتشر في الناس حتى أقاصي الأرض، لكثرة رواتها والمعجبين بها، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة. وكثر الفخر في العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة المحصول والتعمق في الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة.

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس، وهي شكوى قديمة، غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة، لما شاع فيه من كثرة البؤس والضنك في حياة الشعب، فضلاً عن الشعراء. ودائماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا تصله الجوائز الكبيرة، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره، فتظلم الدنيا في عينيه، ويراها سواداً في سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له. ومثله العالم الفاضل الذي يرى علمه كاسداً، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقبَّل الأبواب، فبؤساً للعلم يكون هذا جواءه، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه. ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهرة الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وهما أروع ما صُنِّف في البيان العربي، وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فجٍّ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه في نعيم الحياة مخلِّفين له البؤس والشظف، مما جعله يهتف بمثل قوله [1]:

هذا زمانٌ ليس فيـ ... ـهِ سوى النَّذالةِ والجهالَهْ

لم يَرْقَ فيهِ صاعِدٌ ... إلا وسُلَّمُه النَّذاله

واقْرَأ في اليتيمة ودُمْية القصر والخريدة فستجد سيول هذه الشكوى تتدافع من كل جانب. وكثيراً ما كان يحدث لأمير أن يُسْلَب سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء، فكان منهم من ينظم الشعر يْدعه شجوه، ومرت بنا مأساة قابوس بن وَشْمكير صاحب طبرستان إذ عزلته عن سلطانه حاشيته وألقت به في غياهب السجون بإحدى القلاع حتى

(١) الدمية ٢/ ١٨.

مات لَوْعَة من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه، وكان شاعراً كما كان كاتباً، فمضى يشكوى شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه، بل مع غير قليل من الصلابة، على شاكلة قوله [١]:

قُلْ للذي بِصُروف الدَّهْرِ عَيَّرنا ... هل حاربَ الدهرُ إلا مَن له خَطَرْ

أما ترى البحرَ تعلوم فوقه جِيَفٌ ... وتَستقرّ بأقصى قَعْرِهِ الدُّرَرُ

فإن تكن عبثتْ أيدي الزمان بنا ... ومسَّنا من تمادي بؤسه ضَرَرُ

ففي السماء نجومٌ مالها عَدَدٌ ... وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد، فالزمان كله بؤس وتعاسة، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم، بل كلهم أخسّاء أنذال، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني [٢]:

ما في زمانك ماجدٌ ... لو قد تأمَّلتَ الشواهدُ

فاشْهَدْ بِصِدْقِ مقالتي ... أولاً فكذِّبني بواحدْ

فهو لا يرى في الدنيا ما جدا واحداً، وكأنما الناس كلهم أشرار، ليس فيهم من تجد عنده شيئاً من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة. ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمي والأبيّوْردي.

أبو بكر [٣] الخُوَارِزْميّ

أصله من طَبَرِسْتان ومولده ومنشؤه خُوَارِزْم، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف، وقد فارق موطنه في ريعان شبابه، وأقام بالشام مدة. وهو أحد

---

(١) اليتيمة ٤/ ٦١ وابن خلكان ٤/ ٨٠.

(٢) الدمية ٢/ ٢٨.

(٣) انظر في الخوارزمي وشعره اليتيمة ٤/ ١٩٤ وابن خلكان ٤/ ٤٠٠ والوافي بالوفيات٣/ ١٩١ والشذرات ٣/ ١٠٥ وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف) ص٢٣٠ وما بعدها.

الشعراء والكتاب المجيدين في عصره، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته، رحل إلى الشام والعراق وبخاري ونيسابور وسجستان، ثم قصد الصاحب بن عباد، فأكرمه وأعلى منزلته، وغمره بما كان سبباً لثرائه وأرتياشه، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عَقَارا وضِياعاً، وكان لا يزال يأتيه رسم أو راتب من قبل الصاحب منذ انصرافه عن حضرته. وكان ذلك سبباً في أن يتعصب تعصباً شديداً للبويهيين ضد السامنيين أصحاب نيسابور وبخاري، وناله من ذلك بعض السوء، لولا توسط الصاحب بن عباد له عند بعض وزرائهم. وكان شيعيًّا وكانت نيسابور سنية، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الهمَذاني على بلدتهم، فعقدوا مناظرة بينهما انتصروا فيها للبديع، وتصادف أن توفِّي الخُوارزمي عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه. وقد خلَّف الخوارزمي ديوان رسائل كبير وهو مطبوع، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن، غير أن في كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره في النسيب والغزل والمديح والمراثي وفي فنون مختلفة في مقدمتها الهجاء، وكان طبيعياً أن يصَّبه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه، أو صادروا، بعض ماله وضزجّوا به في سجونهم، وأفرجوا عنه، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله:

جَزَى اللهُ عني أهلَ سامانَ ما أتَوْا ... وفي الله للثأر المضيَّع طالبُ

همُ زوّجوني الهمَّ بعد طَلاقهِ ... وذلك عُرْسٌ للمآتم جالبُ

وأنْحضوْا لزرعي بالحصاد وأَنْضَبُوا ... مياهاً لها أيدي سِواهمْ مَذانبُ

أتحصُد أيديكم وَيْزرع غَيْرُكم ... فأنتم جَرادٌ والموكُ سحائبُ

فهم يحصدون ما زرعه آل بويه ووزراؤهم، ويأكلونه ناراً، وكأنهم جراد منتشر يصيب البلاد بالخراب والوبال بينما البويهيون سحائب غيث منهلة. تروي من يعيشون في بقاعهم القريبة وفي بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين. وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنيين، غير أنه اكتفى في هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ في توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق، يقول:

مالي رأيتُ بني العبَّاسِ قد فتحوا ... من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا

قَلَّ الدراهمُ في كَفَّيْ خَليفتِنا ... هذا فأنفقَ في الأقوام ألقابا

ولا شك في أنها تدل على ما أصاب المجتمع في إيران وغير إيران من تدهور، وكان يغيظ الخوارزمي الشيعي المتعصب لتشيعه الغالي في تعصبه أن يرى أحياناً فقيهاً يلقن ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المتشيعة ناصبية فيدعي عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف.

مُجْبِرُ صيَّر ابنه ناصِبيًّا ... مجبراً مثله وتلك عجيبَهْ

والمجبر الذي يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له في فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة في يد القدر يوجهه كيف يشاء. وأسخطه طاهر بن شار الطبرستاني، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله:

لله في كل ما قضاهُ ... لطائفٌ تحتها بدائعْ

سُبْحانَ من يُطْعم ابن شارٍ ... ويترك الكَلْب وَهْوَ جائع

وهو إقذاع مرير، فقد جعله دون الكلب وأقل منه، وحتى يد الصاحب بن عباد الذي طالما أسبغ عليه من نواله، بل لقد جعل له راتباً معلوماً، كما قدمنا، يصله في نيسابور، نجده يخدشها بل يعضها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له، فإذا هو يذمه ذماً قبيحاً قائلاً:

لا تحمدنَّ ابنَ عبادٍ وإن هَطَلتْ ... يَداه بالجود حتى أَجْجَلَ الدَيَما

فإنها خطراتٌ من وَسَاوِسِه ... يُعْطي ويمنع لا بُخْلا ولا كَرما

فعطاياه التي طبقت الشعراء في إيران وغير إيران إنما هي وساوس وهواجس تلم به أحياناً. وهو كفران شديد للمعروف، وكأنها طبيعة للخوارزمي أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلمه وشعره، ويحيله سوط عذاب ينزل به حتى على ولي نعمته.

وتراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله في رثاء صديق، حدث بينهما ما يوجب شيئاً من العتاب، فإذا هو يضخم عتابه ويحيله هجاء قائلاً:

بكيتُ عليك بالعين التي لم ... تزلْ من سوء فعلك بي تجودُ

فها أنا ذا المهنَّا والمعزَّى ... وها أنا ذا الشقيُّ بك السعيدُ

وما أصبحتَ إلا مثل ضِرْسٍ ... تآكلَ فهْو موجودٌ فَقيدُ

ففي تركي له داءٌ دَوِيٌّ ... وفي قَلْعي له ألمٌ شديدُ

وطبيعي لمثل الخوارزمي الذي كان ينشب أظفاره في الحكام والأصدقاء والناس أن يتبرم بهم جميعاً وبدنياه وبالدهر، حتى ليقول:

لا تشكرِ الدهرَ لخيرٍ سَبّبَهْ ... فإنه لم يتعمَّدْ في الهِبَهْ

وإنما أخطأ فيك مَذهَبَهْ ... كالسَّيْل إذ يَسْقي مكاناً خَرَّبَهْ

وله وراء ذلك كله مداح في البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات ووصف للطبيعة وورودها ورياحينها. وفتح الثعالبي له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته أشعار غيره في شعره، وهم يمتدون على الحقب من العصر الجاهلي حتى عصره.

الأبيورديّ[1]

هو أبو المظفر محمد بن أحمد، من أبناء معاوية بن محمد عفيد عنيسة بن أبي سفيان بن صخر بن حرب الأموي، مولده ومنشأه بأبيورد في خراسان، وقد تفقه على إمام الحرمين الجويني بنيسابور، وله فيه مدائح بديعة. وسمع عبد القاهر الجرجاني، ولعل له أثراً في رهافة ذوقه الأدبي. وأكب على المعارف يحصلها، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد يصنف كتباً

(١) انظر في الأبيوردي وشعره معجم الأدباء ١٧/ ٢٣٤ وابن خلكان ٤/ ٤٤٤ والوافي بالوفيات ٢/ ٩١ والسبكي ٦/ ٨١ والمنتظم ٩/ ١٧٦ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٥١، ٢٠٦ وابن الأثير ١٠/ ٢٨٤ ومرآة الجنان ٣/ ١٩٦ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٤١ وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ٤/ ١٨ وإنباه الرواة ٣/ ٤٩ وديوانه مطبوع بالمطبعة العثمانية بليسان.

مختلفة في الأنساب وغيرها. وفتح له الشعر والأدب العمل في دواوين السلاجقة في بغداد وأصفهان وغيرهما من بلدانهم. ويبدو أنه ظل في بغداد طويلاً، إذ يروى عنه أنه قال: كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعي على العربية، وبعد أنا أرتضخ لكنة أعجمية. وفي بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك، فلما عادى هذا الوزير عميد الدولة بن منوجهر هجاه الأبيوردي، فدس عليه عند الخليفة أنه هجاه ومدح صاحب مصر الفاطمي. وخشي الأبيوردي على نفسه فترك بغداد إلى همذان حتى سكن جأشه وهدأ روعه. وتدل على الحقبة التي أمضاها ببغداد قصائده في الخليفة المقتدى (٤٦٧-٤٨٧هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة. ويقول بعض الرواة إنما هجر بغداد لأنه كان يرشح من كلامه نوع تشبيب بالخلافة التي كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة. فاضطر إلى مفارقته بغداد إلى همذان، وبقي فيها مدة يدرس ويفيد ويصنف. وقال العمادة في الخريدة: تولى في آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ)، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانته قدماه وتوفي على الأثر، فحُمل إلى منزله بأصفهان، ويقال: بل لم يسق السم، وكل ما في الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابع الفزع فارتعد وسقط ميتاً.

ويعد الأبيوردي من أشهر شعراء هذا العصر، وديوانه كبير، وقد وزعه على أقسام، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات. وله شعر كثير في الفخر بنسبه الأموي وبيان فضله وحقه في الخلافة، ويقولون إنه كان إذا صلى قال: اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها، ولعل هذا الهوس فيه هو سبب حتفه على يد السلطان محمد، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله:

يا مَنْ يُساجِلُني وليس بمدركٍ ... شَأْوى وأينَ له جلالةُ مَنْصِبي

لا تتعبنَّ فدونَ ما أمَّلْتَه ... خَرْطُ القَتادة وامْتِطاءُ الكوكبِ (١)

والمجدُ يعلم أيُّنا خيرٌ أباً ... فاسألْه تعلمْ أيَّ ذي حسَبٍ أبى

(١) القتادة: نبات له شوك كالإبر، وفي المثل: " من شديدة دونه خرط القتاد " يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة.

جَدِّي معاويةُ الأغرُ سمَتْ به ... جُرْثُومةٌ من طِينِها خُلِقَ النَّبِي

وورثتُه شرفاً رفعتُ منارَهُ ... فبنو أميَّة يفخرون بهِ وَبِي

وهي صورة جامحة من الاعتداد بالآباء، وأين بنو أمية في القرن الأول الهجري منه في القرن الخامس؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من بني هاشم؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو. وهو لا يتوقف عند هذا الحد في فخره العريض، إذ يسوقه في شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول:

الناس من خَوَلِي والدهرُ من خَدَمِي ... وقَمَّةُ المجد عندي مَوْطِئُ القَدَمِ

والنَّسْرُ يَتْبع سَيْفي حين يَلْحظهُ ... والدهرُ يُنْشد ما يَهْمِي به قلمي

لو صيغتِ الأرضُ لي دون الوَرَى ذهباً ... لم تَرْضَها لِمُرَجِّي نائلي هِمَمِي

وعن قليلٍ أُرَى في مأزِقٍ حرجٍ ... به تُشام السُّرَيْجِيَّاتِ في القِمَمِ [1]

والبِيضُ مُرْدَفَةٌ تبدو خلاَخِلُها ... في مسلكٍ وَحِلٍ من عَبْرةٍ ودم

فالمجدُ في صهَوات الخيل مطلَبُه ... والعِزُّ في ظُبَةِ الصَّمْصامة الخَذِمِ [2]

وهو يحلم حلماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تسبى فيها النساء النادبات لأزواجهن وأبنائهن وأهلهن، وتجول وتصول فيها الخيل مردية للأقران، ونسور الفلا تتبعه لتأكل من أشلاء قتلاه، والدهر ينشد مجده الحربي شعراً حماسياً ملتبهاً. وطبيعي أن يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذي لا ينيله مطامحه، وهي شكوى تمتزج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلة قوله:

تنكَّر لي دهري ولم يَدْرِ أنني ... أَعِزُّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ

فبات يُرِيني الخطبَ كيف اعتداؤه ... وَبِتُّ أُريه الصَّبْرَ كيف يكون

---

(١) تشام: ترى ، السريجيات: ضرب من السيوف.

(٢) الصمصامة:السيف ، الخدم: القاطع.

وهذا الجانب في الأبيوردي واعتزازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجر على بيت المقدس، وهو استشعار يحمد له، فإنه أحس الكارثة التي نزلت بالإسلام وأهله، حين دنس الصليبيون بأقدامهم الحرم القدسي، فصاح بأعلى صوته يهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حماهم المستباح في قصيدة طويلة يقول فيها:

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجمِ ... فلم يبق منا عُرْضَةٌ للمَراجمِ [1]

وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها ... على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ

وإخوانكم بالشام يُضْحِي مَقِيلهُم ... ظهورَ المذَاكي أو بطون القَشاعمِ [2]

وكم من دماءٍ قد أبيحتْ ومن دُمًى ... تُوَارِي حياءً حُسْنَها بالمعاصمِ

أَترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ... ويُغْضِي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجمِ

فليتهمُ إذ لم يذودوا حَمِيَّةً ... عن الدين ضَنُّوا غَيْرَةً بالمحارمِ

والقصيدة استنفار قوي للمسلمين من العرب والأعاجم كي يقفوا سداً منيعاً دون حماهم وحمى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يذيقوا الصليبيين وبال حربهم ويردوا كيدهم إلى نحورهم، وهي أولى القصائد التي أخذت طوال قرن تصوب أبياتها، بل سهامها، إلى صدور أعداء الإسلام، حتى استطاع صلاح الدين أن يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم، وكان حقاً على الله نصر المؤمنين.

وللأبيوردي وراء ذلك مدائح كثيرة في الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائهما، وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها في مطالع الفصل التالي، وكانت له مرثية بديعة للحسين تحدث عنها ياقوت، غير أن ديوانه خلا منها، كما خلا من مرثيته للغزالي، التي

---

(١) المراجم: القبيح من الكلام.

(٢) المذاكي: الخيل ، القشاعم: النسور.

أشار إليها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان. وله بيتان طريفان في هجاء أبي النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي، وكان شاعراً، ويستعمل في شعره لزوم ما لا يلزم الذي اشتهر به أبو العلاء في لزومياته، فقال فيه:

شعر المراغيِّ- وحُوشِيتمُ- كعَقْلِه أَسْلَمُهُ أسْقَمُهْ

يَلْزَمُ ما ليس له لازماً لكنَّه يترك ما يَلْزمه

والسخرية واضحة، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر والأخيلة وفنون البديع، بينما يغرقه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء في الشعر بروي واحد، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً في صنع الشعر ونظمه.

obeikandl.com

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حارًّا متدفقاً طوال هذا العصر، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يَشْذُ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه، لا يشذّ عن ذلك سطلان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد. وظل للغزل لوناه المتقابلان على مر العصور: الغزل المادي والغزل العُذْري العفيف، وكان طبيعيا أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجواري وكان كثيرات منهن يحسنَّ الغناء، فملأن قلوب الرجال شغفاً وهياماً. واقرأْ في تراجم الشعراء لهذا العصر فستجد دائماً مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جمالَ معنى وجمالَ صورة وجمال صوت، على شاكلة قول ابن العميد [١].

ظلَّتْ تُظَلِّلُنِي من الشَّمْسِ ... نَفْسٌ أعزُّ عليّ من نَفْسِي

فأقول واعجباً ومن عجبٍ ... مسٌّ تُظَلِّلُني من الشَّمْسِ

وهي صورة بديعة لما فيها من لفت قوي إلى جمال صاحبته، وكان خليفته في وزارته الصاحب بن عباد أشعر منه، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبي طائفه من المقطوعات، من ذلك قوله [٢]:

قال لي إنَّ رَقيبي ... سَيِّئُ الخُلْق فَدَارِهْ

قلتُ دَعْيني وَجْهُك الجنَّـ ... ـةُ حُفَّتْ بالمكاره

---

(١) اليتيمة ٣/ ١٧٨.

(٢) اليتيمة ٣/ ٢٥٤.

وواضح أنه عمد في البيت الثاني إلى الاقتباس من الحديث النبوي: "حُفَّت الجنة بالمكاره" وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله. وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية.

وكانوا يتورَّطون أحياناً في الغزل بالغلمان، وهو وصمه في جبين العصر، تضاف إلى مثيلتها في العصر العباسي، وربما كانوا ينظمونه تندراً ودعابة، أو تقليداً لأسلافهم، وهو تقليد بغيض. ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نَحَّوْ هذا النوع المقيت عن غزلهم، مؤثرين أن يَطْبعوا أشعارهم بطوابع الغزل العفيف الطاهر الذي لا يعرف المتاع المادي للحب ولا اجتناء ثمراته من العناق وغير العناق، إنما يعرف نيرانه المحرقة كما يعرف الحب الظامئ الذي لا يَرْوَى صاحبه أبدا، فدائماً فراق ودائماً حنين واستياق، ودعاء كما قال أبو العلاء الأسدي [1]:

شتَّتوا بالفراق شَمْلي ولكنْ ... جَمَع الله شَمْلهم أين كانوا

وكثيرٌ من هذا الغزل العُذْريّ كان يصوغه العلماء والفقهاء صورة لطهارة نفوسهم ونقائها وما يتجشَّمون في الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شيء من الغريزة النوعية، فقد تساموا عن الحسِّ وكل ما يتصل بالحس. ويكثر في هذا الغزل الحنين المستمد من حنين العذريين، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحسرات ن الفراق والشوق إلى اللقاء. ورمبا لم يُكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبِيَوَرْدي، فقد عل للتجديات أو الغزل النجدي العذري قسماً مستقلاً من أقسام ديوانه الكبير، ومن نجدياته:

نزلنا بِنَعْمان الأراكِ، وللنَّدَى ... سَقِيطٌ به ابتلَّت علينا المَطَارفُ [2]

فبتُّ أُعَاني الوَجْدَ والركبُ نُوَّمٌ ... وقد أخذتْ مني السُّرَى والتَّنائفُ [3]

وأذكر خَوْداً إن دعاني على النَّوَى ... هواها أجابتْه الدموعُ الذوارفُ

---

(١) اليتيمة ٣/ ٣٣٦.

(٢) نَعْمان: ودا بين عرفات والطائف. الأراك: من أشجار البادية، المطارف: الثياب.

(٣) التنائف: المفازات. السرى: السير ليلاً.

لها في مغاني ذلك الشِّعْبِ منزلٌ ... لئن انكرتْه العينُ فالقلبُ عارِفُ

وقفتُ به والدمعُ أكثره دمٌ ... كأنيَ من جَفْني بنَعْمانَ راعفُ [١]

وعلى نحو ما يجعلون محبوبتهم نجدية يجعلونها ممنَّعة، فحولها أُسْدٌ يحمونها، بحيث لا يستطيع المحب الولهان أن يلقاها أو يقرب من حِماها، فدونها الموت الزُّؤام، وفي ذلك يقول الطُّغْرائي في لاميته [٢]:

إني أريد طُروقَ الحيِّ من إضَمٍ ... وقد حَماهُ رُماةُ الحيِّ من ثُعَلِ

يحمون بالبيض والسُّمْر اللِّدانِ به ... سودَ الغدائر حُمْرَ الحَلْي والحُلَلِ

فالحبُ حيث العِدا والأُسْدُ رابضةٌ ... حول الكِناسِ لها غابٌ من الأَسَلِ

فهو يريد الإلمام بحي معشوقته في إضم، فيرى دون ذلك أهوالاً، فقد حماه رماة من عشيرة ثُعل المشهورون منذ امرئ القيس بحذقهم في رمي السهام، وهم مسلحون بالسيوف والرماح، يحمون نساءهم الفاتنات، الرابضات في الخدور وكأنهن \ظباء في كِناس تحوطه غابة ضخمة من الرماح، والأسد جُثُومٌ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب ونقف عند شاعرين من شعراء الغزل في العصر.

أبو الفرج[٣] بن هندو

هو علي بن الحسين بن هندو، وسقطت كلمة على من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبي في تتمتها. وكان من النابهين في الطب والفلسفة والأدب والشعر، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة في المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة. وقد تتلمذ في الفلسفة والطب على يد أبي الخير بن

---

(١) راعف: من الرعاف وهو الدم السائل من الأنف.

(٢) ديوان الطغرائي ص٥٤.

(٣) انظر في ترجمة أبي الفرج بن هندو اليتيمة ٣/ ٣٩٤ وتتمة اليتيمة ١/ ١٣٤ والدمية ٢/ ٥٧ ومعجم الأدباء ١٣/ ١٣٦ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبعة مكتبة الحياة ـ بيروت) ص٤٢٩ وفوات الوفيات ٢/ ٩٥ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ٩٣-٩٥.

الخـمَّار وكـان مـن أجـل تلاميذهـه، ووفـد عـلى الـصاحب بـن عبـاد، فقـرَّ بـه إليـه، وكـان أحـد كتـاب الإنـشاء في ديـوان عـضد الدولـة البـويهي، وعـاش بعـده طـويلاً إلى أن وافتـه المنيـة بجرجان سنة ٤٢٠. وكـان لـه ديـوان شـعر لم يـصل إلينـا، ويقـول الثعـالبي: "هـو مـع ضربـة في الآداب والعلـوم بالـسهام الفـائزة، وملكـه رِقَّ البلاغـة والبراعـة، فَـؤْدُ الـدهر في الـشعر وأوحـد أهـل الفـضل في صـيد المعـاني الـشوارد، ونظـم القلائـد والفرائـد، مـع تهـذيب الألفـاظ البليغـة وتقريـب الأغـراض البعيـدة وتـذكير الـذين يـسمعون ويـروون بقولـه تعـالى: (أَفَـسِحْرٌ هَـذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ)". ويُنْشد له كثيراً من غزلياته وخاصة في التنمة، من ذلك قوله:

تقول: لو كان عاشقاً دَنِفاً ... إذنْ بدتْ صُفْرَةٌ بِخَدَّيْهِ

لا تُنْكريهِ فإن صُفْرَته ... غطَّتْ عليها دماءُ عَيْنَيْهِ

وهـو برهـان بـديع، وطبيعـي لمـن درس الفلـسفة أن يحـسن التعليـل، فـصفرته متواريـة في خَدَّيه، تُواريها دماء عينيه. وتكثر هذه العلل الطريفة في غزله على شاكله قوله:

عارضَ وَرْدُ الغصون وَجْنَتَهُ ... فاتفَّقا في الجمال واخْتَلفا

يزداد بالقَطْف وَرْدُ وَجْنَتِهِ ... وينقصُ الورد كلما قُطِفا

فوجنـة صـاحبته وردهـا غريـب، ورد يزيـده القطـف، إذ يـزداد خـدها بـه خجـلاً واحمـراراً، فيزداد الـورد ويكثـر ولا يـنقص أبـداً ولا تغـيض حمرتـه، بـل لا يـزال يولِّـد فيـه القطـف ورداً لا ينتهي، ويتلطَّف لصاحبه له قائلا:

أيا بدراً بلا كَلَفٍ به ... دونَ الوَرَى كلفِي

أَبِنْ لي دُرَّ ثَغْرِك ما ... بهاءُ الدُّرِّ في الصَّدَفِ

وواضـح أنـه يطلـب إليهـا في رقـة أن تبتـسم لـه، حتـى تنفـتح لـه أبـواب النعـيم عـلى مصاريعها، وعلى مثال هذا التلطف قوله:

قولاً لهذا القَمر البادي ... مالِكَ إصلاحي وإفسادي

زَوِّدْ فؤادا راحلاً قُبْلَةً ... لابُدَّ للرَّاحل من زادِ

فكل مسافر لابد له من زاد، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه: قبلة من محبوبته، تظلُّ تغذّشي مشاعره، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة. ويحاول في غزله دائماً أن يأتي بصور مبتكرة، فيجلب كثيراً من الصور الغريبة كقوله:

ليس بي من أذَى الفراق اكتئابٌ ... قد كفْتني عَنْني جميعَ اكتئابي

كلما شئت أسبلت دمَ قلبي ... فأرى فيه صورةَ الأحباب [1]

فهو لا يكتئب للفراق كغيره من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتئبوا، إذ تردُّ عينه عنه اكتئابه بدموعها التي تنزف فيها دماء قلبه، تلك التي يرى من خلالها صورة الأحباب، فصورتهم لا تغادر دموعه. وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجي فإنه يناقضهم قائلاً:

ليت أن الليل دامتْ ظُلَمُهْ ... فلقد جَلَّتْ لدينا نِعَمُهْ

مثَلَتْ صُدْغَيْكِ لي ظُلْمَتُهُ ... وأرتء خَدَّيْكِ عيني أَنْجُمُهْ

فهو يتمثل في الليل محبوبته، إذ يرى في ظلمته خُصَلَ شعرها المنسدلة على خديها، ويرى خديها في نجومه المتألقة، وهو بُعْدٌ في الوهم والتخيل، وله:

قالوا اشتغلْ عنهُم يوماً بغيرهمُ ... وخادعِ النفسَ إن النفس تنخدعُ

قد صِيغَ قلبي على مقدار حُبِّهم ... فما لحبِّ سِواهم فيه متَّسَعُ

وهو رَدٌّ طريف على من يطلبون إليه السَّلْوى عن بعض أحبابه بحبٍّ سواهم، فقلبه مشغول دائماً بهم وليس فيه مكان لغيرهم. وله معان طريفة كثيرة في موضوعات الشعر المختلفة، من ذلك قوله في بخيل:

لو ماتض لم يأكل العامَ إذا ... ما كان ذاك العامُ من كِيسهِ

إن لم نشاهد دُخانَ مَطْبَخِهِ ... فقد شَهِدْنا دخانَ تَعْبيسهِ

---

(١) أسبلت: أسالت.

فهو لا يأكل من كيسه، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا في خزنة، ولم يشاهد أحد له دخاناً يعلو مطبخه، فدخانه دائماً يعلو وجهه، تعبيس ما بعده تعبيس. ويقول في النهي عن اتخاذ الأولاد والإقتناع بالوحدة:

ما لِلْمُعِيل وللمعالي إنما ... يسعى إليهنَّ الوحيدُ الفاردُ

فالشمس تجتابُ السماءَ وحيدةً ... وأبو بنات النَّعْش فيها راكدُ

وبنات النعش نجوم معروفة في السماء لا تكاد تريم، تشاهد بالقرب من القطب الشمالي ويدعوه أباها. وله في الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرَّيِّ دون طائل:

ضِعْتُ بأرض الرَّيِّ في أهلها ... ضياعَ حَرْف الراء في اللُّثْغَه

صِرْتُ بها بعد بلوغش المُنى ... يعجبني أن أبلغَ البُلْغَهْ [1]

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبي الفرج بن هندو وبراعته في نظم الشعر والإتيان فيه، وخاصة في الغزل، بالصور والمعاني الطريفة المبتكرة.

أبو الفضل[2] الميكالي

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وُجَهاء نيسابور، وطالما عملوا مع السامانيين في دواوينهم وولاةً لهم على بعض البلدان، ومرَّ بنا تنويه الثعالبي بهم، وفي أبي الفضل يقول: "الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأتم بلاغةى. ثم يورد الثعالبي قول بعض الشعراء في وصف بلاغته وحسن بيانه على هذا النمط:

لك في المحاسن معجزاتٌ جَمَّةٌ ... أبداً لغيرك في الوَرَى لم تُجْمَعِ

---

(١) البلغة: ما يكفي لسد الحاجة.

(٢) انظر في أبي الفضل اليتيمة ٤/ ٣٥٤ وفوات. الوفيات ٢/ ٥٢ وابن خلكان ٣/ ٢٠٢، ٥/ ١٠٩.

بحران: بحرٌ في البلاغة زَانَهُ شِعْرُ الوليد وحُسْن حِفْظ الأصمعي [١]

وإذا تَفتَّق نَوْرُ شِعرك ناضراص فالحسنُ بين مرضَّعٍ ومصرَّعِ

أَرْجَلْتَ فُرْسان القَريضورُضْتَ أَفْـ ـرلسَ البديع وأنت أمجدُ مبدعِ [٢]

وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبي الفضل، ويذكر ابن خلكان أنه دخل بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفاً يسمى المنتخل جمع فيه مختارات شعرية. ويروي الثعالبي له شعراً قاله في نكبة، ويبدو أنه حُبس في عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين. وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره منها نُبّذ في الغزل من مثل قوله:

لقد راعني بَدْرُ الدُّجى بِصدودهِ ووكَّل أجفاني برِعْيِ كواكِبهْ

فياجَزعي مَهْلاً عساه يعود لي ويا كبدي صَبْراً على ما كواكِ به

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصداً في قافيتي البيتين، فلكمة "كواكبه" في البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمة "كواك به". وهذا هو البديع الذي يشير إليه مادحاً. إذ شُغف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصنعة الجناس، حتى ليروي الثعالبي في يتيمته أن شاعراً يسمى أبا حفص عمر بن علي المطّوعي ألف في أجناس التجنيس كتاباً، ويقول الميكالي:

أنكرتِ من أدمعي تَتْرَى سوَاكبُها

سَلِي جُفونى هل أبْكِي سواكِ بها

والبيتان خفيفتان في موسيقاهما، ولكنه أثقلهما بهذا الجناس المتعمد في القافيتين: "سواكبها" و"سواك بها". وقد يجعل الجناس بين كلمتين في البيت الواحد كقوله:

وأصْداغهُ يَلْسَعْنَني كالعَقاربِ وألحاظُه يَفْعَلْنَ فعلَ العُقَارِ بي

وقوله:

---

(١) الوليد: البحتري.

(٢) أفراس: ج فرس، فرسان ج فارس.

ألا ليت الجوابَ يكون خَيْراً فَيْشفِي ما أحاط من الجَوَى بي

والعقارب الأولى في البيت الأول: جمع عقرب، والعقار في نهاية البيت: الخمر، والجوى في نهاية البيت الثاني: حُرقة الوجد ولوعته، وقد أضاف إليها كلمة "بي" ليتم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب في أوائله، ويقول:

ظَبْيٌ يَحارُ البَرْقُ في بَريقِهِ غَنيتُ عن إبريقِهِ بِريقِهِ

فلم أزل أَرْشُفُ من رَحِيقِهِ حتى شفيتُ القلب من حَريقِهِ

وقد أدخل على كلمة "ريقه" وهو رُضاب الفم الباء ليتم له الجناس بين نهايتي الشطرين المتقابلين، والجناس في البيت الثاني أكثر قبولاً إذ جانس بين "رَحِيقه" و"حريقه" لتداخل الصورة معه ولأ، الجناس ليس تاماً، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلاً ويقول:

شافَةَ كَفِّي رَشَأٌ بقبلةٍ ما شَفَتِ

فقلتُ إذا قَبَّلها يا ليت كفيِّ شَفَتي

والجناس مقبول في البيت الثاني، وربما الذي جعله مقبولاً أن كلمة "كفيِّ" هَّيأت له واستدعته، فخفَّ التكلف فيه، ولم تمجّه النفس، ومثله قوله:

ماذا عليه أو أباحَ رِيقَهُ لقلبِ صَبٍّ يَبْتكي حَرِيقَهُ

والجناس هنا بين "ريقه" و"حريقه" مقبول لأنه ليس جناساً تاماً يبدو فيه القصد والتكلف، وكأنه جناس طبيعي استدعاه الكلام، وقارنْ ذلك بقوله:

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلِهِ فجَفَا رُقادى إذ صَدَفْ

ونثرتُ لُؤْلؤَ أمدعٍ أَضْحَى لها جَفْني صَدَفْ

فقد جانس بين قافيتي البيتين باستخدامه كلمة "صدف" الأولى بمعنى أعرض، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة، والتكف شديد الوضوح، وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه في هذا الجناس الثقيل الذي كثيراً ما تقابل فيه كلمتان كملة واحدة،

ويقرب منه في هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأربى أبو الحسن أحمد [1] بن المؤمل، وقد روي له منه الثعالبي أبياتاً كثيرة في الغزل وغير الغزل. وللميكالي وراء غزله أشعار في وصف الطبيعة وفي الإخوان، وله مداعبات، ولا يخليها أيضاً من تصنعه، كقوله:

فَتيً سَخِطَ النَّصْبَ في قِدْرِه ... كما رَضِيَ الخَفْضَ في قَدْرِهِ

وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين في النحو، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئاً يطبخ، كما رضي بالدون في قدره فلا كرم له ولا همة. ومن طريف ما روي له الثعالبي قوله:

كم والدٍ يَحْرِمُ أولادَهُ ... وخَيْرُهُ يَحْظَى به الأَبْعَدُ

كالعَيْنِ لا تبصِر ما حولها ... ولَحْظُها يُدْرِك ما يَبْعُدُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبي الفضل الميكالي، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدا خِصْبُها واضحاً، إذ كان غزير المعاني والصور. وليس من ريب في أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذي جعله يبالغ في ذلك ويغلو فيه.

---

(١) انظر ترجمته في اليتيمة ٤/ ١٤٨.

obeikandl.com

٢

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشراً في إيران طوال العصر، إذ كان هناك من ينغمسون في الملاهي والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروباً من مآسي الحياة وما فيها من اضطراب القيم، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة: سلاطينها ووزرائها. ومرت بنا أبيات لعضد الدولة في غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب في المطر وغناء الجواري في السحر. وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها في أشعارهم من مثل قول الصاحب بن عباد في وصف كأس مملوءة بالخمر [١]

رَقَّ الزجاجُ وراقَتِ الخمرُ ... وتشابها، فتشاكلَ الأَمْرُ

فكأنما خمر ولا قَدَحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خَمْرُ

وكان كثيراً ما يحاكي الصَّنَوْبري في ثلجياته أو بعبارة أخرى في ذكره الخمر مع الثلج ونزوله في الشتاء القارس وفي ذلك يقول [٢]:

أقبلَ الثلجُ فانْبَسِطْ للسرورِ ... ولشُرْب الكبير بعد الصغيرِ

أقبل الجوُّ في غَلائلِ نُورٍ ... وتعادى بلؤلؤ منثورِ

فكأنَّ السماءَ صاهرتِ الأر ... ضَ فصار النِّثارُ من كافور

وكأنما يتصور الدنيا تجلو عروسا. وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيره من شعراء العصر، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسائها في أيام الثلج وزَمْهريره، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم في إيران منذ أعتق عصورها، وظل ذلك طوال الحقب، ويقول أبو عبد الله الروزباري [٣]:

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١٧١.

(٢) اليتيمة ٣/ ٢٦١.

(٣) اليتيمة ٣/ ٤١٦.

ما لابْنِ هَمٍّ سوى شُرْبِ ابنةِ العِنَبِ ... فهاتها قهوةً فَرَّاجةَ الكُرَب

أَدْهقْ كُئوسَك منها واسْقِني طرباً ... على الغيوم فقد جاءتْك بالطَّرَبِ [١]

نِثارُ غَيْثٍ حكى لونَ الجُمان لنا ... فاشربْ على منظرٍ مستحسن عَجَبِ

جاد الغمامُ بدمع كاللُّجَيْن جَرَى ... فجُدْ لنا بالتي في اللون كالذهب

فهي فرحتهم ومسرتهم في دنياهم، وهم يعبُّون منها أرطالاً تلو إرطال حين يكفهر الجو بالسحب، لما تبعث في النفوس من طرب في أيام الشتاء المفضَّضة، التي تتناثر فيها الأمطار، وكأنها نِثار عرس مفرح، نثار فضيّ مبهج، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البُسْتي المعروف بالغزّال [٢]:

وإذا الهمومُ تطاولتْ فاطلبْ لها ... عَيْشاً هنيئاً بانتزاعِ مُدَامِ

صَهْباء تَسْطَعُ في الكئوس كأنها ... نارٌ بتجيشُ بوقدةٍ وضِرام

من كفِّ سَاقٍ لو سقاك بكفّه ... سَمّاً لكان شِفاً لكل سَقَامِ

وكأنها معصورةٌ من خَدِّهِ ... إذ ظَلْتَ تَرْمقهُ بِلَحْظٍ سامِ

وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التي تلهب فؤاده، من كف ساق يقدم له بها ما يشفي سقامه، ويتخيلها كأنما عصرت من خدود جميلة، وهو يكب عليها غير محتشم ولا مفكر في رشاد، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها، وليكن من الإثم ما يكون! ودائماً تلقانا هذه الخمريات في تراجم الشعراء، إذ كان يتورط فيها كثيرون من مثل عمر الهرندي القائل [٣]:

لا أحبُّ المُدامَ إلا العَتيقا ... ويكونُ المزاجُ من فيكِ رِيقا

إنَّ بين الضلوع منّى ناراً ... تتلظَّى فكيف لي أن أُطيقا

---

(١) أدهق: أملأ.

(٢) الدمية ٢/ ٣٥٨.

(٣) اليتيمة ٣/ ٤٤١.

بحياتي عليك يا مَنْ سقاني　　أرحيقاً سقيتني أم حريقا

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها، ولا يدري أحريق هي أم رحيق لأنها تدفعه دائماً إلى المزيد، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها، إذ تأخذ عليه طريقه. وإنها لتظل تملؤه حباً لها وشوقاً لارتشافها، وهو يرتشف ولا يدري أيرتشف رحيقاً أو ناراً أو قل أيرتشف شراباً هنيئاً أو سماً زعافاً، وهو ممعن في الشرب متعلق به، لا يستطيع فكاكاً منه ولا خلاصاً. وكان للخمر مواسم عندهم هي الأعياد الفارسية والمسيحية، ففي عيد الشعانين وفي أعياد النيروز والمهرجان والسذق أو النار المجوسية يشربون منها ويعبون في احتفالات صاخبة. وكانوا يشربونها كثيراً وسط الرياض، ولذلك يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البهيج. وتلقانا في أثناء ذلك أبيات طريفة من مثل قول أبي منصور قسيم بن إبراهيم، وكان ينظم باللسانين العربي والفارسي [١]:

وحُجِّبَ في الثلج الربيعُ وحُسْنُهُ　　كما اكتنَّ في بَيْضِ فِراخُ الطَّواوسِ

وكانوا يخرجون أحياناً للصيد والطرد، ولأحمد بن عضد الدولة طردية بديعة [٢]. ونعجب لألفاظ الفحش والمقاذر التي نجدها عند بعض الشعراء، وهو جانب أشاعه في العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٩١ ومواطنه ابن سكرة. ويلاحظ ذلك صاحب الدمية حين يترجم للمشطب الهمذاني، فيقول: " له أشعار سخيفة نسج فيها على منوال ابن الحجاج [٣]" ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش، وحتى الصاحب بن عباد الوزير الوقور تجري أمثلة من هذا الفحش على لسانه في أشعاره [٤]، وهي وصمة لا شك فيها، وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون في العصر هما أبو بكر القهستاني وأبو الحسن الباخرزي.

---

(١) تتمة اليتيمة ٢/ ٤٥.

(٢) اليتيمة ٢/ ٢٢١.

(٣) الدمية ١/ ٥٧٢.

(٤) اليتيمة ٣/ ٢٧٢-٢٧٥.

أبو بكر[١] القُهُسْتانيّ

هو علي بن الحسن القهستاني من قرية رخج من قرى كابُل، بزغ نجمه في دولة السلطان محمود الغزنوي، إذ سلكه بين ندمائه ووظفه في دواوينه، واتصل بابنه محمد، وأصبح رئيساً لديوانه في أثناء ولايته لأبيه على خوزستان، وكان ممدحاً، مدحه كثيرون منهم الباخرزي والفرخي السجستاني الشاعر الفارسي المشهور، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوي، بمثل قوله:

محمدٌ بنُ محمودٍ أبو أحـ ـمَدٍ مَوْلَى أميرِ المؤمنينا
جلالَ الدولةِ العَلْياء دُنْيا جمالُ المِلَّة الغَلْباء دينا
وليُّ العهدِ عهدِ المُلْك طُوبَى لنا إذ ظَلَّ ظِلُّ الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية لعهد من بعده دون أخيه مسعود. وتعد الفترة التي قضاها معه أزهى فترات حياته، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه، وخاصة حين كان يتولى قيادة جيوشه. وقد تحول بمجلسه في ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما ينبي يمزج فيها وفي مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعماة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله:

دقيقةُ الساقِ لا عروقَ لها تَدوسُ رزقَ الوَرَى بهامَتِها

وهو لغز أراد به مغرفة الباقلاني يغرف بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الورى. وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر، ونراها مبثوثة في كتاب اليتيمة في أشعار ابن العميد وغيره، وكأنها دعابات كانت تطفو في مجالس الأدباء والوزراء. ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعوداً يسلبه منه كما مر بنا في غير هذا الموضع.

---

(١) انظر في القهستاني تتمة اليتيمة ٢/ ٧٣ ودمية القصر ٢/ ٢١١ ومعجم الأدباء ١٣/ ٢١ وحدائق السحر في دقائق الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص١٠٠.

ونرى القهستاني يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد، فيمدح الخليفة القادر بالله (٣٨٢-٤٢٤هـ) قائلاً:

ولم يرني ذوِ مِنَّةٍ غَيْرُ خالقي ... وغيرُ أميرِ المؤمنين ببابهِ

ويمدح وزيره وكاتبه أبا طالب بن أيوب، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه ظل ببغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوي على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده في أيديهم إلى أن توفي. ولا تعرف بالضبط سنة وفاته. وكان مثقفاً ثقافة واسعة، إذ يقول القدماء إنه عُني بتحصيل علوم الأوائل حتى اتهمه بعض معاصريه بالمروق من الدين. ويقول ياقوت إنه كان كثير المزاح، راغباً في اللهو والمراح، وله في ذلك خاطر وقاد وحكايات متداولة. وله خمريات بديعة، كان يتغنى فيها المغنون بحضره الأمير محمد الغزنوي من مثل قوله:

قُمْ يا خليلي فاسْقِني ... كشُعاعِ خَدِّك من شرابِ

فلقد يَمُرُّ العيش مُنْـ ... ـقَرِضاً ولا مَرَّ السَّحاب

فانعَمْ بعيشك ما استطَعْـ ... ـتَ ولا تُضِعْ شَرْخَ الشبابِ

فلكم أضعتَ من الشبا ... بطلميوس وما استفدتَ سوى اكتئابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب، قبل أن يفنى عمره الذي يمر مسرعاً مر السحاب، وقبل أن تذيل زهرةشبابه، وكم أضاع من أيام الشباب، ولم يفد- كما يقول- سوى الاكتئاب والغم والحسرات، ويهتف به ثانية:

تمتَّعْ من الدنيا فأوقاتُها خُلَسْ ... وعُمْرُ الفتى- مُلِّيتَ- أطولُه نَفَسْ

وسارعْ إلى سَهْمٍ من العيش فائزٍ ... فما ارتَدَّ سَهْمٌ قَطُّ يوماً ولا احْتَبَسْ

ولا تتقاضَ اليوم هَمَّ غَدٍ ودَعْ ... حديثَ غَدٍ فالاشتغالُ به هَوَسْ

هيَ الرُّوحُ كالمصباح والرَّاحُ زَيْتُها ... فدونك عَنِّي إنما الرَّأيُ يُقْتَبَسْ

obeikandl.com

وهي دعوة ملتهبة لانتهاز فرصة الشراب، فليس في الدنيا وراءه- في رأيه- نعيم ولا متاع، ودعك من الهموم كما يقول، ودع التفكير في الغد. وهي نفس النغمة التي نجدها في رباعيات الخيام الفارسية، فالحياة فانية، وهي سريعة الفناء، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه، بل اللحظة التي هو فيها، ليشرب وينعم بالشراب، إذ هو زيت الروح، بدونه تنطفئ وتظلم، وبه تضيء ضوء الفرح والبهجة والمرح. ودائماً ما تلقانا هذه الخمريات البهيجة عند القهستاني وأنداده من شعراء إيران، وإنه ليعلن دائماً أنه سيظل ما عاش يشرب الخمر صفوا، وله وراءها غزليات وأهاج في الوزير الميمندي كاتب السلطان محمود الغزنوي وبعض معاصريه، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته:

تمتَّعْ بيومٍ مُسْعد النُّجْع مُسْعِفِ ودَعْ قولَ لاحٍ مُعْنتِ النُّصْح مُعْنِفِ

وهي مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات، وأيضاً كان يقتبس كثيراً بعض الآيات القرآنية كقوله في بعض مديحه:

سما بك من فوق السمواتِ رُتْبَةً أبٌ لك يدعو اللهَ في السِّرِّ والجَهْرِ

كما قد دعَا موسى لهرون ربَّهُ أن (اشْدُدْ به أَزْرِي وأَشْرِكْهُ في أمري)

ولا ريب في أنه كان شاعراً بارعاً، كما كان كاتباً نابهاً دونت رسائله كما دونت أشعاره، ويقول ياقوت: " له أشعار فائقة، ورسائل رائقة ".

أبو الحسن[1] الباخَرْزِيّ

له كنيتان أبو الحسن وأبو القاسم، واسمه علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب، من باخرز، من نواحي نيسابور، ونراه يعنى في شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء بنيسابور. ويكب على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، ويختص بملازمة دروس الفقيه

(١) انظر في الباخرزي كتاب الأنساب ٥٧ب ومعجم الأدباء ١٣/ ٣٣ وابن خلكان ٣/ ٣٨٧ والنجوم الزاهرة ٥/ ٩٩ والسبكي ٥/ ٢٥٦ واللباب ١/ ٨٣ ومرآة الجنان ٣/ ٩٥ وشذرات الذهب ٣/ ٣٢٧ وبراون (ترجمة الشواربي) ص٤٥١.

المشهور لعصره أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين. ويتجه إلى فن الكتابة. ويوظف في ديوان الرسائل لدى الغزنويين، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه يرحل إليهم ويشتغل في دواوينهم، إذ يصبح كاتباً للسلطان " طغرل " وله فيه مدائح بديعة من مثل قوله:

سِرْنا ومرآة الزمانِ بحالها ... فالآن قد مُحقتْ وصارتْ مِنْجَلاَ

تَخِدُ الرِّكابُ فلا تعوجُ بنا على ... طَلل الحبيب ولا تُحَيِّي المنزلا [1]

وتحرِّك الأعطافَ تَشْميرا بنا ... تيمَّم الملكُ المظفَّر طُغْرُلا

وقربه منه الوزير الكندري، وكانا يتعارفان في شبابهما، ويبدو أنه هو الذي وصله بطغرل، وكان يلازمه في حله وترحاله، فلما ورد بغداد صحبه معه، وفيها مدح الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التي صدر به ديوانه مفتتحاً لها بقوله:

عِشْنا إلى أن رأينا في الهوى عجباَ ... كلَّ الشهور وفي الأمثال عِشْ رَجَبا

أليس من عجبٍ أني ضُحَى ارتحلوا ... أو قدتُ من ماءِ دمعي في الحشَا لهبَا

وأنَّ أجْفان عيني أمطرتْ وَرِقاً ... وأن ساحة خَدِّي أنبتتْ والتهبا

وإنْ تَلهَّبَ بَرْقٌ من جوانبهم ... توقَّد الشوق في جَنْبَيَّ والتهبا

ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم، لما لاحظوا فيه من تكلف وتصنع، على نحو ما نرى في البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل: "عِشْ رَجَبا تَرَ عَجَباً " فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة، ومضى في تصنعه، فماء دموعه يوقد جحيماً في حشاه وأجفان عينه تمطر ورقا أو دموعاً كالفضة الصافية، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذهباً، وحين رإى البغداديين يستبردون أشعاره انتقل إلى الكرخ وسكنها وخالط فضلاءه وسوقتها مدة، واقتبس من لغتهم وظرفهم، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله:

هَبَّتْ عليَّ صَبا تكاد تقولُ ... إني إليك من الحبيب رسولُ

---

(١) تخد: تسرع ، تعوج: تميل.

سَكْرَى تجشَّمتِ الرُّبَى لتزورني　　من عِلَّتي وهُبُوبُها تعليلُ

فاستحسنها البغداديون وقالوا تغير شعره ورق طبعه. وظل ملازماً الكندري في مدينة الري عصامة طغرل عاملاً في دواوين الدولة، ومقدماً له مدائح كثيرة، إلى أن قبض السلطان ألب أرسلان على الكندري وأمر بقتله، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء. ويبدو أنه أخذ يعني منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذي نرجع إليه كثيراً، مذيلاً به على يتيمة الدهر للثعالبي، كما مر بنا في غير هذا الموضع. واستقال من عمله في دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله في إحدى ليالي أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة. وكان ينظم، باللسانين العربي والفارسي، وله في الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها " طرب نامه " أو رسالة الطرب، وهي مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائي للحروف. وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهريره.

كم مؤمنٍ قَرصَتْهُ أظفارُ الشِّتا　　فغدا لسُكَّان الجحيم حَسُودا

وترى طيورَ الماء في وُكناتها　　تختار حَرَّ النار والسَّفُّودا

وإذا رميتَ بفضل كأسك في الهوى　　عادتْ عليك من العقيق عُقودا

يا صاحبَ العودين لا تُهمِلْهما　　حَرِّق لنا عودا وحَرِّك عودا

والصور في الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة، فالمؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تُشْوَى على السفود. ولو رميتَ في الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر وأصبحت عقودا. وينادى على المغنى أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصلاء. وله غزليات رقيقة من مثل قوله:

قالتْ وقد ساءلتُ عها كلَّ مَنْ　　لاقيتهُ من حاضرٍ أو بادِي

أنا في فؤادك فارْمِ طَرْفك نحوه　　تَرنى فقلتُ لها وأين فؤادي

ففؤاده ليس عنده، بل هو عندها، إذ ضاع منه، وهي التي تعرف مكانه، وماذا عليها لو ردته إليه، وله من جملة أبيات:

بصورة الوَثَن استعبَدْتني وبها ... فَتَنْتَني وقديماً هِجْت لي شَجَنا

لا غَرْوَ أن أحرقتْ نارُ الهَوى كبدِي ... فالنارُ حَقٌّ على من يَعْبدُ الوَثَنَا

والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيء من التكلف، إذ حاول أن يعلل لحرق نار الهوى لكبده بأن صاحبته استعبدته بصورة الوثن، وكأنه عبد وثناً وحقت عليه النار، ولم يكن في حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو، فنار الهوى تحرق أكباد الشعراء من قديم، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفاً إذ يقول في غزله:

زكاةُ رءوسِ الناس في عيدِ فِطْرهم ... يقول رسولِ الله- صاعٌ من البُرِّ

ورأسُكِ أغلى قيمةً فتصَدَّقي ... بفيك علينا فهْو صاعٌ من الدُّرِّ

فقد وضع صورة الزكاة في عيد الفطر وما يجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البر أو القمح في هذا العيد، ليصل إلى أن صاحبته ينبغي أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من البر وإنما بصاع من الدر، يريد ثغرها وما فيه من در الأسنان. والصورة في غاية التكلف. وتكثر مثل هذه الصور منذ مطالع هذا العصر، وكأنما أخذ يعيي الشعراء أن يأتوا بصور طبيعية أو كأنما أحسوا أن أسلافهم استنفدوها، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغريبة المبعدة في الغرابة من مثل قول الباخرزي أيضاً لبعض صواحبه:

وأبكى لدُرِّ الثَّغْر منكِ ولي أبٌ ... فكيف يُديم الضِّحكَ وهْو يتيمُ

فهو يبكي لأنها لا تنيله شيئاً، ويعجب أن يبكي وله أب، بينما ثغرها يضحك، وهو يتيم. والتورية واضحة، فالمعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر، وهو يريد أنه منقطع النظير حسناً. والتكلف في البيت أو قل في الصورة شديد الوضوح.

٣

شعراء الزهد والتصوف

لا شك في أن موجة المجون وما اتصل بها من لهو وخمر كانت موجة محدودة، حتى لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا ما يستتبعه من الخمر والمجون، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى الله والاستماع إلى الوعاظ في المساجد بنيسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد في الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم في الدار الآخرة. وكان هؤلاء الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكانوا يسمون مجالس وعظهم مجالس التذكير، يذكرون الناس بالمحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان، موردين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيماناً وتقوى وورعاً. وكانت العامة تشغف بهم، وتستدير حول مجالسهم منيبة إلى الله مغذية مشاعرها وعواطفها بما تسمعه من مواعظهم. وكان نفر من كبارهم مثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية [١]، وطبيعي أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على ألسنة الوعاظ والفقهاء والنساك، فهو الشعر الذي تهوى إليه أفئدة الشعب، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولي على ألباب سامعيه، وتلقانا في العصر مواعظ كثيرة، من مثل موعظة أبي الفرج الساوي حين توفي السلطان فخر الدولة البويهي، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استهلها بقوله [٢]:

هيَ الدُّنْيا تقولُ بملءِ فيها ... حَذارِ حذارِ من بَطْشي وفَتْكي

فلا يغرركمُ حُسْنُ ابتسامي ... فقولي مضحكٌ والفعلُ مُبْكي

بِفَخْر الدولة اعْتَبِروا فإني ... أخذتُ المُلْكَ منه بسيفِ هُلْك

---

(١) انظر ترجمته في الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين للسيوطي وتتمه اليتيمة ٢/ ١١٥ والسبكي ٤/ ٢٧١.

(٢) اليتيمة ٣/ ٣٩٣.

وقد كان استطالَ على البرَايا ... ونظَّم جمعهم في سِلْك مُلْكِ

فلو شمسُ الضُّحَى جاءتْه يوماً ... لقال لها عُتُوًّا: أُفٍّ منكِ

ولو زُهْرُ النُّجومِ أبتْ رِضاه ... تأبَّى أن يقول: رضيتُ عنكِ

فأَمْسَى بعد ما قَرعَ البرايَا ... أسيرَ القَبْر في ضِيقٍ وضَنْكِ

وظنيِّ أنه لو عاد يَوْماً ... إلى الدُّنْيا تَسَرْبَلَ ثَوْبَ نُسْكِ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغي عبرة وعظة، فلو أنه عاد إلى الديا لطأطأ من كبريائه وعتوه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهداً فيها مؤثراً أن يعيش عيشة النساك. وفي كتاب اليتيمة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان، كان يشغل نفسه حقبة بمديح الأعيان والوجهاء، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا، ويورد الثعالبي أطرافاً من شعره الزاهد [1] من مثل قوله:

عَبْدٌ عَصَى ربَّه ولكنْ ... ليس سوى واحدٍ يقولُ

إن لم يكن فِعْلُهُ جميلا ... فإنما ظَنُّ جَمِيلُ

وهو يصور فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه في لطفه، ويذكر الثعالبي أنه لما أزمع الحج وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ظل ينشد:

أتيتك راجلاً ووَدِدْتُ أني ... ملكتُ سوادَ عَيْني أَمْتطيهِ

ومالي لا أسيرُ على المآقي ... إلى قبرِ رسولُ اللهِ فيه

ومن شعراء كتاب اليتيمة الذين شاركوا في هذا الشعر الزاهد الذي يفوح بالتقوى أبو جعفر البحاث الزوزني أحد القضاة بخراسان، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كئوس شراب هنيء وشراب بغيض مرير، ويفيض في الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على

(١) اليتيمة ٤/ ٤٣٢.

الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم، وكل منهم يصبح في شغل بميراثه، يقول [١]:

سباعٌ حَواليه زُرْقُ العيونِ ... كلاٌ وأُسْدٌ وذئبٌ أَزَلّ [٢]

فهذا يجاذب ما قد حواهُ ... وهذا يُخالسهُ ما فضَلْ

إذا وضعوه على نَعْشِهِ ... أشاعوا البُكا وأسَرُّوا الجَذَلْ [٣]

وإن دفنوه نَسوهُ مَعاً ... وكلٌّ بميراثِه مُشتَغِلْ

ويبكي أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إلهي من وهن لعظم واشتعال الشيب في رأسه، ويتوب إلى ربه منيباً مستغفراً. ويلقانا هذا الشعر الزاهد على ألسنة كثير من الشعراء في كتاب دمية القصر، وخاصة منهم القصاص الوعاظ، وكان طبيعياً أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدثين والفقهاء. وللزمخشري ديوان لا يزال محفوظاً بدار الكتب المصرية وهو مليء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام. وللغزالي بدوره أشعا زهدية كثيرة وقد ينزع بها منزع المتصوفة السنيين على شاكلة قوله [٤]:

سَقمى في الحبِّ عافيتي ... ووجودي في الهَوى عَدَمى

وعذابٌ يَرْتضون بهِ ... في فَمي أحْلَى من النَّغَم

مالضُرِّ في محبتكم ... عندنا والله مِنْ ألَمِ

وللفخر الرازي المار ذكره أشعار زهدية طريفة، وكان علامة في علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل، وله في جميعها مؤلفات كثيرة. وكان في الوعظ آية،

---

(١) اليتيمة ٤/ ٤٤٥.

(٢) ذئب زل: ذئب يتولد بين الضبع والذئب.

(٣) الجذل: الفرح.

(٤) انظر ترجمة الغزالي في السبكي ٦/ ٢٢٢.

وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات في هراة، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في الوعظ ويكثر من البكاء، ويشتهر له قوله [١]:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالمين ضَلالُ

وأرواحُنا في وَحْشةٍ من جُسومنا ... وحاصلُ دُنْيانا أَذًى ووَبالُ

ولم نَسْتَفِد من بَحْثنا طولَ عُمْرنا ... سوى أنْ جَمَعْنا فيه قِيلَ وقالوا

وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم من جِبالٍ قد علتْ شُرُفاتِها ... رجالٌ فزالوا والجِبالُ جِبالُ

فكل ما في الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلال، وما الدنيا؟ إننا لا نجني منها سوى الأذى والوبال، وسوى العدم والفناء الذي يحيط بالناس جميعاً وبالدول مهما عظم سلطانها، فمآلها إلى زوال. ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعي القزويني الفقيه الشافعي المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس في قزوين لسماع الفقه والتفسير والحديث النبوي، ومن قوله في الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله في اليسر والعسر دائماً أبداً [٢]:

إنْ كنتَ في اليُسْرِ فاحْمَدْ مَنْ حَباكَ بِهِ ... فليس حَقًّا قضَى لكنَّه الجودُ

أو كنْت في العُسْرِ فاحمَدْه كذلك إذ ... ما فَوقَ ذلك مصروفٌ ومَرْدود

وكيفما دارتِ الأيامُ مقبلةً ... وغيرَ مقبلةٍ فالحمدُ محمودُ

وكان يقول: " اعلم أن الناس في الرضا ثلاثة أقسام: قوم يحسون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم حباً لله تعالى، لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى، وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة، وإن أتى البلاء على أنفسهم:

---

(١) ابن خلكان ٤/ ٢٥٠ والسبكي ٨/ ٩٦.

(٢) انظر في الأبيات وكلام الرافعي التالي السبكي ٨/ ٢٨٦ وما بعدها.

يَسْتعذبون بَلاياهمْ كأنهمُ　　لا يَيْأَسون من الدنيا إذا قُتِلوا

تسرهم البلية كما تسرهم النعمة، وقوم يتركون الاختيار، ويوافقون الأقدار، فلا يبقى لهم تلذذ ولا استعذاب ولا راحة ولا عذاب ". وفي ذكر الرافعي لكلمة المحبة ما يدل على أنه كان ينزع بزهده نزعة صوفية. والتصوف كثير في العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على شعراء اللسان العربي، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسي، على شاكلة الشيخ سعدي الشيرازي، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله [1]:

يا نديمي قم بليلٍ　　واسْقِني واسْقِ النَّدامَى

خَلِّني أَسْهَرُ ليلي　　ودَعِ الناسَ نيامَا

في أوانٍ كشفَ الوَرْ　　دُ عَن الوجه اللِّثاماَ

قُلْ لمن عَيَّر أهل الـ　　ـحبِّ بالحبِّ ولاما

لا عرفتَ الحبَّ هيها　　تَ ولا ذُقْتَ الغَرَامَا

وهي خمرية صوفية طريفة. ومر بنا في الفصل الأول أن المتصوفة في إيران كانوا يمثلون اتجاهين: اتجاهاً سنياً واتجاهاً فلسفياً، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان النزعتين، هما عبد الكريم القشيري ويحيى السُّهَرَوَرْدِيّ.

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة الحلبي) ١/ ٢٦٣.

obeikandi.com

عبد الكريم[١] القُشَيْرِيّ

ولد في قرية أستوا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه، ثم انتقل إلى نيسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره، واتفق أن حضر مجلس الصوفي الكبير أبي علي الدقاق، فأعجب به وسلكه بين مريديه، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه، فأقبل على دروس أبي بكر الطوسي الفقيه الشافعي، ثم اختلف إلى دروس ابن فورك حتى أتقن علم الأصول، كما اختلف إلى دروس أبي إسحق الإسفراييني الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي، ونظر في كتب القاضي الأشعري أبي بكر بن الطيب الباقلاني. وسرعان ما أصبح علامة في الفقه الشافعي وفي التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعري. وزوجه الدقاق ابنته حباً له، حتى إذا توفي خلفه في مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد، وأخذ في التصنيف، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه "التيسير في علم التفسير" وهو- كما يقول ابن خلكان- من أجود التفاسير. وخرج إلى الحج في رفقة، فيها الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين وأحمد بن الحسين البيهقي وجماعة من المشاهير، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز. وعقد لنفسه في نيسابور مجلس الإملاء في الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صوب. وذكره الخطيب البغدادي، فقال: " قدم علينا بغداد في سنة ٤٤٨ وحدث ببغداد وكتبنا عنه، وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة " ويقول الباخرزي واصفاً وعظه: " لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو رُبط إبليس في مجلسه لتاب ".

وكان يعتنق مذهب الشافعي في الفقه والفروع ومذهب الأشعري في علم الكلام والأصول. وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة، وهو- كما مر بنا في الفصل الأول- من أوائ من رأبوا الصدع الذي كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة وذلك في رسالته

---

(١) انظر في ترجمة القشيري كتاب الأنساب للسمعاني ٤٥٣ب وتاريخ بغداد ١١/ ٨٣ وابن خلكان ٣/ ٢٠٥ ودمية القصر والسبكي ٥/ ١٥٣ والمنتظم لابن الجوزي ٨/ ٢٨٠ وإنباه الرواة للقفطي ٢/ ١٩٣ وشذرات الذهب للعماد ٣/ ٣١٩ واللباب ٢/ ٢١٤ والنجوم الزاهرة ٥/ ٩١ وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢٧١ وعبر الذهبي ٣/ ٢٥٩.

المشهورة التي نقلنا عنها فقرة طويلة في الفصل المذكور، والتي وجهها إلى الصوفية وأهل السنة، وخلفه في هذا الصنيع الغزالي السني. ولا ريب في أنه له فضلاً كبيراً في الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينهما من خلاف، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهي إلى النسك والمحبة الإلهية، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية. وتلك هي صورة التصوف السني الذي رفع عماده القشيري، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله:

وإذا سُقيتُ من المحبّة جُرْعةً ... ألْقَيْتُ من فَرْطِ الخُمار خِماري

كم تبتُ قصداً ثم لاحَ عِذَارُهُ ... فَخَلَعْتُ- من ذاك العِذار- عِذاري

والخُمار بضم الخاء بقية السكر والخمار بكسر الخاء الحجاب. يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهي، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه. وإنه ليتوب ثم تتراءى له شواهده، فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه، أو كما يقول يخلع عذاره كناية عن أنه يتهمك فيه ويقول:

ومَنْ كان في طول الهوى ذاق سَلْوةً ... فإنِّيَ من لَيْلَى لها غيرُ ذائقُ

وأكثرُ شيءٍ نلتُه من وِصالها ... أمانيٌّ لم تَصْدُقْ كَخَطْفةِ بارقِ

فهو لا يسلو هواه ولا يكف عنه، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه، هوى لا يزال يتعثر في شباكه، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أماني تبدو له كما يبدو البرق الخاطف في السحاب. ويقول:

سَقَى اللهُ وقتاً كنت أَخْلُو بوجْهكم ... وثَغْرُ الهَوَى في رَوْضة الأُنْس ضاحكُ

أقَمْنا زماناً والعيونُ قريرةٌ ... وأصبحتُ يوماً والجفونُ سوافكُ

وهو يتحدث عن الوصال الذي يذكه المتصوفة هذا الحديث الرمزي، فقد كان ينعم به زماناً أو قل كان يخيل إليه أنه ينعم به، وكانت تمتلئ نفسه بهجة وفرحة، غير أنه أصبح يوماً، فإذا الوصال كان حلماً، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع، بكاء كله جزع، وكله لوعة وحسرة. وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله:

يا مَنْ تقاصَر شُكْري عن أياديهِ ... وكَلَّ كُلُّ لِسانٍ عن معاليهِ

وجودُه لم يزل فَرْداً بلا شَبهٍ ... عَلاَ عن الوقت ماضيهِ وآتيهِ

لا دَهْرَ يُخْلِقُه لا قَهْرَ يَلْحَقُهُ ... لا كَشْفَ يُظْهره لا سِتْرَ يُخْفيه

لا عَدّ يجْمَعُه لا ضِدَّ يَمْنعه ... لا حَدَّ يَقْطعه لا قُطْرَ يَحْويهِ

لا كَوْنَ يَحْصُره لا عَوْنَ يَنْصُره ... وليس في الوهم معلومٌ يُضاهيه

جلالُه أزليٌّ لا زوالَ له ... ومُلْكه دائمٌ لا شيءَ يُفْنِيه

والتبتل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية، وأنه فرد لا شبيه له، سما عن كل زمن ماض وحاضر، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه، وهو القاهر فوق عباده، موجود في كل زمان ومكان، دون انكشاف ودون حجاب، ودون حصر، ودون حد يطيف به أو مكان يحتويه، ليس كمثله شيء، أزلي لا زوال لجلاله ولا فناء لملكه. وهو تجريد قوي للذات العية ينفصل به القشيري وأصحاب التصوف السني عن أصحاب التصوف الفلسفي وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية. ويقول:

جَنِّباني المجونَ يا صاحِبيَّا ... واتْلُوَا سُورَةَ الصَّلاحِ عَلَيَّا

قد أجَبْنا لزاجرِ العقل طَوْعاً ... وتركنا حديثَ سَلْمَي ومَيَّا

ومنَحْنا لموجِب الشَّرْع نَشْراً ... وشَرَعْنا لموجب اللَّهْوِ طَيَّا

ووجدنا إلى القناعة باباً ... فوضَعْنا على المطامع كَيَّا

كنتُ في حَرِّ وَحْشَتِي لاختياري فتعوَّضْتُ بالرِّضا منه فَيَّا [1]

والذين ارْتَوَوْ بكأسِ مُناهم فعلى الصَّدِّ سوف يَلْقَون غَيَّا

وهو يعلن في الأبيات سلوكه في الطريق، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجوناً أو يشبه المجون، وقد لبى عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه، فهو يعيش للشريعة المحمدية قانعاً، زاجراً مطامعه في متاح الحياة. ويتصور كأنه كان يقضي أيامه قبل تصوفه في فيافي وحشة شديدة الحرارة، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة، ظلال نهل فيها كئوس المنى، ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرة أو يصد عنها، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد. ومازال القشيري غارقاً في هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفي سنة ٤٦٥ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق.

يحيى[٢] السُّهْرَوَرْدِيّ

ولد يحيى بن حبش حوالي سنة ٥٤٥ للهجرة بسهورود في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة، ثم إلى أصفهان حيث درس الفقه وأكب في أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة. وأعجب بالصوفية فصحبهم وأخذ نفسه بطرقهم في الرياضة والمجاهدة. وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة. ومد تجواله وترحاله إلى ديار الشام. وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفي، فكان يجادل الفقهاء. واستوت له فلسفة تصوفية إشراقية تعتمد- كما يقول دارسوه- على غنوصية آسيوية، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التي بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنفه: " حكمة الإشراق " وهو قسمان: قسم خص به

---

(١) فيا: ظلا.

(٢) انظر في ترجمة يحيى السهروردي معجم الأدباء لياقوت ١٩/ ٣١٤ وابن خلكان ٦/ ٢٨٦ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٤١ وقد خلط ابن أصبيعة بينه وبين الشهاب عمر السهروردي المتصوف البغدادي السني، وانظر مرآة الجنان ٣/ ٤٣٤ ولسان الميزان ٣/ ١٥٦ والنجوم الزاهرة ٦/ ١١٤ ودائرة المعارف الإسلامية وتعليق الدكتور محمد مصطفى حلمي على ترجمته فيها وفتاوى ابن تيمية ٥/ ٩٣ والفلسفة الصوفية في الإسلام لعبد القادر محمود (طبع دار الفكر العربي) ص٤٤٠ وما بعدها.

المنطق الذي يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً، وقسم ثاني قصره على الأنوار الإلهية، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات. وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً، غير أنه يراهما ضروريين للمتصوف، حتى يتعانق في داخله العقل والقلب أو الذوق. ولج السهروردي في نظرية النور وما يقابلها من الظمة، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها في ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور. وفي رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية، ومن ثم كان يقول بوحدة الوجود وبالحلول الإلهي في الكون والكئنات. وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي المتغول في تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء. وكان طبيعياً أن يكفره الفقهاء في "حلب" وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ للهجرة. ولما تحقق القتل كان ينشد:

أرى قَدمي أراقَ دَمي وهانَ دَمِي فها نَدمي

ولكنه ندم ولات حين مندم. ومن كلامه: حرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات، فوحد الله وأنت بتعظيمه ملآن، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان، ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان، فأبى النظام أن يكون غير ما كان:

وخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعتي على الأَكْوانِ

والبيت يشير بقوة إلى فكرتي الحلول والاتحاد في الذات العلية وكان يكثر من ترداد قوله:

لو علمنا أننا ما نلتقي ما قضينا من سُلَيْمَى وَطَرَا

والسهروردي يشير في وضوح إلى فكرة الشهود المعروفة عند المتصوفة وله شعر صوفي كثير من مثل قوله:

أقول لجارتي والدمعُ جارِي ولي عَزْمُ الرحيل عن الديارِ

ذَريني أن أسيرَ ولا تَنُوحي فإن الشُّهْبَ أشْرَفُها السَّوَارى

وإني في الظلامِ رأيت ضوءاً ... كأن الليل بُدِّل بالنهارِ

ويبدو لي من الزَّوْراء بَرْقٌ ... يذكّرني بها قُرْبَ المزارِ

إذا أبصرتُ ذاك النور أَفْنَى ... فما أدري يَميني من يساري

وهو يذكر في الأبيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف، كما يذكر فكرة الفناء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بإله وما أنعم عليه- كما يتصور- بنعمة الوصال، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره، وله حائية رائعة يستهلها بقوله:

أبداً تحنُّ إليكمُ الأرواحُ ... ووِصالُكم رَيْحانُها والرَّاحُ

وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتاقكم ... وإلى لذيذ لقائكم ترتاحُ

وارَحْمتا للعاشقين تكلَّفوا ... سَتْرَ المحبة والهوَى فضَّاح

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلاً إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تتمنى وصالها لتجد فيهريحانها وراحها ونشوتها التي لا تماثلها نشوة، وإن القلوب لتحن إليها دائماً مشتاقة مولعة شاعرة بنعيم ما بعده نعيم، ويأسي لعاشقي الذات الإلهية، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم ولا كتمانه، لدموعهم التي تقطر دائماً على خدودهم سحاً وتسكابا، ويتضرع إلى المحبوب قائلاً:

عودوا بنور الوَصْل من غَسق الجَفَا ... فالهَجْرُ لَيْلٌ والوصالُ صَباحَ

صافاهمُ فصفَوْ له فقلوبُهم ... في نورها المِشْكاةُ والمِصْباح

وتمتَّعوا فالوقتُ طاب بقربكم ... راقَ الشرابُ ودارتِ الأقداحُ

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام داجٍ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة: (اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ

لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وكأن في قلوب الصوفية نور الله، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية، وهو اتعاد يعني السكر والنعيم بنشوة هذا الخمر الربانية التي راقت وأخذت كئوسها وأقداحها تدور على المحبين كما يقول، أقداح من شرابٍ روحيٍّ مصفى، ويقول مصوراً لهم في حال سكرهم:

لا يَطْربون بغير ذِكْرِ حَبِيبهم ... أبداً فكلُّ زمانهم أفراحُ

حَضَرُوا وقد غابتْ شواهد ذاتهم ... فتهتَّكوا لمَّا رأوه وصَاحوا

أفناهمُ عنهم وقد كُشِفَتْ لهم ... حجبُ البَقا فتلاشَتِ الأرواحُ

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم، وهم حاضرون غائبون، وكأنما يفنون عن ذواتهم وأجسادهم بل هم فانون فعلاً، لا يدركون حساً منهم ولا ما يشبه الحس، إذ أصبحوا في الحضرة الإلهية، وأصبحوا لا يحسون ولا يبصرون سواها، وإنهم ليصيحون ويعلوا صياحهم فرحاً وابتهاجاً بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله، وبما كشف عنهم من الحجب والأستار. وواضح ما يداخل هذه الأبيات من أفكار صوفية فلسفية كان ينكرها- كما قدمنا- أصحاب التصوف السني، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحاداً، ولا يدعون غيبة وهم حضور، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيري آنفاً لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد، ليس كمثله شيء، ولا كم له ولا كيف (لاَ تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) وليحيى السهروردي قصيدة في النفس حاكى فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التي صور فيها النفس سابقة للجسد، وهي تحل فيه ودائماً متشوقة إلى عالمها المثالي الأول، وفي ذلك يقول السهروردي:

خَلَعَتْ هياكلَها بِجَرْعاء الحِمَى ... وصَبَتْ لَمَغْناها القديم تَشَوُّقا

فهي تشتاق عالمها القديم، ولذلك تفارق الجسد الذي حلت فيه راضية مرضية، ولعل في هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردي بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلاً عن صلته بالفلسفة عامة.

٤

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، ونجدها متراصة في مطولة زهير وكانت تجري على ألسنة كثيرين يقطرون خبراتهم شعراً، لينتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم، وتظل مبثوثة في الشعر العربي طوال العصر الإسلامي، وتكثر في العصر العباسي وتتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التي عرفها العرب والتي نقلت عنها لهم الحكم والأمثال. ومر بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليلة ودمنة وما فيه من أمثال وحكم في نحو أربعة عشر ألف بيت، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال، وكلها حكم، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت، وروى أبو الفرج في ترجمته بكتابه الأغاني منها قطعة طويلة، وأكبر الظن أن كثيراً من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسي التي ترجمها ابن المقفع وغيره، وفي شعر أبي نواس بعض أمثال فرسية نص عليه القدماء. وقد مضى شعراء العصرين العباسي الأول والعباسي الثاني يسلكون في أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية، حتى إذا كنا في هذا العصر بإيران وجدن الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيراً من الأمثال المعروفة في لغتهم إلى أشعارهم العربية، بل لقد تصدى نفر منهم إلى صنع قصائد حكمية، هي ترجمات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبي عبد الله الضرير الأبيوردي، فقد ذكر له الثعالبي قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله [١]:

صِيامي إذا أفطرتُ بالسُّحْتِ ضَلَّةٌ ... وعلْمِي إذا لم يُجْدِ ضربٌ من الجَهْلِ [٢]

وتزكيتي مالاً جمعتُ من الرِّبا ... رِياءٌ وبعض الجود أخْزَى من البُخْلِ

---

(١) اليتيمة ٤/ ٩٠.

(٢) السحت: الكسب الحرام.

كسَارقةِ الرُّمَّان من كَرْم جارها تعود به المَرْضَى وتطمع في الفَضْل

ألا رُبَّ ذِئْبٍ مَرَّ بالقوم خاوياً فقالوا علاه البُهْرُ من كثرة الأكل [١]

وكان الشعراء يضمنون قصائدهم وأشعارهم كثيراً من الحكم، ومن خير من يمثل ذلك الطغرائي في لاميته المسماة لامية العجم، وهي تغص بالحكم والأمثال منذ مطالعها، ونكتفي بسرد طائفة من طرائفها على هذا النمط:

حبُّ السلامة يَثْنِ هَمَّ صاحبِهِ عن المعالي ويُغْرِي المرءَ بالكسلِ

أعلِّلُ النفسَ بالآمال أرْقُبها ما أضيقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأمل

تقدَّمَتْني أناسٌ كان شَوْطُهمُ وراء خَطْوِيَ إذ أمشي على مَهَل

وإن عَلانيَ مَنْ دوني فلا عجبٌ لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ

أعْدَى عدوِّك أَدْنَى مَنْ وثِقْتَ بهِ فحاذرِ الناسَ واصحبْهم على دَخَلِ [٢]

وإنما رجلُ الدنيا وواحِدُها مَنْ لا يعوِّل في الدنيا على رَجُلِ

وأكبر الظن أن الطغرائي لم ينقل شيئاً من هذه الحكم عن الفرس إنما هي ثمرة تجاربه وخبرته بالدنيا وبالناس من حوله.

ونمت الفلسفة في هذا العصر نمواً واسعاً، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مر بنا في الفصل الثاني، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تتشح بشيء من تفلسفه قليلاً أو كثيراً وأثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية في الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية، وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن الفس، وهي تصورها في عالمها العلوي الذي كانت تحيى فيه قبل اتصالها بالبدن حين يتخلق في الرحم، وفي عالمها السفلي حين تم هذا الاتصال بالجسد. وهو اتصال تقدم عليه وهي كارهة،

---

(١) البهر: تتابع النفس.

(٢) دخل: خبث ومكر.

وتظل في أثنائه متشوقة إلى عالمها العلوي، مع ما حدث لها فيه من ألفة، ولذلك تنفصل عنه كارهة كما اتصلت به كارهة، يقول [١]:

هبطتْ إليك من المحلِّ الأَرْفعِ ... وَرْقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ

محبوبةٌ عن كلِّ مُقْلَةِ ناظرٍ ... وهيَ التي سَفَرتْ فلم تَتَبْرقَعِ

وصلتْ على كُرْهٍ إليكَ وربما ... كرهتْ فراقَكِ وهْيَ ذات تفجُّعِ

أنفتْ وما ألفتْ فلما واصلتْ ... ألفتْ مجاورةَ الخرابِ البَلْقَعِ

وأظنُّها نسيتْ عهوداً بالحِمَى ... ومنازلاً بفِراقها لم تقْنعِ

حتى إذا اتصلتْ بهاء هُبوطها ... من ميم مَرْكزها بذاتِ الأجْرعِ

علقتْ بها ثاءُ الثَّقيلِ فأصبحتُ ... بين المعالم والطُّلول الخُضَّعِ

والورقاء: الحمامة كني بها عن النفس. وهو يصورها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع، عالم العقود المجردة أو العقول الكلية، الذي يجد فيه سعادتها وكمالها، ولذلك هي تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف، محجوبة عن كل حس، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها، وتنزل في البدن كارهة لأنه ليس من جنسها، غير أنها تأنس له مع الأيام، حتى إذا فارقته توجعت له وتفجعت عليه، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر، وكأنما نسيت عهودها بعالمها العلوي لأنسها لهذا الجسد الفاني الذي هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقته، عشقت مشخصاته الأرضية التي عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع، وغدت تحن إلى دياره ومعالمه وطلوله حنين الشعراء لمعشوقاتهم، ويمضي قائلاً:

تبكي وقد نسيتْ عهوداً بالحِمَى ... بمدامعٍ تَهْمِي ولما تُقْلعِ

وتظل ساجعةً على الدِّمَنِ التي ... دَرَسَتْ بتكرار الرياحِ الأرْبَعِ

حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمَى ... ودَنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع

---

(١) انظر العينية في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ـ بيروت) ص٤٤٦ وقارن بابن خلكان ٢/ ١٦٠.

وغدتْ مفارقةً لكلِّ مخلَّفٍ عنها حَلِيفِ التُّرْب غيرِ مشيَّع

هجعتْ وقد كُشف الغطاء وأبصرتْ ما ليس يُدْرَكُ بالعيون الهُجَّعِ

وغدت تغرِّد فوق ذِرْوةِ شاهقٍ والعلمُ يرفع كلَّ مَنْ لم يُرْفَعِ

فهي تحن إلى عهودها القديمة وتبكي بدموع غزار الدمن أو أجزاء البدن التي توشك على الفساد والانحلال، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى، بل حتى فارقته فعلاً، فارقت البدن الفاني، عادت إليها سكينتها واستراحت، إذ كشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التي ألم بها النوم، وغدت تغرد فرحة، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء، العلم الكلي الشامل الذي كانت قد نسيته في سكناها البدن، ويستمر سائلاً متحيراً:

فلأيِّ شَيءٍ أُهْبِطَتْ من شاهقٍ سامٍ إلى قَعْرِ الحضيض الأَوْضَعِ

إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ طُويتْ عن الفَطِنِ اللبيب اللَّوْذَعي

إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيفُ فصدَّها قَفَصٌ عن الأَوْجِ الفسيح الأَرْبُعِ

فهبوطها- لا شكَّ- ضربةُ لازبٍ لتكون سامعةً لما لم تسمع

وتعود عالمةً بكل خَفيَّةٍ في العالمين فَخَرْقُها لم يُرْقَعِ

وهي التي قَطَعَ الزمانُ طَريقها حتى لقد غَربتْ بغير المطلعِ

فكأنها بَرْقٌ تألَّقَ بالحِمَى ثم انْطَوَى فكأنه لم يَلْمَعِ

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوي إلى العالم السفلي ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت؟ ويجب إن كان في ذلك حكمة لله جل شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضي وتقف على أسراره، بجانب ما كانت تعالم من العالم العلوي، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوي. عادت وقد تمت رحلتها في الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى

إليه هذا الشروق من غروب، وكأنها في هذه الرحلة القصيرة برق لمع، ثم طوته السحب طيا. وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها، متصلة في الحالين بالعقل الكلي إلا ما كان من رحلتها القصيرة في الأرض وخلال البدن، ومع ذلك فهي في هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ما تضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوي. وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد. ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال، كان أحدهما يعني بنقلها عن الفارسية وكان الثاني يعني بوضعها ونظمها في أشعاره، وهما أبو الفضل السكري المروزي وأبو الفتح البستي.

أبو الفضل[1] السكري المَرْوزيّ

هو أحمد بن محمد بن زيد، يقول فيه الثعالبي: " شاعر مرو وظريفها، وله شعر مليخ خفيف الروح كثير الملح والأمثال " ويورد بعض أشعاره، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالاً للفرس، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذي خص به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمي لوفرة ألحانه وأنغامه، حتى يتلافوا ما في هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر، وظل ذلك ثابتاً طوال العصور التالية إلا ما ندر. فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول في الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت، مع الاحتفاظ بها في كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر في واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة، فهي تتألف من شطرين شطرين، وكل شطرين يتحدان في قافيتهما. ويقف الثعالبي عند مزدوجة لأبي الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس، ويورد منها ثلاثة عشر بيتاً من مثل قوله:

من مُثل الفُرْس ذوى الأبصارِ الثوبُ رَهْنٌ في يَدِ القَصَّارِ[2]

---

(١) انظر في ترجمة أبي الفضل السكري اليتيمة ٤/ ٨٧ وما بعدها.

(٢) القصار: صابغ الثياب.

نال الحمارُ بالسقوط في الوَحَلْ ... ما كان يَهْوَى ونجا من العمَلْ

والعَنْزُ لا يَسْمَنُ إلا بالعَلَفْ ... لا يَسْمَنُ العَنْزُ بقولٍ ذي لَطَفْ [١]

البحر غَمْرُ الماء في العِيانِ ... والكلبُ يَرْوَى منه باللسانِ [٢]

من لم يكن في بيته طعامُ ... فمالُه في مَحْفِلٍ مقامُ

كان يقال: من أتى خوَانا ... من غير أن يُدْعَى إليه هانا [٣]

ويعلق الثعالبي بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله: " وكان أبو الفضل السكري مولعاً بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية " وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجماته الأخرى غير مزدوجة، من ذلك قوله:

إذا لم تُطِق أن تَرْتَقِي ذِرْوَةَ الجبَلْ ... لعجْزٍ فقِفْ في سَفْحه هكذا المثَلْ

وقوله:

في كلِّ مستحسنٍ عَيْبٌ بلا رَيْبِ ... ما يَسْلَمُ الذهب الإبريزُ من عَيْبِ

وقوله:

ادَّعَى الثَّعلبُ شيئاً وَطَلَبْ ... قِيلَ هَلْ من شاهدٍ؟ قال: الذَّنَبْ

وقوله:

تَبَخْتَرَ إخفاءً لما فيه من عَرَجْ ... وليس له فيما تكلَّفه فَرَجْ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان في عصور طويلة، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التي تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل، وهي لذلك تدخل في باب الآداب الشعبية، لأنها تتداول على ألسنة الشعب، وكأنها

---

(١) لطف: رفق.

(٢) الماء الغمر: الكثير العميق.

(٣) الخوان: مائدة الطعام.

عملات لغوية عامة، كل يستخدمها، وكل يلفظ بها عند مناسبتها، وكأنما يلقي بها الكلمة التي لا ترد، ولذلك سميت حكمة، فهي حكمة الشعوب وخبرتها مركزة في قطرات أو كلمات.

أبو الفتح[١] البُسْتيّ

هو علي بن محمد، ويعد من كبار الأدباء الإيرانيين في زمنه، وكان يحسن الكتابة والشعر باللسانين العربي والفارسي وعرف له أمير بست مكانته، فاتخذه كاتباً له، حتى إذا فتح بلدته الأمير سبكتكين قربه منه وقلده الكتابة في ديوانه، وحل عنده محل الثقة الأين في مهمات شئونه. ونعم بجواره، واشتهر بما صور في كتبه وأشعاره من فتوحه، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوي، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخاري وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعي المذهب معتزلي العقيدة.

ويعرف به الثعالبي فيقول: " صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس، وكان يسميه المتشابه ويأتي فيه بكل طريفة لطيفة ". ولم يكن يستخدم الجناس استخداماً واسعاً في أشعاره فحسب، بل كان أيضاً يستخدمه في كتاباته ونثره. ويورد الثعالبي طائفة من جناساته وسجعاته في رسائله، يدل بها على قدرته في التجيس البديع الصيغة، فمن ذلك قوله:

" مَنْ أصلح فاسده، أرغم حاسده. مَنْ أطاع غضبه، أضاع أدبه. عادات السادات، سادات العادات. مِنْ سعادة جَدِّك، وقوفُك عند حَدِّك. الخيبة، تهتك الهيبة. الدَّعة، رائدة الضَّعة. أجهلُ الناس مَنْ كان للإخوان مُذِلا، وعلى السلطان مُدِلاّ. إذا بقى ما قاتك، فلا

---

(١) انظر في ترجمة أبي الفتح البستي وشعره اليتيمة ٤/ ٣٠٢ وما بعدها والمنتظم ٧/ ٧٢ وتاريخ الحكماء للبيهقي: ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٢٩٣ وابن خلكان ٣/ ٣٧٦ وشذرات الذهب ٣/ ١٥٩ وعبر الذهبي ٣/ ٧٥ والأنساب ٨٠ب وروضات الجنات ٤٨٢ والنجوم الزاهرة ٤/ ١٠٦ وديوانه مطبوع.

تأس على ما فاتك. المنيَّة، تضحك من الأُمْنيَّة. حَدُّ العَفاف، الرضا بالكَفاف. ظِلُّ الجفاء، يَكْسف شمس الصفاء ".

ويأخذ الثعالبي في عرض أغراض شعره بادئاً بملحه في الغزل والخمر، وهي ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعاني بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس، وكأنما أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صع أشعاره، على نحو ما نجد في قوله متغزلاً:

وغزالٍ كلُّ مَنْ شَبَّهَهُ ... بهلالٍ أو ببدْرٍ ظَلَمَهْ

قال إذ قبَّلتُ بالوهم فَمَهْ ... قد تعدَّيْتَ وأسرفتَ فمَهْ

ومَه في آخر البيت الثاني اسم فعل أمر بمعني اكففْ. وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناساً تاماً بينها ومعها الفاء وبين كلمه " فمه " في آخر الشطر الأول. وعلى نفس الشاكلة قوله في الخمر لصاحبه:

أوانٍ أنت في هذا الأوانِ ... عن الرَّاحِ المروَّق في الأواني

فقد جانس بين " وان " في أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليتم له جناس كامل بينها وبين كلمة " الأوان " في آخر الشطر الأول بمعنى الزمان، ثم بينهما وبين كلمة "الأواني" في آخر البيت جمعاً لإناء. وبالمثل معاتباته وأهاجيه ومدائحه كقوله في مديح كاتب وكتابته:

لم تَرَ عيني مثلَه كاتباً ... لكل شيءٍ شاءَ وشَّاءَ

يُبْدع في الكُتْب وفي غيرها ... بدائعا إن شاءَ إنشاءَ

والجناس الناقص واضح بين " شيء " و"شاء" و"وشّاء" أو منمق، وأتى بجناس تام في البيت الثاني بين كلمتي " إن شاء " و"إنشاء". ويعترف بأنه سمع وهو صبي شاعراً من موطنه "بُسْت" يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته [1]. وكان هو نفسه

(١) اليتيمة ٤/ ٣٣٧ واسم الشاعر شعبة بن عبد الملك.

عاملاً مهماً في إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين في زمنه [1] وبعد زمنه. وعني غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوعي الذي مر بنا ذكره. وكان أبو الفتح يتصنع كثيراً في شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظهراً مصطلح اللازم والمتعدي:

قال لي لما رآني ... طالباً مالاً ورِفْدَا

إن مالي يا حبيبي ... لازمٌ لا يتعدَّى

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع في زمنه، ومما لا شك فيه أن البستي كان من عوامل إذاعته وانتشاره في الأوساط الأدبية الإيرانية. على أنه ينبغي أن لا نحمل على تصنع أبي الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجناس بصوره التامة والناقصة، فقد كان ينفذ في أحيان كثيرة إلى استخدام رشيق للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه، وكان يدعي سعة الفكر والمنطق العميق:

بَيْني على الفكرة أعمالَهُ ... وذاك في التحقيق أَعْمَى لَهُ

فقيَّض الرَّحْمَنُ أَفْعَى لَهُ ... تُريهِ في الخَلْوة أفعالَهُ

وواضح جناسه التام بين " أعماله " و" أعمى له " في البيت الأول، وبين "أفعى له" و"أفعاله" في البيت الثاني. ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال في أشعاره، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة، ومن أروع ما له في هذا الجانب نونيته، وهي طويلة، وفيها يقول:

زيادةُ المرءِ في دنياه نُقْصانُ ... ورِبْحُهُ غيرَ مَحْضِ الخيرِ خُسْرَانُ

يا عامراً لخراب الدَّارِ مجتهداً ... بالله هل لخراب العُمْرِ عُمْرَانُ

ويا حريصاً على الأموال يَجْمَعُها ... أَقْصِرْ فإنّ سرور المال أحزانُ

أَحْسنْ إلى الناس تستعبدْ قلوبهمُ ... فطالما اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

---

(١) اليتيمة ٤/ ١٥١.

وكُنْ على الدهر مِعْواناً لذي أمَل ... يرجو نَداك فإن الحرَّ معْوانُ

واشْدُدْ يَدَيْك بحَبْلِ الله معتصماً ... فإنه الرُّكْنُ إن خانتْك أركانُ

مَنْ جاد بالمال مالَ الناسُ قاطبةً ... إليه والمالُ للإنسان فَتَّانُ

والناسُ أعوانُ مَنْ واتَتْه دولتُه ... وهم عليه إذا عادتْه أعوانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكمية منذ حياته وانتشرت في العالم العربي، وأخذت الأجيال العربية ترددها في كل بلد، حتى لتصبح قصيدة شعبية، ينشدها الناس في كل مكان، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها في مقاهي القاهرة. ولعل في هذا ما يدل- من بعض الوجوه- على ما يمتاز به الشعر العربي الفصيح من شعبيته، فقصيدة تنظم في أقصى بيئاته في الشرق في "بُسْت" بأفغانستان الحالية تنشد في قلب العالم العربي بالقاهرة، ويحفظها الشباب ويستظهرونها في المغرب كما يستظهرونها في المشرق. ويعقد الثعالبي فصلاً طويلاً لحكم البستي، ووراءها حكم وأمثال كثيرة في ديوانه، ومن طرائفه الحكمية قوله:

لا تَحْقِرِ المْرء إنْ رأيت به ... دمامةً أو رثاثةَ الحُلَلِ

فالنَّحْل شيءٌ على ضؤولتِه ... يَشْتارُ منه الفتى جَنَا العَسَلِ [1]

وقوله:

لا يَستخفَّنَّ الفَتى بعدوِّه ... أبداً وإن كان العدوُّ ضَئِيلا

إن القَذَى يُؤْذي العيونَ قليلُه ... ولربما جَرح البعوضُ الفِيلا

وقوله:

ألم تَرَ أنَّ المرءَ طولَ حياتِه ... مُعَنًّ بأمرٍ لا يزالُ يُعالجُهْ

يدور كدودِ القّزِّ يَنْسِجُ دائماً ... ويهلك غَمًّا وَسْطَ ما هو ناسِجُهُ

---

(١) يشتار: يجتني.

وعلى هذا النحو لا نزال نقرأ عند أبي الفتح البستي حكماً طريفة. مما يدل على بعد نظره واتساع خبرته. وكان يخليها من الجناس عادة، حتى تخف على ألسنة الناس وتدور في أفواههم، ومن الحق أنه كان شاعراً خصب القريحة، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ بديعة.

obeikandl.com

٥

شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربي انفصل في عصر من عصوره عن شعوبه، إذ كان دائماً ترجماناً عن عواطفها ومشاعرها، حتى في المديح، فإن الشعراء كانوا يمدحون الحكام بالمثل العليا التي تتطلبها شعوبهم فيهم، ولم يتركوا لهم عملاً قدموه لشعوبهم دون أن يحمدوه لهم حمداً كثير، سواء أكان في الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم في الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها. وكثرة الشعراء كانت من عامة الشعوب العربية، فكان طبيعياً أن تتضح في أشعارهم روحها ومشاعرها وكل ما يجري في خواطرها. وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد الذي يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها. وكانت تعيش كادحة كدحاً مريراً، لكي تثرى وتنعم بثمار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين. ولم يكن أمام هذه الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطيباتها، وهي لذلك تقبل على شعر الزهد، ويصبح هذا الشعر غذاءها. لا شك في أن شعبية هذا الشعر هي التي جعلته يسهل في لغته سهولة شديدة، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوي، بل تحب الأساليب السهلة المبسطة الخفيفة التي تفهمها بمجرد أن تقرع أسماعها. وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبياً في لغته الشعرية، وكان مما أكد شعبيته ذيوعه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقصاص والفقهاء وأصحاب الحديث، فكان الناس يسمعونه في كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا يسمعون منه على ألسنة الشعراء، وحتى شعر المجون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب ونقصد أصحاب الثراء واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق في بعض منه آثار الشعبية، غير أنها هذه المرة لا تأتي من سهولة الألفاظ وإنما تأتي مما كان يقترن به أحياناً من دعابة، مما يجعله أقرب إلى النوادر المضحكة، وتأتي أيضاً من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية التي تشيع على ألسنة العامة، ويلقانا منهم كثيرون في اليتيمة وتتمتها وفي دمية القصر والخريدة. وطبيعي أن يشيع شعر شيعي كثير على ألسنة الشيعية، يرويه خالف لهم

عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثي الحسين، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية، مما تزخر به كتب الطبقات.

ونجد في اليتيمة شاعراً من الأهواز يسمى محمد [١] بن عبد العزيز السوسي، يقول فيه الثعالبي إنه كان أحد شياطين الإنس، ويذكر أن له قصيدة كانت تُرْبِي على أربعمائة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات، أولها:

الحمدُ لله ليس لي بَخْتُ ... ولا ثيابٌ يضمُّها تَخْتُ [٢]

سِيَّان بَيتي لمن تأمَّلَهُ ... والمَهْمَهُ الصَّحْصَحَان والمَرْتُ [٣]

أمنتُ في بيتيَ اللصوصَ فما ... للصِّ فيهِ فوقٌ ولا تَحْتُ

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صوان، فكل ما يملكه فوق جلده، وبيته فارغ من الأثاث ومن أي شيء يكون في البيوت عادة، وكأنه فلاة مقفرة، وطبيعي أن يأمن اللصوص، فليس في بيته ما يسرقونه، وكأنه سجن ولا حرس له. ويمضي فيما رواه الثعالبي من القصيدة، فيذكر أنه اضطر إلى أن يتخذ مظهر متسولة الصوفية فقصر ثيابه، وأحفى شاربه مستقصياً، وحمل سجادة، وذهب إلى الحج دون أن ينويه، ودخل المسجد الحرام وصلى في مقام الخليل ليوهم الناس أنه صوفي حقاً، حتى يعطفوا عليه ويحسنوا إليه. والقصيدة كانت كلها هزلاً على هذا النمط.

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكدية أو التسول الأدبي، ويعرفون أيضاً باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسي يسمى ساسان حرمه أبوه من الملك، فهام على وجهه محترفاً للكدية، وتشبه هذه الجماعة طائفة الأدباتية التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضي والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه. ونجد مقدمات هذه

---

(١) اليتيمة ٣/ ٤٢٦.

(٢) التخت: الصوان.

(٣) المهمة: الفلاة، الصحصحان: المستوى الواسع، المرت: القفر لانبات فيه.

الجماعة الساسانية في أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حيلها وخدعها، ويتلوه البيهقي فيصور في كتابه المحاسن والمساوئ ألواناً من هذه الخدع والحيل. وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها في العصر: أبي دلف الخزرجي.

أبو دُلَف الخزرجي: مِسْعر بن مُهَلْهِل[١]

شيخ هذه الجماعة بإيران في العصر ومقدمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجري وقد عاش في بلاط نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية في عودتها إلى الصين، وفي عودته طاف بالهند. وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهي كما يوضح ذلك الثعالبي ونراه يعقد له ترجمة طويلة في اليتيمة، ويعرف به على هذا النحو: " شاعر كثير المُلَح والطرف، مشحوذ المُدية في الكُدْية، خَنق التسعين في الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب، وضرب صفحة المحراب بالجراب، في خدمة العلوم والآداب.. وكان ينتاب حضرة الصاحب (بن عباد) ويكثر المقام عنده، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته، ويرتفق بخدمته، ويرتزق في جملته، ويتزود كتبه (رسائله إلى الولاة برعايته) في أسفاره فتجري مجرى السفاتج (الحوالات المالية) في قضاء أوطاره. وكان الصاحب يحفظ مناكاة (كلام ومصطلحات) بني ساسان حفظاً عجيباً، ويعجبه من أبي دلف وفور حظه منها، وكانا يتجاذبان أهدابها، ومن قول أبي دُلف:

وَيْحَكَ هذا الزمانُ زورُ ... فلا يغِرَّنَّك الغَرورُ[٢]

زَوِّقْ ومَخْرِقْ وكُلْ وأَطْبِق ... واسْرِقْ وَطلْبِقْ لمن يزور

لا تلتزمْ حالةً ولكنْ ... دُرْ بالليالي كما تدورُ

---

(١) انظر أبا دلف في اليتيمة ٣/ ٣٥٢ وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١/ ١٨٨ وفي دئرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبي دلف نشر مينورسكي بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمستشرقين روسيين ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسي (نشر عالم الكتب بالقاهرة).

(٢) الغرور: كل ما غر الإنسان من شيطان أوحاه أو مال أو متاع.

obeikandi.com

والأبيات تصور حياة أبي دلف وأنها تقوم على المخرقة والتحامق والخطف والسلب والنهب. وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية، أو هكذا أسماها الثعالبي، وهي في ذكر المكدين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم، استهلها بالتعريف ببني ساسان الأدباتية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعسر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات، ثم يقول:

فنحن الناسُ كلُّ النا ... س في البَرِّ وفي البَحْرِ

أخذنا جِزْيَةَ الخلقِ ... من الصِّين إلى مِصْرِ

إلى طَنْجَةَ بل في كـ ... ـلِّ أرضٍ خَيْلُنا تَسرِي

إذا ضاق بنا قُطْرٌ ... نَزُلْ عنه إلى قُطْر

لنا الدنيا بما فيها ... من الإسلام والكُفْر

فَنصْطافُ على الثَّلْجِ ... ونَشْتُو بلدَ التَّمْرِ

وطريف أن يعد أبو دلف ما يأخذه الساسانيون من الناس بتفاصحهم وخدعهم وحيلهم الأدبية جزية. ويصور الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها داراً لهم من الصين على المحيط الهادي إلى طنجة والمحيط الأطلسي، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم، يصطافون في أقاليمها الباردة، ويشوت في أقاليمها الحارة الدافئة. ثم يأخذ أبو دلف في وصف حيلهم وصفاً مسهباً، وكيف أنهم كانوا يحتالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويذ وأحراز، وكيف أن القاص منهم كان يتفق مع صاحب له، ليفد على مجلس قصصه، فيأمر السامعين بإعطائه ما يجودون به، ثم إذا تفرقوا عنه تقاسما ما أعطوه. ويصورهم يتباكون في البرد القارس خداعاً للناس، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم رداهمهم وكيف أنهم حين يلمون بحوانيت الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرة أو تينة من هناك، وكيف يدهنون وجوههم بماء البيض الأصفر، لتبدو شديدة الصفرة، وكيف يعصبون جباههم ليوهموا الناس أنهم مرضى، وكيف يعقرون أو يجرحون أنفسهم بالأمواس، وكيف يطلون

أجسادهم بالزيت حتى تسود جلودهم، وكيف يدارون ألسنتهم موهمين الناس أن الروم قطعوها في جهادهم، محاولين أن يبتزوا منهم الثياب والسلاح للغزو، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به، وكيف يحتالون على مرضى الأسنان بوضع دون الجبن بين أسناهم ثم استخراجه، وكيف يروون للناس كذباً الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار، وكيف يلبسون ثياق المتصوفة والرهبان احتيالاً، وكيف يوهمون الاس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى في ديار الروم فداء لهم، وكيف يخفون إحدى أيديهم إيهاماً بأنها مقطوعة، وكيف يخيلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا، وكيف يوهمونهم بأنهم عميٌ لا يبصرون، وكيف يدورون بين العشائين منادين: رحم الله من عشي الغريب الجائع، آخذين من كل دار كسرة، وكيف يحتالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم، وكيف يحتالون على الشيعة خاضبين لحاهم بالحناء مع حملهم الألواح والسبح من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين، مع نواحهم عليه ورواية الأشعار في فضائله ومقتله، وكيف أنهم يحتالون لذرف الدموع بغمس قطنة في الزيت وإمرارها على عيونهم، وكيف يستأجرون الصبيان والنساء ويكدون أو يشحذون عليهم، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت السبحات وأقراص الحلوى، وكيف يرقون المجانين وأصحاب العاهات، وكيف يموهون بأنهم صائمون وأنهم سيحجون عن الناس، وكيف يعبرون للناس رؤاهم، وكيف يستأجرون الصبيان، وكيف يحملون السلال فيها الحيات وقد قلعوا أنيابها، وكيف يدعون الطب ومداواة المرضى، وكيف يشحذون أو يكدون على الدببة والسباع والقردة، وكيف يرعدون رعدات شديدة تهتز لها مفاصلهم وتصطك أسنانهم، وكيف أنهم يشدون أيديهم مجموعة الأصابع حتى يظن أنها مقطوعة، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقعات حتى يظن أنهم من الصوفية. وما يزال أبو دلف في وصف خدع القوم وحيلهم، حتى يوفي على نهاية القصيدة قائلاً:

ألا إني حَلبتُ الدَّهـ ـرَ من شَطْرٍ إلى شَطْرِ

وجُبْتُ الأرضَ حتى صر تُ في التَّطواف كالخِضْر

فإنْ أظفَرْ بآمالي ... تَشَفَّتْ غُلَّةُ الصَّدْر

وألمت بأوطـاني ... قَويَّ النَّهْي والأمر

وقد تَخفق فوقي عـ ... ـزَّةً ألويةُ النَّصْرِ

وإما تكن الأخرى ... وعِزٌّ جائزُ الكسر

فلا أُبْتُ مع السَّفْرِ ... غَداً في أوبةِ السَّفْرِ

ولا عُدْت متى عُدْتُ ... بلا عِزٍّ ولا وَفْرِ

ويقـول إن لـه أسـوة في غربتـه بالـسادة الطهـر آل البيـت كـما تـشهد قبـورهم في الكوفـة وكربلاء وبغداد وسامرا وطوس وباخمرا بـالقرب مـن الكوفـة. وفي ذلـك مـا يـدل عـلى أنـه كـان شيعياً، وأكبر الظن أنه كـان إمامياً مثـل الـصاحب بـن عبـاد. وقـد صـور في قـصيدته كـل أفـانين المكدين وحـيلهم مـستخدماً مـصطلحاتهم في هـذه الحيـل، ممـا جعلـه يُعْنَـى بـشرح القـصيدة بيتـاً بيتاً، وعنـه نقـل الثعـالبي الـشرح، ولخـصناه في إيجـاز. والمـصطلحات كلهـا شـعبية، ومـن المؤكـد أن جماعـة الكديـة كلهـا كانـت جماعـة شـعبية، ولا شـك في أن أبـا دلـف يعـد خـير شـاعر في عصره عبر عن نفسه وعن هذه الجماعة.

ولأبي دلـف رحـلات إلى الـصين وأواسـط آسـيا دون اقتباسـات كثـيرة منهـا يـاقوت في "معجـم البلـدان" والقزوينـي في كتابـه " آثـار الـبلاد " ووجـدت لـه رسـالتان حلـل أولاهمـا المستـشرق الألمـاني رور صـوير موضـحاً أنـه يتحـدث فيهـا عـن رحلتـه إلى الـصين، ونـشر الرسـالة الثانيـة المستـشرق مينورسـكي (طبـع وزارة التربيـة والتعلـيم بالقـاهرة) كـما نـشرها مستـشرقان روسـيان وعنـي الـدكتور محمـد منـير مـرسي بترجمـة مـا بـذلاه في نـشرتهما والتعليـق عـلى الرسـالة تعليقـات علميـة نافعـة، تـذلل صـعوباتها وتجعلهـا ميـسرة للقـارئ. وفيهـا يـصف أبـو دلـف رحلتـه في أواسـط آسـيا مـن جنـوبي أذربيجـان إلى مدينـة بـاكو فتفلـيس فأردبيـل فهمـذان فـالري فطبرسـتان فقـومس فطـوس فنيـسابور، فهـراة، فأصـفهان، فمـدن خوزسـتان. ويعنـي بوصـف المـدن والقـلاع التـي شـاهدها وصـفاً دقيقـاً ذاكـراً معادنهـا وثمارهـا وأسـواقها وأسوارها وسكانها من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة.

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

تنوع الكتابة

رأينا في العصرين: العباسي الأول والعباسي الثاني كيف تطور النثر العربي حتى وعى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الخصبة المثمرة في ميادين العلم والفلسفة. ونحن لا نصل إلى هذا العصر: عصر الدول والإمارات، حتى يصبح في أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حية في الفلسفة وعلوم الأوائل، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع. وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر: نوع علمي ونوع فلسفي، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب في مصطلحات العلوم، كما أسلفنا، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة. ولم يتركوا علماً دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام، ويحدثنا المطهر المقدس المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمي وما يبذلون من عناء ليس وراءه عناء قائلاً[1]:

" يأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتمجرد له بكليته، ومتوفر عليه بأنيته، معانٍ له بالقريحة الثاقبة، والروية الصافية، مقترن به التأييد والتسديد، قد شمر ذيله، وأسهر ليله، حليف النصب، ضجيع التعب، يأخذ مأخذه متدرجاً، ويتلقاه متطرفاً، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام، ومع هجران عادة الشر، والنزوع عن نزاع الطبع، ومجانبة الإلف، ونبذ المماحكة واللجاجة، وإجالة الرأي عند غموض الحق، والتأتي بلطيف المأتى، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح، والتفريق بين التمويه والتحقيق، والوقوف عند مبلغ العقول، فعند ذلك إصابة المراد، ومصادفة المرتاد ".

---

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسي ١/ ٤.

وبهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلاً رائعاً، وكان لذلك آثار كثيرة في تنوع فنون الكتابة والنشر، مما نراه واضحاً لا في الكتابات العلمية والفلسفية فحسب، بل أيضاً في الكتابات الأدبية، ولنأخذ جانباً واحداً هو جانب القصص، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبي الخالص قصص صوفي وقصص فلسفي. ومعروف أن المترجمين عنوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسي والهندي وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة. ومحاكاةً له ألف محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً قصصياً مماثلاً يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم. ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى ليذكر حمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة في أيامه بلغت سبعين كتاباً[1]، وكانت العامة تتلهف منها ما يدور حول الحب وحكاياته أو حول الجن. وطبيعي أن تكثر كتب النوادر، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين، وتكثر أيضاً كتب الندماء وأخبارهم.

ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه أخذت تتكون منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة، تصور جهادهم في نسكهم جهاداً مضنياً، وحكايات أخرى بجانبها تصور كراماتهم. وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبي وألفاظه ولغته[2]. وكلما مضينا في عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة، لما كانت تلقى من رواج عند العامة، ويكفي أن نعرض أطرافاً من هذه الحكايات عند القشيري مؤسس التصوف السني، فقد فتح في رسالته باباً لكرامات الأولياء، وقص حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة في إيران والعراق ومصر والخضر عليه السلام. ومما حكاه أنه كان في قصر سهل التستري المتصوف بيت يسمى بيت السباع، يقول: فسألنا عن ذلك؟ فقالوا كانت السباع تجيء إلى سهل، وكان يدخلهم هذا البيت ويضيفهم ويطعمهم اللحم ثم يخليهم! وحكى

---

(١) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص٤٠.

(٢) انظر العصر العباسي الثاني (طبع دار المعارف) ص٢٥٩.

عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التستري صومعته، فوجد فيها سفطاً (وعاءً) فيه قارورتان، في واحدة منهما شيء أحمر، وفي الأخرى شيء أبيض، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة، فرمى بالشوشقتين في دجلة، وخلط ما في القارورتين بالتراب! وكان على إسحق دين، قال بان سالم: قلت لسهل إيش كان في القارورتين، قال: إحداهما لو طرح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس صارت ذهباً، والأخرى لو طرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة. فقال سامع لابن سالم: وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق؟ فقال له: إي دوس (يا صاحبي) خاف على إيمانه. وحكى عن الخواص أنه قال: كنت في البادية مرة، فسرت في وسط النهار، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء، فنزلت، فإذا أنا بسبع عظيم أقبل، فاستسلمت، فلما قرب مني، إذا هو يعرج، فحمحم وبرك بين يدي، ووضع يده في حجري، فنظرت، فإذا يده منتفخة، فيها قيح ودم، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذي فيه القيح، وشددت على يده خرقة، ومضى، وإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبصان لي وحملا إلي رغيفاً!. وحكى عن ذي النون في رواية أبي بكر بن عبد الرحمن قال: كنا مع ذي النون المصري في البادية، فنزلنا تحت شجرة أم غيلان، فقلنا: ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب، فتبسم ذو النون، وقال: أتشتهون الرطب، وحرك الشجرة، وقال: أقسمت عليك بالذي ابتدأك وخلقك شجرة إلا نثرت علينا رطباً جنياً، ثم حركها، فنثرت رطباً جنياً، فأكلنا وشبعنا. ثم نمنا، وانتبهنا وحركنا الشجرة، فنثرت علينا شوكاً!. ومما حكاه عن الخضر في رواية أبي عمران الواسطي قال: انكسرت السفينة، وبقيت أنا وامرأتي على لوح وقد ولدت في تل الحالة صبية، فصاحت بي، وقالت لي: يقتلني العطش، فقلت: هو ذا يرى حالنا، ورفعت رأسي، فإذا رجل في الهواء ومعه كوز، فأخذت الكوز وشربنا منه، وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل، فقلت: من أنت؟ رحمكالله، فقال: عبد لمولاك، فقلت: بم وصلت إلى هذا؟ فقال: تركت عواري الدنيا لمرضاته، فأجلسني في الهواء، ثم غاب عني ولم أره.

وتكثر أمثال هذه الحكايات في كتب المتصوفة، وواضح ما فيها من إبطال قانون النسبية، وإنما رويناها لندل على ذيوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة، وكانت تروى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحى قريبة من أفهام العامة، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع في أوساطهم وتنتشر، عاملة- إلى حد- في الإبقاء على الفصحى، لغة متداولة على ألسنة الإيرانيين في ذلك العصر، خاصة أنهم كانوا يشغفون بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص، لا تتناول الكرامات فحسب، بل أيضاً تتناول جوانب أخرى كرؤيا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحلم ورؤيا الصحابة والصوفية ورؤيا الحور العين. وفي رسالة القشيري من ذلك حكايات مختلفة، وبالمثل في كتب المتصوفة ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبي الليث السمرقندي المطبوع على هامش الروض الفائق في المواعظ والرقائق.

ويلقانا بجانب القصص الصوفي قصص فلسفي رمزي عند ابن سينا ويحيى السهروردي، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص، هي حي بن يقظان وسلامان وأبسال، ورسالة الطير. وتستهل أقصوصة حية بن يقظان بأن رفقاء (هي شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتنزهون، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخاً بهياً هو حي بن يقظان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال. ويدور حوار بين حي بن يقظان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التي توقع الإنسان في الشر، وأن الإنسان تحفّه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القذرة ولا نجاة منها إلا بالموت، مثلها في ذلك مثل الرفقاء السوء من الغرائز، وأن على الإنسان أن يقمعها بالمجاهدة. ويقول حي بن يقظان إن حدود الأرض ثلاثة، حد يحوزه الخافقان، ويقصد به المركبات المحسوسة، وحد المغرب ويقصد به الهيولي، وحد المشرق ويقصد به الصورة. وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المغتسلون في عين فوارة لعلها علم المنطق تطهرهم وتزكيهم، إذ تضيء لهم الحقائق. ويشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة

التي تتسلط على الأرض والكون، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهي الذات الإلهية. ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رتب على سكك خمس كسكك البريد، ويريد بها الحواس الخمس، ويقول إن في الأرض أمة بررة رامزاً بها إلى القوى العاقلة. وبذلك تنتهي الأقصوصة.

وأقصوصة سلامان وأبسال لها أصول يونانية، وهما أخوان كان أبسال أصغرهما سناً وتربى في كنف أخيه، ونشأ جميلاً عفيفاً، شجاعاً عالماً أديباً. وسلامان في الأقصوصة هو النفس الناطقة، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان، وكانت لسلاما زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة، عشقت أبسال، فقالت لزوجها أخلطه بأسرتك، ولما خلت به أظهرت له عشقها، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية. ومكرت به فزوجته بأختها، وقالت لها إنني لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك، وإنما ليكون لنا معاً. وفي ليلة الزفاف جاءته بدلاً من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها، فلاح برق في السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها. ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق، وينكشف الشرك لعين أبسال، ويتخلص من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض. وينتظم جندياً في الجيش ويفتح كثيراً من البلاد رمزاً إلى الإطلاع على الملكوت الأعلى. وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسان لأبسال السم ويموت. ويثأر الأخ لأخيه، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزي القوة الشهوانية) والطابخ (رمز القوة الغضبية). وسلامان نفسه في قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية.

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزاً للحرية، ويستهلها بدعوة إخوانه الفلاسفة إلى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال، ويتصور نفسه طائراً مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون، فنصبوا لها الشباك، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبثت بأجنحته وأرجله، فاستسلم للهلاك، وشغل كل طائر عن أخيه بأمره وكربه ناسياً حريته الضائعة كما نسيت الأرواح الإنسانية عالمها الذي هبطت منه، وأصبحت سجينة البدن. وتخلص بعض الطيور رءوسها وأجنحتها من الشباك، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها. ويجمع

الطير قوته والشباك عالقة به، ويـيمم جبـل الملـك رجـاء أن يفكهـا عنـه، ويـرى مـن دونـه سـبعة جبـال مـا يـزال يقطـع وديانهـا حتـى يـصل إلى الجبـل الثـامن ويعـرف أن الملـك في مدينـة وراءه فينفـذ إليـه ويبهـره جمالـه، ويتـضرع إليـه أن يفـك عنـه الـشباك، ويقـول لـه لا يـستطيع فكهـا إلا عاقـدوها، ويرسـل إلـيهم رسـولاً معـه ليفكوهـا عنـه، وانـصرف الطـير مـسروراً. وواضـح أن كـل هـذا الجهـاد مـن جبـل إلى جبـل إنـما كـان في سـبيل تخلـص الأرواح مـن أجـسادها، وترمـز الجبال إلى مقامـات الـسلوك إلى محبـة الله المعروفـة في بيئـات المتـصوفة، بينـما يرمـز الرسـول الـذي يفك الشباك عن الطير إلى ملك الموت.

ويعيد يحيى بن حبش الـسهروردي كتابـة أقـصوصة حـي بـن يقظـان متخـذاً لهـا اسـماً جديـداً هـو الغريبـة الغريبـة، وحـي بـن يقظـان فيهـا لا يرمـز إلى العقـل الفعـال أو العقـل الإنـساني كـما رأينـا عنـد ابـن سـينا، وإنـما يرمـز إلى المتـصوف وجهـاده ومقاماتـه حتـى يتـصل بربـه محبوبـه. ويـستهل الأقـصوصة الـسهروردي بأنـه سـافر مـع أخيـه عاصـم مـن ديـار مـا وراء النهـر إلى مدينـة القـيروان حيـث أسرا وقيـدا في الـسلاسل وألقـي بهـم في بئـر عميقـة. ويبـدو أنـه يرمـز بـالمغرب والبئـر إلى الـشهوات التـي تحـول بـين لإنـسان وبـين حيـاة الإشراق. ورأى هـو وأخـوه (رمز العقـل كـما يتـضح مـن اسـمه عاصـم) هدهـداً في ليلـة قمـراء في منقـاره كتـاب صـدر مـن شاطئ الوادي الأيمن مـن البقعـة المباركـة. وهـو كتـاب حُمـل إلـيهما مـن الـذات العليـة يـدعوهما إلى الـسفر (رمـز الجهـاد الـصوفي) بغيـة الوصـول، ويأمرهمـا بركـوب سـفينة تجـري بهـما في مـوج كالجبـال صـاعدة بهـما إلى طـور سـيناء، ليريـا صـومعة (الله). ولعلـه رمـز بـالموج إلى الـشهوات. ورأيا في الطريـق جمـاجم عـاد وثمـود (رمـز الـضالين) وصـعدا الجبـل ورأيـا أباهمـا شـيخاً كبـيراً تكـاد الـسموات والأرض تنـشق لجمالـه وجلالـه. وكأنـه يرمـز بـذلك إلى وصـوله. ويطلـب إلى ربه أن يخلصه من سجن القيروان غير أنـه يـأمره بـالعودة إليـه قـائلاً إنـه يمكنـه المجـيء إليـه كلـما شـاء. وهـو بـالعودة إلى سـجن القـيروان يرمـز إلى أن الـصوفي لا يـستطيع الـتخلص نهائيـاً مـن علائق الأرض. ويقـول الله إنـك سـتتخلص يومـاً (يـوم المـوت) مـن سـجن القـيروان ولا تعـود إليـه. ويلقـاه في الرحلـة أسـد هـو رمـز القـوة الغـضبية وحيتـان ربـما كانـت رمـزاً للـشهوات.

وكانت الرحلة شاقة. واتخذ السهروردي من مشاقها رمزاً للعناء الصوفي في الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية، وقد ختمها بقوله " نجانا الله من قيد الهيولَى والطبيعة ".

وإذا كان القصص نا في العصر هذا النمو على أيدي الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها، وفي مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ. أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية، وهي أكثر وأوسع من أن نقف عندها، وخاصة أنها كانت علمية الطابع. وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس في المساجد بعد صلاح الجمعة وطوال شهر رمضان. ويصور السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ ما ينبغي أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه، فيقول [١]: إن أول ما يحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحاً في نفسه ورعا متواضعاً، وأن لا يكون متكبراً ولا فظاً غليظاً، وأن يكون عالماً بتفسير القرآن والأحاديث وأقاويل الفقهاء، وأن لا يحدث الناس إلا بما صح عنده من الأحاديث النبوية والأخبار، وأن لا يسأل إنساناً هدية، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس من أن يقبل هديته، وينبغي أن يمزج في مجلسه بين الخوف والرجاء، فلا يجعله كله خوفاً ولا كله رجاء، وإن كان الواعظ محتاجاً إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطاً وإقبالاً على سماعه. ومن آداب المستمعين أن يصلوا على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عند سماع اسمه وأن لا يناموا في أثناء الوعظ، بل يظلوا ناشطين منتبهين.

ونلم على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ، فمنهم أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل- كما مر بنا- يعظ الناس في مجالس تذكيره ستين سنة، وإنه كان يعظهم بالعربية والفارسية[٢]، ومنهم إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور- كما أسلفنا- وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورُزق من

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي ص٢٥ وما بعدها.

(٢) السبكي ٤/ ٢٧١.

التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره، وكان لا يتلعثم في كلمة[١]. ومنهم القشيري الإمام الصوفي الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومر بنا ما قيل في وعظه من أنه " لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو رُبط إبليس في مجلسه لتاب ". ومنهم الغزالي الإمام المشهور وأخوه أحمد قيل فيه: "كان واعظاً تنفلق الصخور الصم عند سماع تحذيره، وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره[٢]". ومنهم فخر الدين الرازي المتفى سنة ٦٠٦ وكان واعظاً كبيراً وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء. وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوي، فصاح به وهو على المنبر، يا سلطان العالم! لا سلطانك يبقى، ولا تلبيس الرازي يبقى، وإن مردنا إلى الله[٣].

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية في العصر عاملاً مهماً في كثرة الرسائل الديوانية، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدره كُتَّاب اشتهروا بحسن البيان، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون في كتاباتهم صوراً من التأنق حتى يرضوا أمراءهم، وكانت كتبهم لا تخلو من حلية السجع، فهي حلية مشتركة في الرسائل جميعها وتضاف لها حلى مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحليات والتنميقات. وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيختبرون، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها، وحينئذ يلزم كاتباً من كتابها، يعمل بين يديه، حتى يخرجه كاتباً ماهراً. وكان بعضهم يظل في حضرة الدولة أو عاصمتها، وبعضهم يرسل إلى الولايات للعمل بين أيدي الولاة. وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم، تنافساً أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية. وكان من يُظهر منهم نبوغاً يرتقي سريعاً وقد يصبح رئيساً للديوان، وقد يصبح وزيراً يدير أمور الدولة كلها، وربما أصبح والياً لمدينة كبيرة. وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية، وخاصة في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة، حجين كانت

---

(١) ابن خلكان ٣/ ١٦٨.

(٢) السبكي ٦/ ١٩١.

(٣) السبكي ٨/ ٨٩ وما بعدها وابن خلكان ٤/ ٢٤٩.

العربيـة لا تـزال غالبـة ولا يـزال سـلطانها نافـذاً في الأعـمال الرسـمية. وبالمثـل ظلـت في تلـك القـرون الكتابـة الإخوانيـة مزدهـرة، فالأدبـاء يـصورون في رسـائلهم الشخـصية عـواطفهم في التهـادي والاسـتمناح والثنـاء والـذم والتهـاني والعتـاب والاسـتعطاف والتعزيـة، مظهـرين في هـذا المجـال براعـة في طرافـة التفكـير وجمـال التعبـير، وسـنعني في الـصحف التاليـة بالحـديث عن كتاب الرسـائل الديوانيـة والشخـصية، ونقـف قلـيلاً عنـد قـابوس بـن وشـمكير ومحمـد بـن عبد الجبار العتـي ورشـيد الـدين الوطـواط مـن كُتَّـاب الـدول والإمـارات ثـم نلـم بـابن العميـد واضع طريقـة كتابـة الرسـائل في العـصر وتلميـذه الـصاحب بـن عبـاد وبـديع الزمـان ومـا أنـشأ من مقاماته الرائعة.

obeikandl.com

٢

كُتَّاب الرسائل

من أهم ما يلاحظ في مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا في جمع الأدباء من حولهم، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادي مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة، ولعلنا لم ننس ما مر بنا من كثرة الإمارات الفارسية في القرن الرابع الهجري، فقد كان السامانيون في بخارى بخراسان والبويهيون بالري والزياريون في طبرستان وجرجان، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا في هراة بأفغانستان. وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء، وكانوا دائماً يختارون كاتباً كبيراً ليتولى شئون دواوينهم، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونته، فلا نعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة. ولم يكن أصحاب الإارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم، بل كان أيضاً يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة، ولذلك تعددت مراكز الأدب في الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبي في كتابه اليتيمة، فإنه عرض في حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبي واسع، وبالمثل عرض في حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى في الري لأصبهان والجبل وفارس والأهواز.

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتب الدول والإمارات الإيرانية في القرن الرابع فضلاً عما وراءه من قرون، ولذلك سنكتفي ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولي أو التتاري في القرن السابع الهجري. وأول من نقف عندهم كتاب الدول السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبي الفضل بن العميد كبير كتاب القرن الرابع وعلي بن محمد[1] الإسكافي النيسابوري وأسرة بني ميكال من أهل نيسابور وفي مقدمتهم أبو الفضل الميكالي الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل، ويقتطف

(١) انظر في الإسكافي اليتيمة ٤/ ٩٥ ومعجم الأدباء ١٤/ ١٥٧.

الثعالبي فصولاً طريفة من رسائله. وأكثر المجلد الرابع من اليتيمة إنما هو في الترجمة لأدباء بخاري ونيسابور ومن طرأ عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان، وسنفرد له حديثاً، ومثل أبي بكر الخوارزمي، وقد ترجمنا له في شعراء الهجاء، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية في العصر ورسائله مطبوعة، وقد تحدثنا عن فنه الكتابي وبراعته الأدبية في كتابنا "الفن ومذاهبه في الثر العربي".

ويُفيض المجلد الثالث من كتاب اليتيمة في ذكر كتَّاب الدولة البويهية في الري وأصبهان والجبل وفارس والأهواز وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد، وسنخص كلاً منهما بحديث، ويشيد الثعالبي بأبي العباس[1] الضبي المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجذوة من ناره، ويجري في طريقه، ترسماً وترسلاً. وكان لجرجان وطبرستان حظهما من الكتاب والشعراء، ولعل كاتباً فيهما لم ينبغ نبوغ قابوس بن وشمكير في الترسل والكتابة، وسنلم به وبكتابته عما قليل. ونلتقي في الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفي مقدمتهم أبو الفتح البستي، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة، وكان يعاونه في الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي، وسنقف عنده بعد قليل. ومن كتاب الدولة الغزنوية أبو بكر القهستاني الذي ترجمنا له بين شعراء اللهو والمجون وكان على رأس كتاب الأمير محمد بن محمود الغزنوي. ويذكر الثعالبي في تتمة اليتيمة بعض أسجاعه في رسائله. ومن كتاب هذه الدولة أيضاً القاضي أبو أحمد منصور[2] بن محمد الأزدي الهروي المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتاباته وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء.

ونمضي إلى الدولة السلجوقية في القرن الخامس الهجري ونجد على رأس كتابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكندري المار ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية: " لعميد الملك الكندري طريقة في الترسل محمودة، وموافقة في

---

(١) راجع في الضبي اليتيمة ٣/ ٢٨٧ ومعجم الأدباء ٢/ ١٠٥.

(٢) انظر القاضي منصور الهروي في تتمة اليتيمة ٢/ ٤٦ والدمية ٢/ ١٥٣ والسبكي ٥/ ٣٤٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٩١ وبروكلمان ٢/ ١٢٢.

البلاغة مشهودة "[١] ويذكر نموذجاً من كتاباته. ومن كتاب هذه الدولة أبو الحسن[٢] الحسيني البلخي، وكان ألب أرسلان يرسله في مهامه إلى بغداد، ويسوق الباخرزي في الدمية نموذجاً من سلطانياته. ومن كتاب هذه الدولة أيضاً الباخرزي صاحب الدمية، ومرت ترجمته بين شعراء اللهو والمجون، والطغرائي ومرت ترجمته بين شعراء المديح، والأبيوردي وعمل في دواوين السلاجقة ببغداد وأصفها وغيرهما من البلدان، ومرت ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء والشكوى.

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطاً أدبياً وعلمياً عظيماً استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة، ويكفي أن هذا النشاط أنتج العالم المعتزلي الكبير الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتباً كبيراً يعد آخر كتاب الدواوين النابهين في إيران، وهو رشيد الدين الوطواط، وسنخصه بكلمة، بعد إلمامنا بقابوس بن وشمكير وأبي النصر العتبي.

قابوس[٣] بن وَشْمَكير

هو أحد أمراء الدولة الزيارية في طبرستان وجرجان وبلاد الجبل، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى " آل قارن " إحدى الأسر السبع الرفيعة- فيما يقال- لعهد الساسانيين. وينسبه البيروني هو وسرته إلى " قباذ " الملك الساساني. ولى الحكم في إمارته بعد أبيه وشمكير بن زيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسي بلقب " شمس المعالي " واشتبك مع البويهيين في سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرماً، حتى استرد ملكه سنة ٣٨٨. وكان أميراً جليل القدر بعيد الهمة، غير أنه كان- كما يقول ابن خلكان- على ما خص به من المناقب، والرأي البصير بالعواقب، مر السياسة لا يساغ كأسه، ولا تؤمن بحال سطوته وبأسه، يقابل زلة القدم، بإراقة الدم، لا يذكر العفو عند

---

(١) راجع الكندري في الدمية ٢/ ٢٣٠ وابن خلكان ٥/ ١٣٨ والشذرات ٣/ ٣٠١ وابن الأثير في مواضع متفرقة.

(٢) انظره في الدمية ٢/ ١٧٧.

(٣) راجع ترجمة قابوس في اليتيمة ٤/ ٥٩ واليميني للعتبي مع شرح المنيني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦هـ) ٢/ ١٤-١٧، ٢/ ١٧٢-١٧٨ ومعجم الأدباء ١٦/ ٢١٩ وابن خلكان ٤/ ٧٩ والمنتظم ٧/ ٢٦٤ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٣٣ وابن الأثير في مواضع متفرقة وديوان المعاني للعسكري ١/ ٨٦ والفن ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة) ص٢٥٥.

الغضب، فما زال على هذا الخلق، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته، وحاصروه بإحدى القلاع في جرجان. وكان ابنه منوجر بطبرستان فاستحثوه على السير إليهم لعقد البيعة له، فأسرع في الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه، ونزل على إرادتهم، وألزمأباه المكث بإحدى القلاع، ولم يزل في سجنه حتى توفي سنة ٤٠٣ على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

وكان قابوس مكرماً للعلماء والشعراء يجزل الصلات لهم، وقدم له البيروني كتابه "الآثار الباقية" وقدم له الثعالبي كتابيه: " المبهج " و"التمثل والمحاضرة". وكان مثقفاً ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل، ويقال إنه كتب في الإسطرلاب كتاباً كان يعجب به الصاحب. وكان أديباً بارعاً، وهو يعد من كبار الكتاب في عصره، وفيه يقول الثعالبي: "جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم، وإني أتوج هذا الكتاب (اليتيمة) بلمع من ثمار بلاغته.. وأكتب فصولاً من عالي نثره ". ويقول العتبي في كتابه اليميني: "إن رسائله موجودة في البلاد عند الأفراد، لكني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه، وزهرة من حدائق إحسانه ". ويعلق أبو هلال العسكري على رسالة له اقتبسها في كتابه "ديوان المعاني" بأنها لا نظير لها في الافتخار والعتاب. وقد جمع رسائله في عصر قريب منه عبد الرحمن بن علي اليزدادي باسم " كمال البلاغة " ونشرت في القاهرة، ونراه يحلل في مقدمته لها بلاغته، وقد ردها إلى أربعة عشرنوعاً في طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقداً شديداً، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته، وكأنه اتخذ منه أداة للهوه وتسليته على نحو ما يتضح في المطلع التالي لإحدى رسائله:

" الإنسان خلق ألوفاً، وطبع عطوفاً، فما لسيدي لا يجنى عُوده، ولا يرجى عَوْده، ولا يخال لفيئة مخيلة، ولا يحال تنكره بحيلة، أمِنْ صخر تدمر قلبه، فليس يلينه العتاب، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب ".

وواضح تصنع المعقد للجناس في سجعاته إذ يجانس بين " عُوده " و"عَوْده " ملتمساً جناسه في اختلاف حركة العين في الكلمتين، وقد يلتمس الجناس عن طريق الاشتقاق كما

في "يخـال" و"مخيلـة" وفي "يحـال" و"بحيلـة". وقـد يلتمـسه في تغـاير بعـض الحـروف في الكلمـة كـما في "مخيلـة" و"بحيلـة". وكـل ذلـك ليظهـر مهارتـه في تـضييق ممراتـه إلى أسـجاعه. وفي كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" بيان واف لهذا الجانب عنده.

أبو النصر[1] العُتْبي

هـو محمـد بـن عبـد الجبـار العتبـي، مولـده ومربـاه في الـري، وقـد فارقهـا في شـبابه، وقـدم خراسان على خاله أبي نصر العتبي وكـان مـن وجـوه العـمال بهـا، فلـم يـزل يرعـاه كالولـد العزيـز عنـد الوالـد الحـاني إلى أن وافـاه القـدر. وتتقلـب بمحمـد أحـوال وأسـفار وأعـمال في الـدواوين إلى أن اسـتقر أمـره في العمـل مـع أبي الفـتح البـستي في ديـوان أبي منـصور سـبكتكين مؤسـس الدولة الغزنوية، وظـل يعمـل بعـد وفـاة سـبكتكين مـع ابنـه محمـود حـين اسـتولى عـلى صـولجان الحكم، وكـان محمـود يعـترف- كـما مـر بنـا- بالـسلطة الروحيـة للخليفـة العبـاسي، فخلـع عليـه لقـب يمـين الدولـة وأمـين الملـة. واتـسع ملكـه- كـما أسـلفنا- حتـى شـمل خـوارزم ومـا وراء النهـر وإيـران الوسـطى والـشرقية وكـشمير والبنجـاب في الهنـد. وعُنـي أبـو النـصر العتبـي بكتابـة تـاريخ هـذا الفـاتح العظـيم وسـمى كتابـه اليمينـي نـسبة إلى لقـب محمـود الـذي خلعـه عليه الخليفـة: "يمـين الدولـة" وقـد انتهـى بـه عنـد سـنة ٤٠٩ مـع أنـه عـاش حتـى سـنة ٤٢٧. وربما كان في ذلـك مـا يـدل عـلى أنـه صـنفه في وقـت متـأخر، وأنـه لم تـتح لـه الفرصـة لتكملتـه. ويقول الـسبكي: "وأهـل خـوارزم ومـا والاهـا يعتنـون بهـذا الكتـاب، ويـضبطون ألفاظـه أشـد مـن اعتنـاء أهـل بلادنـا بقمامـات الحريـري" وهـو مطبـوع في القـاهرة مـع شرح المنينـي لـه في القرن الماضي، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوي، يقول:

" الأمير السيد، الملك المؤيـد، يمـين الدولـة وأمـين الملـة أبـو القاسـم محمـود بـن نـاصر الـدين أبي منـصور سـبكتكين، ملـك الـشرق بجنبيـه، والـصدر مـن العـالم ويديـه، لانتظـام الإقلـيم الرابـع بـما يليـه مـن الثالـث والخـامس في حـوزة ملكـه، وحـصول ممالكهـا الفـسيحة وولاياتهـا

(١) انظر في ترجمة العتبي اليتيمة ٤/ ٣٩٧ والسبكي في ترجمة محمـود بـن سـبكتكين الغزنـوي ٤/ ٣١٩ وبـروكلمان (الترجمـة العربية) ٦/ ١.

العريضة في قبضته، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته، وجبايته، واستدرائهم " دفعهم " من آفات الزمان بظل ولايته، ورعايته، وإذعان ملوك الأرض لعزته، وارتياعهم بفائض هيبته، واحتراسهم- على تقاذف الديار، وتحاجز الأنجاد والأغوار- من فاجئ ركضته ".

والعتبي بكتابته تاريخ محمود الغزنوي بهذه اللغة المسجوعة يحاكي الصابئ في كتابه "التاجي في ملوك بني بويه" الذي كتبه قبله بنفس اللغة، وقد سقط " التاجي " من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العملين. ويبدو أن كتاب العتبي كان أخف، فتعلقت به القلوب والأفئدة، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم في البلاغة. وعلى شاكلته في خفة السجع وعذوبته ورسائله، فإن الفصول التي حكاها الثعالبي منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله في رقعة كتبها في الإنكار على من يذم الدهر:

" عَتْبُكَ على الدهر داعٍ إلى العَتْب عليك، واستبطاؤك إياه صارفٌ عِنانَ اللَّوْم إليك، فالدَّهْرُ سهم من سهام الله منزعه عن مقابض أحكامه، ومطلعه من جانب ما حررته مجاري أقلامه، والوقيعة فيه، تمرد بحكم خالقه وباريه، ومجاري الأشياء على قدر طباعها، وبحسب ما في قواها وأوضاعها، ومن ذا الذي يلوم الأراقم على النهش بالأنياب، والعقارب على اللسع بالأذناب، وأنَّى لها أن تذم، وقد أشربت خلقتها السم وحكم الله في كل حال مطاع، وبأمره رضا واقتناع ".

ولغة العتبي سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة، وسجعه ينزلق عن الألسنة في يسر، وليس في الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس، مما يتعثر في الأفواه.

obeikandl.com

رشيد الدين[١] الوَطْواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العُمَري الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضآلة جسمه. من سلالة عمر بن الخطاب، ولد ببلخ وبها نشأ وتربى في المدرسة النظامية، وكان شاعراً كما كان كاتباً، وله مصنفات عدة، منها: " غرر الخصائص الواضحة " وهو من كتب الأدب التهذيبي، ومنها: " حدائق السحر في دقائق الشعر " وهو في علم البديع والصناعة الشعرية، وضعه بالفارسية، وأمثلته فيه موزعة. بين الفارسية والعربية، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين. ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق في سنة ٥٢٢ للهجرة بواوين الدولة الخوارزمية في عهد أميرها الطموح الباسل أَتْسِز (٥٢١-٥٥١هـ) ويظل بعد وفاته يعمل في دواوين الدولة، إلى أن يبلغ من الكبر عتياً ويهن عظمه، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أتسز حين تولى مقاليد الأمور في خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه في محفة، فلما مثل بين يديه نظم رباعية في مديحه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية. وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات، واختلف مؤرخوه، فقيل توفي سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨.

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلاً: " كان من نوادر الزمان وعجائبه، وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب، طار في الآفاق صيته، وسار في الأقاليم ذكره، وكان ينشئ في حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معاً " ويقول ياقوت: من مؤلفاته تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصديق، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب، وأنس اللهفان من كلام عثمان بن عفان، ومطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طلب. ويقول أيضاً: له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية، وشعره دون نثره جودة. ورسائله العربية مطبوعة بمصر في جزءين، وهي موزعة بين رسائل

---

(١) راجع في الوطواط وترجمته معجم الأدباء ١٩/ ٢٩ وروضات الجنات ٧٧ وبغية الوعاة للسيوطي ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكتاب حدائق السحر في دقائق الشعر، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع ذكر مراجعه في الفارسية. وانظر بروكلمان ٥/ ١٤٢ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠.

شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية. ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خوارزم، وفيه يقول:

"أن أولى الأمور بأن تصرف أعنة العناية إلى ترتيب نظامه، وتقصر الهمم على مهمة إتمامه، أمر يتعلق به ثبات الدين، ويتوقف عليه صلاح المسلمين، وهو أمر الاحتساب فإن فيه تثبيت الزائغين عن الحق، وتأديب المنهمكين في الفسق، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها. وينبغي أن يكون متقلد هذا الأمر موصوفاً بالديانة، معروفاً بالصيانة، معرضاً عن مراصد (أماكن) الريب (التهمة) بعيداً عن مواقف التهم والعيب، لابساً مدارع السداد، سالكاً مناهج الرشاد. والشيخ الإمام- أدام الله فضله- متحل بهذه الخصائص المذكورة، والفضائل المشهورة، ومستظهر في دولتنا للحقوق الفرضية، ومستشعر للصفات المرضية، فقلدناه هذا الأمر.. وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره، والزهد دثاره، والعلم معلمه والدين مناره. ثم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويقيم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار، ومقتضى السنن والآثار.. وأمرناه أن يبالغ في تعديل المكاييل والموازين، على وفق أحكام الشرع والدين، فإن وجد تفاوتاً في شيء منها سواه وعدله، وغيره وبدله، وأدب صاحبه على رءوس الأشهاد، لينزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد ".

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة، وأن الحاسب لم يكن فقط براقب الأسواق كما يراقبها الشرطي، بل كان أيضاً ينظر في كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضي، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطي والقاضي في وقت معاً، فهو ينظر في الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام. وهو لذلك كان يختار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء في التقليد، إذ لابد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة في الحدود وغيرها من أحكام. وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطي، فيراقب المكاييل والموازين، فإن وجد في مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بدله على رءوس الأشهاد، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودا إلى خيانة أبداً، وحتى ينزجر غيرهم فلا تحدثهم نفوسهم بخيانة في ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة. والتقليد جميعه مسجوع، وليس فيه

ألفاظ غريبة، فالوطواط ينطلق في سجعه، وكأنه ينساب من معين زاخر دون أي عائق أو حائل. وبمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهي تجري سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشري يستأذنه في حضور دروسه ومجالسه:

" أنا منذ لفظتني الأقدار من أوطاني، ومعاهد أهلي وجيراني، إلى هذه الخطة (خوارزم) التي هي اليوم بمكان جار الله- أدام الله دولته- جنة للكرام، وجنة (سترا) من نكبات الأيام، كانت قصوى منيتي، وقصارى بغيتي، أن أكون أحد الملازمين لسدته الشريفة التي هي مخيم السيادة، ومقبل أفواه السادة، من ألقى فيها عصاه، حاز في الدارين مناه، ونال في المحلين مبتغاه، ولكن سوء التقصير، أو مانع التقدير، حرمني تلك الخدمة، وحرم علي هذه النعمة. والآن أظن- وظن المؤمن لا يخطئ- أن آفل جدي (حظي) هم بالإشراق، وذابل إقبالي أقبل على الإبراق، فقد أجد في نفسي نوراً مجدداً يهديني إلى جنته، ومن شوقي داعياً موفقاً يدعوني إلى حضرته ".

وتمضي الرسالة على هذا النمط من السجع الطبيعي. وكان يفسح في شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع. ونتركه للحديث عن ثلاثة هم في الذروة من أدباء العصر في مختلف حقبه الماضية: ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان.

obeikandl.com

٣

ابن العميد[١]

هو أبو الفضل محمد بن الحسين، فارسي الأصل، من مدينة قُم الشيعية الإمامية، فيها منشأه ومرباه، مما أعده ليكون شيعياً إمامياً مثل أمرائه البويهيين. وكان أبوه كاتباً فذاً، كتب لما كان بن كاكي ثم للسامانيين، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل. ولم يلحق ابنه معه بديوانهم، بل ألحقه بدواوين البويهيين. وخدم ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الري، ولم يزل يترقى عنده، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠.

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور: " كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة، حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام. فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة.. أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم ". ويقول ابن الأثير: "كان عالماً في عدة فنون، منها الأدب، فإنه كان من العلماء به، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل، ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه، وشجاعة تامة، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات، وبه تخرج عضد الدولة، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء". ويقول ابن خلكان: " كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم".

---

(١) انظر في ابن العميد وترجمته اليتيمة ٣/ ١٥٤ وما بعدها وتجارب الأمم لابن مسكويه في مواضع متفقة وابن الأثير ٨/ ٥١١، ٥١٦، ٦٠٦ وابن خلكان ٥/ ١٠٣ والشذرات ٣/ ٣١ والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان ١/ ٦٦ وكتابه " مثالب الوزيرين " وفيه تحامل شديد عليه وانظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص٢٠٥.

وكان- كما لاحظ ابن الأثير- يحسن قيادة الجيوش، وحقق للدولة انتصارات عظيمة، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراساني سنة ٣٤٤ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها، فقد اعترضه في طريقه إلى الري وهزمه هزيمة ساحقة. ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥. وخرج في سنة ٣٦٠ لقتال حسنويه الكردي، ولكن المنية أدركته دون غايته، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً. وظل وزيراً ثلاثة وثلاثين سنة. وكان مقصد الشعراء والأدباء يجزل لهم الصلات، وقصده أبو الطيب المتنبي بأرجان، فاستقبله استقبالاً حافلاً، وفيه يقول:

عربيٌّ لسانُه فلسفيٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُهْ

ويشيد كل من ترجموا له ببلاغته، وفي ذلك يقول الثعالبي: " أوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الياسة وآلات الوزارة، والضارب في الآداب بالسهام الفائزة، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية، يدعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس. يضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاستها. وكان يقال: بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد ". ومن يقرأ ما اقتبسه الثعالبي من كتاباته يؤمن بأنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال التالية تستخدمها، وهي صيغة قامت على أساسين كبيرين: أولهما السجع، وكان السجع معروفاً من قبله في الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجري، على نحو ما مر بنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني، وسنراه يُدخل عليه ضروباً من الموازنة في السجعتين المتواليتين، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه. والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع، فالسجع وحده لا يكفي، بل لابد أن تضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه. ونسوق مثالاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه، مفتتحاً كتابه بقوله:

" كتابي إليك، وأنا متأرجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمه، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب حقاً ورعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول[1] وخيانة، وتتبعهما بآنف[2] خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويسقط كل ما يرعى لك ".

وهذه النغمات الأولى في الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذي التزمه ابن العميد في كتابته، فهو يلتزم السجع، وليس ذلك فحسب، بل هو يوازن بين السجعات، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة، فسجعة " تدل بسابق حرمة " توازنها في دقة السجعة التالية لها: " تمت بسالف خدمة ". ومثلها السجعتان: " ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية". وهو لا يلتزم السجع فحسب، بل يكثر من الطباق مثل " طمع ويأس" و"إقبال وإعراض" كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتصاوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه:

ألم تكن في ظلٍّ ظليل، ونسيم عليل، وريح بَليل، وهواء عَذِيّ[3] وماء رَوِيَ، ومهادٍ وَطي (لين) وكن[4] كنين[5]، ومكان مكين، وحصن حصين".

وكل هذه كنايات واستعارات لما كان فيه هذا العاصي لركن الدولة حين كان يضع يده في يده، فقد كان في سعادة ما وراءها سعادة، فإذا كل نعيم كان فيه يتحو بؤساً وشقاء. وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً:

" قد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها، وانتقاض مررها (قُواها).. الطوفان بالنار والماء، والمَوتان العارض من عموم الأوباء، وتسلط المخالفين في

---

(١) غلول: خيانة.

(٢) آنف: أشد.

(٣) عذي: خالص.

(٤) الكن: ما يرد الحر والبرد من الأبنية.

(٥) كنين: مستور.

المذاهب والآراء.. وليس عندي الخَطْبُ في جميع ذلك يقارب ما يولِّده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتتسع قدرته. وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحلَّه الله من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع فرقها، وهي نُورٌ[1] نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه، وشُرَّد نوازع حيث حلَّت حتى تقع عليه، تتلفَّت إليه تلفُّت الوامق، وتتشوَّف نحوه تشوُّف الصبِّ العاشق".

والفصل طريف في دلالته على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه. والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقيره، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول، وفي أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بمحسنات البديع وسلامة اللفظ وجمال السبك ووضح المعنى. وهي كلها جوانب أساسية في بلاغته وبيانه.

(١) نور: جمع نوار: شاردة.

obeikandl.com

٤

الصاحب[١] بن عباد

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد، من أهل الطَّالَقان: ولاية بين قزوين وأبْهر، وُلد عام ٣٢٦ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني، وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالري، وعُني به، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوي، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد، فكان يصحبه دائماً، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد، وظل هذا اللقب علماً عليه، وقيل بل صحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه اللقب واشتهر به. ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاه وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفي سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقرّهَ على وزارته، وكان مبجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر. وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد، حتى قيل: كان "مَنْ يُؤْذَنُ له في الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال، ونال الفوز بالدنيا والآخرة، فرحاً ومسرة، وشرفاً وتعظيماً، فإذا حصل في الدار وأذنَ له في الدخول إلى مجلسه قبَّل الأرض عند وقوع بصره عليه.. ولم يكن يقوم لأحد من الناس، ولا يشير إلى القيام، ولا يطمع أحد منه في ذلك". ومازال وزيراً لفخر الدولة حتى توفي سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفي أغلقت له مدينة الريّ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيَّروا لباسهم. ومشى

---

(١) انظر في الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله اليتيمة ٣/ ١٨٨ والمنتظم ٧/ ١٧٩ ومعجم الأدباء ٦/ ١٦٨ وابن خلكان ١/ ٢٢٨ إنباه الرواة ١/ ٢٠١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومرآة الجنان ٢/ ٤٢١ والشذرات ٤/ ١١٣ ولسان الميزان ١/ ٤١٣ وابن الأثير في مواضع متفرقة وفي سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ٤/ ١٦٩، ومثالب الوزيرين لأبي حيان، يريد ابن العميد والصاحب وقد بالغ في الغض منهما كما أشرنا إلى ذلك. ورسائل الصاحب منشورة في دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيقي وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام. وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها في النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب، وكذلك للدكتور بدوي طبانة (طبع القاهرة). وانظر المدخل بين يدي الرسائل وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص٢١٢ وما بعدها.

فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس، وقعد للعزاء أياماً. وفيه يقول الثعالبي: "ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرّده بغايات المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومسعهي ولكني أقول: هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان.. وكانت أيامه للعلوية والعلماء. والأدباء والشعراء، وحضرته محطَّ رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروقة إليهم، وصنائعه مقصورة عليهم، وهمته في مجد يشيده، وإنعام يجدده، وفاضل يصطنعه، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه.. وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام، وبدائع الأفهام، وثمار الخواطر، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح.. واحتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، مَنْ يُرْبى عددهم على شعراء الرشيد؛ ولا يقصِّرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، ومِلْك رِقِّ المعاني". ويذكر ياقوت أن عطاياه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد. وكان يقول: مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية، وفي هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية، بل ربما كان يتقنها إذ رُوى أنه اختبر قدرة بيدع الزمان الهمذاني، حين مرَّ ببابه، في التجرمة من الفارسية إلى العربية.

وكان شاعراً مجيداً، كما كان كاتباً مجيداً، وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدي الشيعي والمعتزلي، فقد كانت شيعياً إمامياً كما مر بنا في حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة، وقد نشر محمد حسن آل ياسين ديوانه كما مرَّ بنا، وهو يموج بأشعاره الشيعية وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله:

قالت: فما اخترتَ من دينٍ تفوز به ... فقلت: إني شيعيٌّ ومُعْتزلي

وقوله:

ومن كان بالتَّشْبيه والجَبْر دائناً ... فإني في التوحيد والعَدْل أوحدُ

وهو يحمل على المشبهة والمجبرة حملات شعواء، كما يحمل نفس الحملات على من يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول:

وإن قال أقوامٌ قديمُ لأنه　　كلامٌ له فانظرْ إلى أين صعَّدُوا

وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها- فيما مر- أطرافاً. وصنف في اللغة معجماً سماه المحيط كما صنف كتباً ورسائل مختلفة في الإمامة وفي فضائل علي بن أبي طالب وفي أسماء الله وصفاته وله رسالة في الكشف عن مساوي المتنبي وكتاب في المقصور والممدود. وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع في عشر مجلدات، وأنها كانت حمل أربعمائة بعير.

ورسائله منشورة، وهي في عشرين باباً وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا البابين السابع عشر والثامن عشر، وأولهما في الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل، والثاني فصول قصيرة وتوقيعت موجزة. وقد ذُكرت في مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها. وجميعها ديوانية، أو الكثرة الكثيرة منها، ولذلك كانت تعد وثائق قيمة عن الدولة البويهية، وخاصة أن الصاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقضاتهم كما يعرض معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة. والباب الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وهسوذان. وفي كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين. وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء في معاهدة لهم مع السامانيين مع أنه " لا يقبل في جهة من الجهتين أباق العساكر، ولا يمهد في جنبة من الجنبتين للخالع والنافر، ولا يحامى على من عصا فشرد، وشق العصا وانفرد ". ومن الطريف أن نتعقب ما جاء في الباب الثاني من العهود للقضاة والولاة والمحتسبين، وخاصة عهود القصاة، لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حينئذ في القضاء ومصادره؟. وفعلاً يؤكد ذلك ما جاء في الرسالة الأولى من الباب الثاني الخاصة بعهد القاضي عبد الجبار. وفيها أيضاً أن التركة لا ترد إلى

بيت المال بل يأخذها الأباعد من ذوي الأرحام، وهو ما أشار إليه المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات. ويلقانا عهد في الحسبة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئولياته. وتلقانا عهود في معاملة الرعية وفي قسمة الماء في بعض الأودية، كما يلقانا باب عن الحجيج والمصالح والثغور. وفي الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كتبتا بمناسبة نشوب ثورة في قزوين بين الشيعة والسنة، ونرى الصاحب يدعو فيهما إلى أن تحل الألفة والوئام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى. وفي ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيزوا إلى مذهبهم الشيعي في أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له. وطبيعي أن نحس في بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة، فقد كان الصاحب كما قدمنا معتزلياً، وفي الباب السابع عشر رسالتان صريحتان في أن الصاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول في نحلة الاعتزال. ومن قوله في إحداها: " كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده، والتصديق بوعده ووعيده، هذا وفي فقهائه وفور، وفي الفضل به ظهور، وقد أعان الله على بث كلمة الحق، وسمع الأكثر على لين ورفق". وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع، وكانا متآخيين حينئذ، فعمل على نشره لينتشر من ورائه التشيع مبتغاه. وفي الرسائل- من حين إلى آخر- ما يدل على نزعته الشيعية وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين. وتلقانا في الباب التاسع عشر رسالة هي عهد لعلوي ولي النقابة بين الذرية الطيبة، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذي كان يحكم بين العلويين، وأنه كان لهم قضاء مستقل في الدولة، وأنه كان ينتسب إليهم دخلاء ينتحلون النسبة، ويأمر النقيب بتعقهم وإشهار أمرهم، وفي الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التي كان يقدمها البويهيون للعلويين.

وعلى هذا النحو لرسائل الصاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة، لأنها المجموعة الوحيدة التي وصلتنا عن كتاب البويهيين في القرن الرابع الهجري، وهي دائماً تبتدئ بالتحميد والتمجيد للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بالدعاء. ويعقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذي يكتب عنه مكتفياً بلقبه المشهور الذي خلعه

عليه الخليفة، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة. وإذا كانت الرسالة في فتح عظيم أطال في الدعاء تنويهاً بالفتح. والرسائل كلها مكتوب بأسلوب ابن العميد الذي يقوم على السجع والبديع، ويروى معاصروه طرفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره، حتى زعموا أن ابن العميد قال: خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين: فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا: " كتابي هذا من النوبهار، يوم السبت في نصف النهار". وقالوا إن سجعة اضطرته إلى عزل قاضي مدينة قم، فقد كان في حضرته، فقال له: أيها القاضي بقم، وأراد أن يكمل السجعة، فأعياه إكمالها، فقال: قد عزلناك فقم. ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبي حيان، وفي تكلفه للسجع يقول: " كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد.. قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها ". وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد الصاحب يترك نفسه على سجيتها، فإن واتاه السجع مضى فيه، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج، وإن كان ذلك لا يأتي إلا نادراً، فالصورة العامة لرسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامهما تفننا يدل على مهارة واسعة، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعة وسجية من سجاياه. وأول ما يلقانا في رسائله رسالته التي وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير، ومقطعها الأول يجري على هذا النمط:

" أحسن نعم الله تعالى غرراً وأوضاحاً، وأبينها فلقاً وصباحاً، وأولاها إذا تصفحت المواهب أخذاً بحظ السابق، وأولاها إذا اتتبعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق، وأحراها بأن تثنى عليها ألسنة الأيام والليالي، وتثنى إليها أعناق المحامد والمعالي، نعمة صادفت حمداً وشكراً. وجمعت فتحاً ونصراً، ونظمت نجحاً وقهراً، واستذلت ممتطياً للجحود لاهياً عن

غوره، مستشرياً في الغموط عادياً لطوره. وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذا عضد الدولة، وتوج الملة، وحرس الأمة، وزحزح الغمة، ورفد الخلافة، وبسط العدل والرأفة، وطهر البلاد، وعمر الحج والجهاد، وساس الجمهور، وسد الثغور، فشهدت فتوحه بأنه مؤيد من عند الله، ومحوط الملك بيد الله، لا ينازع رأيه منازع إلا تل لجبينه [1]، وعوجل بقطع وتينه[2]، ولا يمانع رايته ممانع إلا غلت يده دون مطلبه، واقتطع أمده عن مهربه، ولم يعز بالتحصن عليه مارق، والتمنع دونه مشاق مفارق، إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه، ومكن منه القضاء سمحاً فاستنزل عن معاقله وصياصيه[3]".

وواضح أنه تمثل طريقة أستاذه ابن العميد، فهو يعني أشد العناية بانتخاب ألفاظه، حتى يكون بناء رسالته في هذا الفتح قوياً سامقاً. ويعني بأسجاعه، فهي تتقابل وتتوازن مهما طالت، كقوله: " وأولاها إذا تصفحت المواهب أخذاً بحظ السابق، وأولاها إذا تتبعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق " وكل كلمة في العبارة الثانية تكاد تتشابك بالأيدي مع قرينتها في العبارة الأولى. ومثلها السجعة التالية: " وأحراها بأن تثني عليها ألسنة الأيام والليالي، وتثنى إليها أعناق المحامد والمعالي " وكأن الكلمات في العبارتين تتعانق. واستمر في قراءة الأسجاع الطويلة في هذا الفصل وفي رسائل الصاحب، فستجد دائماً هذا التعانق والتشابك بين كلمات السجعات، وحقاً ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة. ولابد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع، فالنعم ذات غرر وأوضاح كخيل الحرب الظافرة، بل هي كالصباح الجميل البهيج، وتتوالى الأخيلة والصور في المقطع. ويكثر فيه الجناس مثل غوره وطوره، والأمة والغمة، وينازع ومنازع، ويمانع وممانع، ويحاول أن يأتي بغرائب في الجناس تخلب ألبابا السامعين، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا في بعض الحروف ولكن في بعض الحركات كما في " أُولاها، وأَوْلاها " و" تَثْنِي وتُثْنَى ". وجعلته قدرته على حشد السجعات يكثر من الجمل

---

(١) تل لجبينه: صرع على وجهه.

(٢) الوتين: الشريان الرئيسي للقلب.

(٣) الصياصي: الحصون.

الاعتراضية في رسائله على نحو ما يتضح في مطلع هذا المقطع، فقد بدأ بمبتدأ هو " أحسن نعم الله " وفصل بينه وبين خبره، وهو "نعمة صادفت حمداً وشكراً " بنحو ثلاثة أسطر، ونقده أبو حيان، وقال إن هذا يحدث تعاظلاً في أساليبه[1]. وفي رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طولاً شديداً، وهو نادر عنده، على أن هذا الجانب في أساليبه شاع فيما بعد بين كتاب العصور التالية وخاصة عند العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل. وليس معنى ذلك أن الصاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع، بل هي تطول أحياناً، وأحياناً تقصر كما في هذا المقطع نفسه إذ يقول: " نعمة صادفت حمداً وشكراً، وجمعت فتحاً ونصراً، ونظمت نجحاً وقهراً ". وتكثر هذه السجعات القصيرة في رسائله الإخوانية، كقوله في عزاء ابن عن أبيه، وكان عالماً تحريراً:

" للفجائع اختلاف مواقع، وللمصائب تباين مراتب، ومن أشدها لذعاً، وأعظمها وقعاً، فجيعة أحرجت صدور قومٍ مؤمنين، ومصيبة خصت العلم والدين، لفقد الشيخ المنقطع القرين، أبي عثمان- رحمه الله، وأكرم مأواه، ومثواه فقد كان للإسلام جمالاً ممتدً، وللدين ركناً مشتداً، وللعلم شهاباً لا يخبو، وللأدب سهماً لا ينبو، يذب عن حق الله القائم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، عاش عظيم الخطر، ومات جميل الأثر، التقوى شعاره، واليقين دثاره، وحجج الله مفزعه، وآيات الله مرجعه، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحدين، وأسره إلى الملحدين، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار، وأعلام الأمة الأخيار ".

ويمضي في مثل هذا السجع القصير موشياً له بالجناس، أهم لون من ألوان البديع كان يستخدمه، كما نرى في مثل " مأوه ومثواه "، و" ممتداً ومشتداً " و" لا يخبو ولا ينبو " و"لومة لائم". وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى في مثل " الموحدين والملحدين". وله تهنئة طريفة ببنت ولدت لبعض أصحابه تمضي على هذه الشاكلة:

" أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوة يتناسقون، نجباء يتلاحقون:

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٦٤.

فلو كان النساءُ كمثل هَذِى لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ

وما التأنيثُ لا سم الشمس عَيْبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ [١]

فادرع يا سيدي اغتباطاً، واستأنف نشاطاً، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها، والذكو يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان، وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عرف الأنام، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، ولها بعث المرسلون، فهنيئاً هنيئاً ما أوليت، وأوزعك الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد، وما بقي الأمد، وكما عمر لبد "[٢].

والرسالة مؤلفة من السجع القصير، ويحليها الصاحب بالجناس من مثل "الأصهار والأطهار" وهو قليل فيها، وكأنه لم يكن يتأنق في الرسائل الإخوانية تأنقه في الرسائل الديوانية الطويلة. وفي الرسالة ظاهرة ينبغي الالتفات إليها، ونقصد ظاهرة الاحتجاج، فقد احتج للتهنئة بالبنت- وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها- بست حجج أو ستة أدلة، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء في القرآن " ومنها خلقْناكم " والسماء مؤنثة وروعتها في كواكبها ونجومها فوق التصوير، والنفس مؤنثة وهي قوام الإنسان، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته، والجنة مؤنثة ولها بعث المرسلون وبها وعد المتقون. أدلة لا تنقض، وكأننا بإزاء مناظرة كلامية في تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر. يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين، ولا شك أن ذلك جاءه من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ في أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة، مما جعل كتابته تتشح بطرائقهم وجدالهم وتفننهم في التعليل والتدليل. وهي

---

(١) البيتان للمتنبي.

(٢) لبد: نسر، وفي الأساطير العربية أنه عمر أربعمائة عام.

تتضح في جدال المنحرفين عن الدولة وفي تعليله العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة. ومن قوله في إهداء أترجة:

" مازلت يا سيدي أفكر في تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق، وتنظم نعوت مشوق وشائق، حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لوني وقد منيت ببعدك، وبليت بصدك، وكأن عرفها[1] مستعار من عرفك، وظرفها مشتق من ظرفك، فكأنها بعض من لا أسميه، وأنا أفديه، فأنفذتها وقلت:

مولايَ قد جاءتْك أُتْرُجَّةٌ ... من بعض أخلاقِكَ مخلوقَهْ

ألبسَها صانعُها حُلَّةً ... من سَرَقٍ أصفرَ مسروقه [2]

والرسالة تصور أناقته في اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين في قوله "معشوق وعاشق" و" مشوق وشائق ". وهي تصور ظرفه ورقة مشاعره. ولم نتوقف عند تصاويره وهي كثيرة في رسائله الإخوانية والديوانية كقوله في وصف الورود السوداء في احمرار، المعروفة باسم الشقائق، ووصف الأشجار الخضراء والنارتجات الصفراء:

" قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها، وضعفت فبقى ذماؤها[3]، وسامتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها، وكستها أبرادها، وحضرتني نارتجات ككرات دهبت أو ثدي أبكار خلقت[4]".

وله رسالة لم يعن فيها بالسجع، وإنما عني بالتصوير وحده، وهي في استدعاء صديق لبعض مجالس أنسه، وتطرد على هذا النمط:

" نحن يا سيدي في مجلس غني إلا عنك، شاكر إلا منك، قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج، وفحت مجامر الأترج، وفتقت فأرات[5] النارنج،

---

(١) العرف: الرائحة الطيبة.

(٢) السرق: شقق الحرير.

(٣) الذماء: بقية الروح.

(٤) خلقت: طيبت.

(٥) فأرة المسك: وعاؤه.

وأنطقت ألسنة العيدان، وقام خطباء الأوتار، وهبت رياح الأقداح، ونفقت[1] سوق الأنس، وقام منادي الطرب، وطلعت كواكب الندماء، وامتدت سماء الند[2] فبحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخُلْد، وتتصل الواسطة بالعقد".

والرسالة مغموسة غَمْساً في صور وأخيلة متعاقبة، وكأنما ترك الصاحب نفسه على سجيتها، فلم يعمد فيها إلى سجع. ولعل في ذلك ما يرد على من أتهموه بتكلفة للسجع وغرامة به، حتى لو كلفه ذلك ذلك خَلاً في الملك والدولة أو لو كلفه أهوالاً ثقالاً ما بعدها أوال، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما في هذه الرسالة. وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة. وكانت بديهته حاضرة، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فمن ذلك أن ضَرَّابين للنقود من دار الضّرْب رفعوا إليه رقعة في مظلمة ووقعوا عليها باسمهم: الضّرَّاربين، فوقَّع تحتها "في حديد بارد". واستمع إلى ابن سمعون الواعظ ببغداد في أثناء درس له فسأله متخابثاً عن قَدْ سَكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم، يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام، ولم ينقطع فلما سكت قال له الصاحب: "هذا الذي تقوله بعد التوهم، وإنما سألتك قبله"!.

---

(١) نفقت: راجت.

(٢) الند: الطيب.

obeikandl.com

٥

بديع[١] الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمَذان، ولذلك يقال له الهمذاني، ولقَّبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبي. وهو من أسرة عربية، نزلت مسقط رأسه، وهي أسرة تغلبية مضرية، ومن قوله في بعض رسائله: "همذان المولد، وتَغْلب المورد، ومُضَر المحتد" فهو ليس فارسي الأصل، بل هو عربي مصري تغلبي. وعُني به أبوه، فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره، وألحقه بحلقات العلماء، وخاصة حلقة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي المشهور صاحب كتاب المجمل، وله يقول في بعض رسائله متلطفاً:

لا تَلُمْنِي على ركاكة عَقْلي أَنْ تيقَّنتَ أنني همَذاني

وكان محبًّا للرحلة، فلم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد، وكان- كما مرَّ بنا في تجرمته- راعياً كبيراً من رُعاة الأدب في عصره، بل كان أكبر رعاته، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدحه ببعض أشعاره، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية، وأحضره مجالسه، ويقال إنه كان يُلْقى عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية، فينقلها في سرعة عجيبة.

ويرحل عن حضرة الصاحب مولِّياً وجهه شَطْر جُرْجان، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء، وهي أسرة الإسماعيلية، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلي، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلي الشيعي، وهو اتفاق في الاسم جَرَّ إلى هذا الخطأ[٢]. ويؤكد ذل أن ياقوت في ترجمته له يقول: "إنه

---

(١) انظر في بديع الزمان وترجمته وأخباره اليتيمة ٤/ ٢٥٦ ومعجم الأدباء ٢/ ١٦١ ودمية القصر ٢/ ٢٤٦ وابن خلكان ١/ ١٢٧ ورسائله مطبوعة قديماً ببيروت ومقاماته طبعت مراراً، وديوانه مطبوع بمصر قديماً وانظر فيه كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ص٢٣٨ وأيضاً كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص١٣ وما بعدها.

(٢) راجع كتاب بيدع الزمان الهمداني لمارون عبود (طبع دار المعارف) ص١٦ وهو يشك في اسمه واسم أبيه وعروبته دون دليل.

كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة" فلم يكن إسماعيلياً، ولا كان أيضاً إمامياً شيعياً، بل كان سُنِّياً أَشْعَرِياً.

ولا يمكث في جُرجان طويلاً، بل يتركها إلى نَيْسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبي بكر الخُوارزمي، وهو اصطدام طبيعي، فقد كان الخوارزمي شيعياً إمامياً، وكان يدعو لبني بويه الشيعة الإماميين في نيسابور معقل الدولة السامانية السنية، فانتهز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي انتصروا فيها للبديع، فعَلا صيته، وتألق نجمه، إذ كان الخوارزمي يُعَدّ في الذروة من الكتاب والشعراء لعصره. وتصادف أن توفي سريعاً، فخلا الجو للبديع، وطارت شهرته، ورعاه حينئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها النابهون. وسرعان ما فارقها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد في خراسان بينما الجوائز والمكافآت تُغْدَقُ عليه، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين ولَّى وجهه نحو سِجِسْتان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤-٣٩٩هـ). وكان أديباً فأعجب ببديع الزمان، ويقول الباخرزي إنه وصله بألف دينار. وذكر ذلك في إحدى رسائله، وله فيه خمس مقامات أنشأها في مديحه وقصائد ورسائل مختلفة.

ويترك سِجستان إلى هَراة بأفغانستان، ممنِّياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوي ويلقاه، وقد أنشدنا له قصيدة في مديحه على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، ويُصْهر إلى سَرِيٍّ من سَراة هَراة يسمَّى الخُشنامي، وينجب أولاداً، ويقتني عَقاراً وضِياعاً. ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء. ويبو أنه غدت له مكانة كبيرة، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر، يقول في بعض رسائله: "وهؤلاء الصدور، يرون أن الشمس من قِبَلي تدول" غير أنه لم يلبث أن توفي وهو لا يزال في الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة.

وللبديع رسائل كثيرة، وهي رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهجاء والتقريع، ومنها ما هو موجَّه إلى

الأمـراء أو الـوزراء أو كبـار المـوظفين أو شـيوخه أو إلى نظرائـه مـن الأدبـاء أو إلى أهلـه أو إلى ذوي الوجاهة واليسار. وله من كتاب إلى الأمير أبي نصر الميكالي النيسابوري:

"كتـابي- أطـال الله بقـاء الأمـير- وبـودِّي أن أكونـه، فأسْعـضد بـه دونـه، ولكـن الحـريص محروم لو بلغ الـرزق فـاه. لـولاَّه قفـاه، وبعـد فـإني في مفاتحتـه بـين ثقـة تَعِـد، ويـد ترتعـد، ولِمَ لا يكـون ذلـك والبحـر وإن لم أره، فقـد سـمعت خـبره؟ ومـن رأى مـن الـسيف أثـره، فقـد رأى أكثـره، وإذ لم أَلْقـه، فلـم أجهـل إلا خَلْقـه، ومـا وراء ذلـك مـن تالِـد أصـلٍ ونَـشَبٍ، وطـارف فضل وأدب، فمعلومٌ تـشيد بـه الـدَّفاتر، والخـبر المتـواتر، وتنطـق بـه الأشـعار، كـما تختلـف عليـه الآثار، والعين أقل الحواسِّ إدْراكاً، والآذن أكثرها استمساكاً".

وفي هـذه الرسـالة القـصيرة مـا يوضـح بعـض خـصائص سـجعه، وأنـه يُعْنَـى فيـه بتـصير العبـارات، وحتـى يخيـل إلى الإنـسان كـأن سـيلاً متـصلاً مـن الكـلام يجـري ولا ينقطـع إلا أن يتوقّف البديع عامـداً لينهـي الكـلام. وتأمَّـلْ في سـجع هـذه الرسـالة فـستجده موشـى بالجنـاس الناقص في مثـل: "تَعِـد وترتعـد" و"أره وخـبره" و"أثـره وأكثـره" و"أَلْقـه وخَلْقـه". وهـو دائـماً يَغْمـس رسـائله في الجنـاس غَمْـساً، تـارة يـأتي بـه كـاملاً، وتـارة يـأتي بـه ناقـصاً، وهـو الأغلـب الأكثر، كقولـه في الأمـير خلـف بـن أحمـد في إحـدى رسـائله: "لـو أن البحـر عُـدده، والـسحاب يده، والجبال ذهبـه، لقـصرت عـما يهبـه. بينـما المـرْءُ في سِـنَة مـن نومـه، وقـصاراه قـوتُ يومـه، إذ يُقْـرَعُ البـاب عليـه قَرْعـاً خَفِيًّـا، ويُـسْأل بـه سـؤالاً خَفِيًّـا، ويُعْطَـى ألفـاً خلفيًّـا". والجنـاس النـاقص واضـح في هـذه العبـارات المتعاقبـة، وهـو يـشفعه بكثـير مـن التـشبيهات والاسـتعارات، ضـماًّ دائـماً النظـير في الألفـاظ إلى نظـيره، وهـو مـا يـسميه البلاغيـون بمراعـاة النظير كقوله من فصل في إحدى رسائله:

"أرني أذكـر الـشيخ كلـما طلعـت الـشمس أوهبـت الـريح أو نجـم الـنجم أو لمـع الـبرق أو عـرض الغيـث ضـحك الـروض. إن للـشمس محيـاًّه، وللـريح ريَّـاه، وللـنجم حِـلاه وعُـلاه، وللبرق سناؤه وسناه، وللغيث يداه ونَداه، وللروض سجاياه".

وواضـح أنـه لمـا ذكـر عنـصراً مـن الطبيعـة وهـو الـشمس أردفـه بـالريح والـنجم والـبرق والغيث والروض. والجناسـات كثـيرة في القطعـة. وبجانـب ذلـك نـراه يكثـر مـن الاقتبـاس مـن

القرآن، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور في تضاعيف رسائله. ونراه يجنح كثيراً إلى سَرْد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة:

"فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلاً عن جمله ففقده، فلما طلع القمر وجده، فرفع إلى الله يده، فقال: أشهد لقد أعليته وجعلت السماء بيته. ثم نظر إلى القمر فقال: إن الله صوَّرك ونَّرك، وعلى البروج دوَّرك،.. ولئن أهديت إلى قلبي سروراً، لقد أهدى إليك نوراً. والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره، وأنفذ بين الجلود واللحوم أمره، ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه، فجعله فوقهم وجعلهم دونه".

ويضرب مثلاً لمن يذهب في البحث بعيداً عن أمنيته، وهي مَدّث يده، بالبخاري الذي ضاع حماره فذهب يبحث عنه في البلاد النائية، بينما هو في مَرْبِضِه، يقول:

"لم يكن مَثلي معه إلا مثل البخاري الذي ضاع حماره وخرج في طلبه، حتى عبر نهر جَيْحون بسببه، يطلبه في كل مَنْهلة، وينشده في كل مرحلة، وهو لا يجده حتى جاوز خُراسان، وانتهى إلى طيرستان، وأتى العراق، وطاف الأسواق، فلما لم يجده وأيِس عاد وقد طالت أسفاره، ولم يحصِّل حماره، حتى إذا وصل إلى بلده، بين أهله وولده، أحب الله أن يلطف به لطفاً ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى اصطبله، فإذا الحمار بسرجة ولجامه، وحزامه، قائماً على المَعْلف ينشّ".

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة، بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره وبعد عصره. وجعلته موهبته القصصية التي رأيناها في رسائله يبتدع فنًّا جديداً، هو فن المقامة، وهي حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته: أبي الفتح الإسكندري ورواية حكاياته وأقاصيصه عيسى بن هشام. والمعروف أنه أملى أربعين مقامة في اثناء مقامه بنيسابور، وأضاف إليها خمساً، كما أسلفنا، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير سجستان، ثم أضاف إليها ستاً أخرى. والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً أحاديث ابن دُرَيْد الأربعين التي احتفظ بها كتاب الأمالي لأبي على القالي، وهي حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب، وبعد أن أنهاها رأي أن يعرض على طلابه ثانياً أربعين مقامة له. ومعنى كلمة مقامة حديث. ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة الموضوعات، بل جعلها تدور على

موضوع واحد، هو الكُدْية أو الشحاذة الأدبية، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المكدين في أوائل كتابه "البخلاء" وكذلك حديث البيهقي عنهم في كتابه " المحاسن والمساوي " ويعرض الجاحظ والبيهقي لأساليبهم وحيلهم في استخلاص الطعام والدراهم والدنانير من الناس. وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسماؤهم في عصر بديع الزمان، ومر بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم في هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً في القسم الخاص بالعراق. وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته، ونراه في أولاها يتمثل بأبيات كبير المكدين أبي دلف الخزرجي، وقد أنشدناها في حديثنا السابق عنه، إذ يقول:

وَيْحَك هذا الزمانُ زورُ فلا يغرنَّك الغَرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكدين أو الأدباء الشحاذين، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان، وهو- كما أسلفنا- أمير فارسي هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكدية.

وتنقل بديع الزمان بأبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته في بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التي ألم بها وأكثرها بلدان فارسية. وفي أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذي وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد، أو باسم الأكلة التي طعمها أبو الفتح مثل المقامة المضيرية نسبة إلى طعام المضيرة، وهي لحم يطبخ باللبن المضير أي الحامض. وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء. وسمي مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع، ولعله يقصد الكلام المسجوع المليء بالجناس وما إليه من المحسنات البديعية. وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكدية، إذ هي مديح خالص له. أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية عن طريق التفاصح البياني وما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس. وفي تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارستانات

وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأواني في بيوت الأغنياء والفقراء. ويعرض في المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء في بعض البلدان. وقد حمل في المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة، لأنه كما قدمنا كان أشعرياً، وكانت الخصومة مستعرة في زمنه بين الأشعرية والمعتزلة. ونحن نسوق له إحدى مقاماته، ولتكن المقامة البصرية نسبة إلى البصرة في العراق، وهي تجري على هذا النمط:

"حدثنا عيسى بن هشام قال: دخلت البصرة وأنا من سني في فتاء (شباب) ومن الزي في حبر ووشاء (ثوب مطرز) ومن الغنى في بقر وشاء (غنم) فأتيت المربد (سوق البصرة) في رفقة تأخذهم العيون ومشينا غير بعيد إلى بعض تلك المتنزهات، في تلك المتوجهات، وملكتنا أرض فحللناها، وعمدنا لقداح اللهو فأجلناها، مطرحين للحشمة إذ لم يكن فينا، إلا منا، فما كان بأسرع من ارتداد الطرف، حتى عن (ظهر) لنا سواد (رجل) تخفضه وهاد، وترفعه نجاد (مرتفعات) وعلمنا أنه يهم بنا، فأتلعنا (مددنا أعناقنا) له حتى أداه إلينا سيره ولقينا بتحية الإسلام، ورددنا عليه مقتضى السلام، ثم أجال طرفه فينا وقال: يا قوم ما منكم إلا من يلحظني شزراً (بمؤخر عينه) ويوسعني حزراً (تحمينا) وما ينبئكم عني، أصدق مني. أنا رجل من أهل الإسكندرية، من الثغور الأموية، قد وطأ (مهد) لي الفضل كنفه، ورحب بي عيش، ونماني بيت ثم جعجع بي (أهانني) الدهر، وأتلاني (أتبعني) زغاليل حمر الحواصل... ونشزت علينا البيض (الدراهم) وشمست (نفرت) منا الصفر (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالي) وحطمتنا الحمر (السنوات المجدبة)... وهذه البصرة ماؤها هضوم (مهضم) وفقيرها مهضوم: فكيف بمن:

يطوِّف ما يطوِّف ثم يأوي ... إلى زُغْبٍ محدَّدة العيونِ [1]

كَسَاهَنَّ البِلى شُعْثاً فتُمْسى ... جياعَ النَّابِ ضامرَة البطون [2]

---

(١) زغب: من الزغب: صغار الريش والشعر والكناية واضحة.

(٢) شعثا: مغبرة، كناية عن أحداً لا يرعاهم.

ولقد أصبحن اليوم وسرحن (أجلن) الطرف في حي كميت (يقصد نفسه) وبيت كلا بيت، وقلبن الأكف على ليت، ففضضن عقد الضلوع، وأفضن ماء الدموع، وتداعين باسم الجوع:

والفَقْرُ في زمن اللئا ... مِ لكل ذي كرمٍ علامَهْ

رَغِبَ الكرامُ إلى اللِّئا ... م وتلك أشْراطُ القيامة [1]

ولقد اخترتكم يا سادة، ودلتني عليكم السعادة، وقلت: قسماً، إن فيهم لدسما، فهل من فتى يعشيهن، أو يغشيهن (يكسوهن) وهل من حر يغديهن أو يرديهن (يلبسهن ثياباً). قال عيسى بن هشام: فوالله ما استأذن على حجاب سمعي كلامٌ رائع أبرع؛ وأرفع، وأبدع، مما سمعت منه. لا جرم أنا استمحنا الأوساط (يريد الأحزمة وما فيها من نقد) ونفضنا الأكمام، ونحينا الجيوب ونلته (أعطيته) أنا مطرفي (ثوبي) وأخذت الجماعة إخذي، وقلنا له: الحق بأطفالك، فأعرض عنا بعد شكر وفاه، ونشر (ثناء) ملأ به فاه".

وواضح ما يمتاز به البديع في مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة، حتى يدخل السرور على سامعيه وترتسم البسمات على شفاههم. ويكثر من إنشاد الشعر في المقامات، ومن حل بعض الأبيات المشهورة، على نحو ما صنع بقوله: " وأتلاني زغاليل حمر الحواصل" يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قريبة عهد بالولادة، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش، والصورة استعارها من الخطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب، فتوجه إليه يستعطفه لأولاده قائلاً:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بِذي مَرَخٍ ... زُغْبِ الحَواصل لا ماءٌ ولا شجَرُ [2]

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة، غير أنه لم يستغلها في مقاماته بالمقدار الذي كان يظن، إذ لم يضع في ذهنه صنع قصص وحكايات، إنما الذي وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبي الفتح وسيلة لحشد عبارات

---

(١) أشراط: علامات.

(٢) ذو مرخ: موضع بنجد.

مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة. وجاراه الحريري وغيره في صنع هذه الأقاصيص القصيرة البلاغية، وعدوها أروع صور النثر وأبلغه، غير حافلين بعمل قصص طويلة أو حتى قصص قصيرة متنوعة. وبدأ البديع فوضع هذه الأقاصيص القصيرة أو هذه المقامات في إطار السجع، وتبعه خالفوه. وهو يضيف إلى السجع- كما رأينا في رسائله- ألوان البديع من الأخيلة والتصاوير ومن الجناس ومراعاة النظير، وألهاه الحوار القصصي عن المبالغة في ذلك. ولا ريب في أن سجعه في مقاماته- كرسائله- سجع رشيق، لما يمتاز به من قصر ومن حسن انتخاب لألفاظه. وقد يتحلل بعض مقاماته بالشعر، كما قد يحشد فيها ببعض ألفاظ غريبة، على نحو ما نقرأ في المقامات: الحمدانية والموصلية والقردية. وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمي، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة في الغرابة. غير أن ذلك إنما يأتي في المقامات التي سميناها وفي الحين البعيد بعد الحين، بحيث لا تعد عيباً في أساليبه التي تطبعها- كما قلنا- الرشاقة، وأيضاً الخفة والعذوبة وروح الفكاهة المرحة المحببة لكل إنسان.

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه في كتابنا المقامة من أن المقامة الإبليسية لبديع الزمان هي التي أوحت لابن شهيد الأندلسي وأبي العلاء المعري رحلتهما فيما وراء الطبيعة، فإن بديع الزمان تصور في مقامته عيسى بن هشام يلتقي بإبليس في واد من وديان الجن، إذ ضلت منه إبل فخرج يطلبها، حتى نزل في واد حافل بالأشجار والأنهار، وبينما هو ينظر من حواليه إذ رأى شيخاً جالساً فسلم عليه ورد السلام، وسأله ابن هشام هل تروي من أشعار العرب شيئاً؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهش له ابن هشام، فأنشده قصيدة لجرير، وعجب ابن هشام من انتحاله لها، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس " ما أحدٌ من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وأنا الشيخ أبو مرة ". ويغيب عنه، ويجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً. وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة في رسالته " التوابع والزوابع " أي الجن والشياطين، وهو فيها يلقى شياطين الشعراء في وادي الجن، وكلما لقى شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه، ثم أنشده من شعره، فيبدي إعجابه به ويجيزه اعترافاً بروعة شعره، ولقى شياطين

الكتاب كما لقى شياطين الشعراء، وعرض عليهم بعض رسائله، ولقى شيطان بديع الزمان الذي سماه " زبدة الحقب "، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التي يحاكيه فيها، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته، ويجيزه على إبداعه. والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبليسية، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء في وادي الجن موضوعاً لهما، ويلقى ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره، وأنه يعارض مقامته الإبليسية بتوابعه وزوابعه. وتجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذي ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صور فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفي الجنة، أو أن أبا العلاء هو الذي ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة في وادي الجن؟. ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال، فإن بديع الزمان هو الذي استغل لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء في مقامته الإبليسية، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة. ويتضح أثر البديع بقوة في ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع في وادي الجن، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادي، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع.

obeikandl.com

خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي العراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسي لأقاليمها حينئذ، وهي الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وظفار وعمان والبحرين، وفصلنا القول في إمارتي مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز في حكم الدولة العثمانية. وصورنا تحركات القبائل في نجد وتكوينها لإمارات متعددة في شرقي الجزيرة وظهور آل فضل وآل مرا في بوادي الشام ثم ظهور آل سعود في نجد. وعرضنا دول اليمن المتعاصرة في زبيد وصنعاء وصعدة وعدن ودخولها في حكم الأيوبيين ثم الرسوليين فالطاهريين، فغلبة الدولة الزيدية عليها. وتتداول الدول اليمنية حضرموت، وكذلك ظفار إلى أن تبعت عمان نهائياً. وكان الخوارج في عمان يتخذون " نزوى " في الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عمان والثغور على الخليج العربي قروناً متطاولة حتى غلبوا عليها في القرن العاشر الهجري. وسيطر القرامطة على البحرين في أوائل العصر، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العيونية ودولة بني عصفور، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقطيف منذ أكثر من قرن.

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحضر، وظلت نجد بدوية إلا قليلاً في بعض القرى وبعض العواصم التي اتخذتها إماراتهم. وكان ينزل اليمن أحباش كثيرون، بينما نزل في مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا. وعرفت اليمن وعمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهل لشيء بها من الحضارة، واشتهرت اليمن بكثرة الجواري والغناء. وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مذاهب الشيعة: الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت " نزوى " بعمان مركزاً للخوارج الإباضية من قديم ومنها

شاع مذهبهم في حضرموت. وما ينتصف القرن الثاني عشر الهجري حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدرعية الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده في يد محمد بن عبد الوهاب لنشرها في الجزيرة، وهي نداء يدعو إلى إتباع الحنابلة من أهل السنة. ويلقانا كثير من كبار المتصوفة في مكة واليمن وحضرموت، وكان النساك متشردين في كل مكان.

وكان يجري في كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها، حتى في قرى نجد وقد تحولت- منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب- إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه: أحمد بن حنبل وابن تيمية، وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين، بما كان فيهما من العلماء والأدباء، وبما كان يفد عليهما سنوياً من أدباء العالم العربي وعلمائه، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طوالاً. وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين، ونشط معها البحث في علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العماني. وفي كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء في كل الأقاليم، وكثر ما أنتجوه من الكتب والمصنفات.

وكان الشعر يجري على كل لسان في أقاليم الجزيرة، وأخذت العامية تزاحم الفصحى في نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجري، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حميني في اليمن وحضرموت وشعر نبطي في بقية الأقاليم، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قوياً فيها جميعاً، وقد ترجم الباخرزي لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن في القرن الخامس الهجري وترجم العماد الأصبهاني لطائفة من شعراء بني عقيل في الموصل وشعراء بني مزيد في الحلة وأيضاً لطائفة من شعراء الحجاز واليمن في القرن السادس. وتلقانا بعده في كتب مختلفة تراجم لشعر الجزؤرة في حقب العصر التالية، غير ما طبع ونشر من دواوين النابهين من الشعراء. ويكثر شعراء المديح وفي مقدمتهم القاسم بن هتيمل اليمني وأحمد بن سعيد الخروصي الستالي العماني وعلي بن

مقرب العيوني البحراني وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمي، كما يكثر شعراء المراثي من أمثال التهامي المكي وجعفر الخطي البحراني، وشعراء الفخر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميري اليميني وسليمان النبهاني العماني.

وتتكاثر في الجزيرة طوائف الشعراء، ونلتقي منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفي طليعتهم ابن القم والسلطان الخطاب وعمارة اليمني، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى بن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيى بهران وعلي بن محمد العنسي في اليمن، وبشعراء الخوارج من أمثال أبي إسحق الحضرمي الإباضي وابن الهبيني اليمني. ونلتقي بشعراء الدعوة الوهابية السلفية، وفي مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني اليمني وابن مشرف الأحسائي، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البرعي اليمني وعبد الرحمن العيدروس الحضرمي. وجميعهم رسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية.

ولم تكن نجد تعني بالكتابة قبل ظهور محمد عبد الوهاب، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نمواً واسعاً. وكان في مكة والمدينة كتاب إنشاء من قديم، وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريظ الكتب. وكانت الكتابة مزدهرة في اليمن طوال العصر، وظلت ناشطة في حضرموت وعمان والبحرين. وتحتفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر المماليك. وكانت الرسائل الديوانية ناشطة في اليمن منذ زمن الدولة الصليحية في القرن الخامس. وتحتفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين المماليك في مصر، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخورج في عمان، وبالمثل بين الأئمة الأخيرين وعمالهم. وتكثر الرسائل الشخصية ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة. ويكثر الوعظ، وتلقانا محاورات ورسائل فكاهية ومقامات أدبية متنوعة.

٢

وفي القسم الثاني من هذا الجزء تحدثنا عن العراق، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسي وبيان الدول التي تعاقبت على حكمه، وهي الدولة البويهية، ويليها الدولة السلجوقية، ويسترد الخلفاء منها في منتصف القرن السادس الهجري صولجان الحكم، ويقضي التتار بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم في منتصف القرن السابع. وتتعاقب على العراق وبغداد دولتان تتاريتان: دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركمان، ويظل العراق في قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية. وكان المجتمع في بغداد يتألف من ثلاث طبقات: طبقة أرستقراطية مترفة. وطبقة وسطى تحظى بشيء من سعة العيش، وطبقة دنيا هي طبقة العامة، وكانت تتجرع الضنك والبؤس، فتحول كثيرون منها إلى عيارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة إلى أخرى مستشعرين- فيما يبدو- فكرة العدالة الاجتماعية، وشاع في العراق المذهب الشيعي الإمامي الاثنا عشري، وكان بجواره مذهب شيعي مارق هو مذهب النصيرية، ومذهب شيعي معتدل هو مذهب الزيدية. وكانت موجة الزهد والتصوف حادة طوال العصر، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتي الجيلاني والرفاعي وما شاع بعهدما من طريقتي النقشبندية والبكطاشية.

وظلت الحركة العلمية في بغداد ناشطة وكذلك الشأن في العراق عامة إذ عني بها البويهيون والسلاجقة، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد، وتتكاثر المدارس، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية، وكانت المساجد مدارس كبرى يستمتع فيها الناس للعلماء في كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبياً عاماً، مما أحدث رواجاً هائلاً في الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم في كتابه "الفهرست". وتظل هناك بقية لحركة الترجمة، وتنشط الحركتان الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا. وتتكاثر الندوات الفكرية في بغداد ويتكاثر المتفلسفة، وخاصة قبل الغزو التتاري، وتظل منهم بقية في الحقب التالية. وتنشط في العصر الكتابات الفلسفية

والطبية والعلمية والجغرافية، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر، وتنفذ بغداد في النحو إلى مدرسة جديدة هي المدرسة البغدادية. ويتسع النشاط في الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات، وبالمثل في الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبي وشعره. ويعنى صفي الدين الحلي بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامي. وتنشط بغداد والعراق في دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام، كما تنشط الكتابة في التاريخ العام والخاص وفي تراجم العلماء من كل صنف.

ويتكاثر الشعراء في العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما يلقانا في اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم، وينظمون في الرباعيات والموشحات، ويفسحون في أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى في المحسنات البديعية. ويلقانا مع كل دولة بل في كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفذاذ المتنبي أكبر شعراء العصر، وسبط بن التعاويذي، وصفي الدين الحلي. ونلتقي بكثيرين من شعراء المراثي والهجاء والشكوى من أمثال السري الرفاء، وابن القطان. ويكثر شعراء الشيعة، وفي مقدمتهم الشريف الرضي، ومهيار، وابن أبي الحديد.

ونلتقي بطوائف كثيرة من الشعراء، وأول من نلتقي بهم شعراء الغزل، وقد أذاعوا فيه حنيناً وشوقاً وظمأ للقاء محبوباتهم لا ينتهي، مما أعد لظهور ضرب من الشعر الوجداني عند بن العلم والحاجري والتلعفري. ويتغنى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال ابن سكرة، وابن الحجاج، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادي، والمرتضى الشهرزوري، والصرصري. ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفي والتعليمي من أمثال ابن الشبل البغدادي وابن الهبارية، كما يلقانا شعر شعبي عامي كثير وقفنا عند فنونه، وأيضاً شعراء شعبيون من أمثال أبي الأحنف العكبري.

ويتنوع النثر في العصر، فكان هناك النثر الفلسفي والنثر العلمي والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبي والرسائل الشخصية. وتكثر الكتابات الديوانية

ونلتقي بأبي إسحق الصابئ والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير. ويلقانا من أعلام النثر أبو حيان التوحيدي بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبي بالفكر الإسلامي العربي مع حسن الأداء، والحريري بمقاماته الرائعة التي خلبت ألباب معاصريه وخالفيه حتى العصر الحديث.

obeikandl.com

٣

وفي القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتقابلة بها، وهي الدولة السامانية، والدولة البويهية، والدولة الزيارية، والدولة الغزنوية، ثم تحدثنا عن الدول التي تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجري، وهي دولة السلاجقة، والدولة الخوارزمية، والدولة التتارية الإيلخانية، والدولة التيمورية، والدولة الصفوية، وما تلاها من الدول. وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات: طبقة أرستقراطية مترفة، وطبقة متوسطة تعيش في غير قليل من اليسار، وطبقة دنيا هي طبقة العامة. ونشط الشيعة في نشر عقيدتهم، وفي مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم في القرن الثالث دولة في طبرستان غير أنها لم تمكث طويلاً. ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون في نشر عقيدتهم، ومازالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم في أواخر القرن التاسع الهجري فجعلوا المذهب الإمامي المذهب الرسمي لإيران. وكان نشاط الإسماعيليين كبيراً طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائياً في منتصف القرن السابع الهجري. وكانت تعم في إيران موجة زهد وتصوف، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء، وسرعان ما رأب الصدع أبو نصر السراج، والقشيري، والغزالي.

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة، وخاصة في القرون الأولى، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب، وعُنوا بالمكتبات. وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم، حتى لانساء، وأخذوا يفردون كتباً لشرح المصطلحات في العلوم والفنون. ونشطت نشاطاً عظيماً دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، ويكفي مثلاً لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيروتي، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية. وتكاثر وضع المعاجم، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية. ونشط التأليف في التفسير كما نشط التأليف في الحديث النبوي، وفي الفقه، وفي علم الكلام وخاصة في المذهبين: الأشعري والماتريدي،

وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تتناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تتناول التراجم: تراجم الشعراء والعلماء في كل فن.

ويزدهر الشعر العربي بإيران في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة، بدليل المجلدات الضخمة التي شغلها في اليتيمة وتتمتها وفي الدمية والخريدة. ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسي وشرعائه كتاب عوفي في القرن السابع الهجري. ونفس الشعر الإياني صيغ صياغة على أنماط الشعر العربي، وتناولَ نفس موضوعاته، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته. وقد ظل الشعر العربي حيًّا في إيران حتى القرن التاسع على الأقل. ويتكاثر شعراء المديح وفي مقدمتهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطغرائي والأرَّجاني، وبالمثل شعراء المراثي من أمثال أبي الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني، وشعراء الفخر والهجاء والشكوى من أمثال أبي بكر الخوارزمي، والأبِيَوْرْديّ.

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء، وأول من نلقاهم شعراء الغزل وفي مقدمتهم أبو الفرج بن هندو، وأبو الفضل الميكالي. ويليهم شعراء اللهو والمجون من أمثال أبي بكر القُهُسْتاني، وأبي الحسن الباخرزي، وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القُشَيري، ويحيى السُّهْرَوَرْدِيّ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفي وفي مقدمتهم أبو الفضل السكري المَرْوَزِيّ، وأبو الفتح البُسْتي، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبي دُلَف الخزرجي.

وينشط النثر، ويظهر فيه قصص صوفي كثير وقصص فلسفي بديع، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان، ويشتهر في كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وَشْمكير والعُتْبِيّ ورشيد الدين الوطواط، ومن أنبه كتاب إيران في العصر على توالي حقبه ابن العميد الذي أرسى قواعد التابة على ركنين أساسيين من السجع والمحسنات البديعية، وأوفى الصاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التي كانت تنتظرها من التجويد والتنميق. وينشئ بديع الزمان الهمذاني لأول مرة في تاريخ الأدب العربي مقاماته المشهورة. وهو بحق يُعَدُّ أَبْرَعَ كتَّاب إيران الذين ظهروا في عصر الدول والإمارات غير منازَع ولا مدافَع.

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

في الدراسات الإسلامية	الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة
* الوجيز في تفسير القرآن الكريم	* عصر الدول والإمارات (ليبيا- تونس- صقلية)
الطبعة الأولى ١٠٥٢	الطبعة الثانية ٤٤٦ صفحة
* سورة الرحمن وسور قصار	* عصر الدول و الإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السودان)
(عرض ودراسة) الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات	الطبعة الأولى
في تاريخ الأدب العربي	**في مكتبة الدراسات الأدبية**
* العصر الجاهلي	* الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة السابعة عشرة ٤٣٦ صفحة	الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة
* العصر الإسلامي	* الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الرابعة عشرة ٤٣٦ صفحة	الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة
*العصر العباسي الأول	* التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة الثالثة عشرة ٥٧٦ صفحة	الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
* العصر العباسي الثاني	* دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة التاسعة ٦٥٧ صفحة	الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
	شوقي شاعر العصر الحديث الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
* عصر الدول والإمارات	* الأدب العربي المعاصر في مصر

obeikandl.com

الجزيرة العربية- العراق- إيران	
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة	الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحات
* عصر الدول والإمارات (الشام)	* البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة	الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
* عصر الدول والإمارات (مصر)	* الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية.
الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة	الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
* عصر الدول والإمارات (الأندلس)	* البحث الأدبي (طبيعته- مناهجه- أصوله- مصادره
	الطبعة السادسة ٢٧٨صفحة

* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور	* تحريفات العامية للفصحى
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة	الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة
* في التراث والشعر واللغة	في مجموعة نوابغ الفكر العربي
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة	*ابن زيدون
في الدراسات النقدية	الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة
* في النقد الأدبي	في مجموعة فنون الأدب العربي
الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة	* الرثاء الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
* فصول في الشعر ونقده	* المقامة الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة	* النقد الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة
في الدراسات البلاغية واللغوية	الترجمة الشخصية

obeikandl.com

* البلاغة: تطور وتاريخ	الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
الطبعة التاسعة ٣٨٠ صفحة	الرحلات الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
* المدارس النحوية	في التراث المحقق
الطبعة السابعة ٣٧٦ صفحة	المغرب في حلي المغرب لابن سعيد
* تجديد النحو الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة	الجزء الأول- الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة
تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده	الجزء الثاني – الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة
الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحات	* كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
* تيسيرات لغوية	الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة	* كتاب الرد على النحاة
	الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
	* الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر
	الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

في سلسلة اقرأ	
* مع العقاد	* الفكاهة في مصر الطبعة الثانية
الطبعة الخامسة	* معي (١) الطبعة الثانية
* البطولة في الشعر العربي	*معي (٢) الطبعة الأولى
الطبعة الثانية	

obeikandl.com